

المرأة العثمانية

بين الحقائق والأكاذيب

أصلي سنجر

* أفضل كتب التاريخ لعام 2008م

* رُشّح لجائزة أفضل تصميم

دار النيل

تباينت وجهات النظر في المرأة العثمانية؛ فالمستشرقون قالوا: حمقاء، مسكينة، وضيعة، وقال المعجبون بها: مَلاك طاهر، أما "أَصْلِي سَنْجَرْ" أمريكية الأصل فقد عاشت في تركيا أكثر من عِقدين، وها هي ذي تقدّم نتائج أبحاثها في هذا الموضوع من خلال واقع مشاهداتها ومشاهدات سائحين أوربيين آخرين، فضلًا عن وثائق المحاكم والسجلات العثمانية، ورأت سَنْجَرْ في المرأة العثمانية: الشخصية القوية مع ظرافة وكياسة، والخلق الحسن، وأناقة المظهر، فهي مناضلة تطالب بحقوقها المشروعة، وهي ركنُ بناءِ الأسرة، ولها دور رائد في المجتمع.

وهذا الكتاب صدرت أول طبعة له بالإنجليزية، ونال جائزة "أفضل كتاب تاريخي" في جوائز "بنجامين فرانكلين" (Benjamin Franklin) بولاية لوس أنجلوس (Los Angeles) في أيار/مايو 2008م، ومن أهمّ نتائج هذا الكتاب الوصول إلى أقرب تقييم لواقع المرأة العثمانية؛ ومن نتائجه: أنها لم تكن مسكينة ولا مظلومة ولا مضطهدة، بل كانت عنصرا أساسا في بناء المجتمع، حريتها مكفولة، وحقوقها مصونة، فإن بُخِست حقًّا لجأت إلى المحاكم للمطالبة به، والوثائق التاريخية شاهدة بذلك.



صفحة الغلاف الأمامية

Brindesi، السيدات في سبيل كُوجُوكْصُو، 1850م

- تفاصيل المرآة، متحف قصر "طُوبْ قَابي"

زهرة: Ali Üsküdari İ.Ü.K., T5650 41a.

"أصْلِي سَنْجَرْ" كاتبة من أصول أمريكية، ولدت في أمريكا ودرَسَت في جامعاتها، عاشت في إسطنبول أكثر من عِقدين، شاركت في عدة مؤتمرات، وكتبت مقالات كثيرة، وأبحاثًا عديدة عن الأسرة العثمانية عامّة والمرأة العثمانية خاصّة.

قارنت في كتابها هذا بين صورة المرأة الشرقية في عدسة المستشرقين وبين حقيقة المرأة العثمانية، فأبرزت حقيقة مكانتها ودورِها في المجتمع، وخرج البحث بنتائج لا بأس بها، ولها كتابان آخَران وعدة مقالات عن الأسرة والمرأة العثمانية.



نظرة متعمقة في الحياة الساحرة
للمرأة العثمانية

ISBN: 978-975-315-643-1
9 789753 156431
www.daralnile.com

Arabic / Arapça
Osmanlı'da Kadın

دار النيل



المرأة العثمانية

بين الحقائق والأكاذيب



المَرأةُ العُثمانِيَّةُ

بين الحقائق والأكاذيب

تأليف

أصْلِي سَنْجَرْ

ترجمة

أ.د. سمير عباس السيد زهران

دار النيل

إهداء إلى أمي العزيزة (Myrtle Elizabeth Wood) وابني العزيز شَاهِينْ رَأَفت سَنْجَرْ

المرأة العثمانية

بين الحقائق والأكاذيب

الطبعة الأولى: 1435هـ - 2014م

تحرير: إسماعيل كايار

مراجعة: عبدالله محمد بسطويسي

تصحيح: عبد الجواد محمد الحردان

المخرج الفني: أنكين جيفجي

تصميم: إحسان دميرحان، إبراهيم آقداغ، بكر ييلديز، أحمد شحاتة

غلاف: ياووز يلماز

رقم الإيداع ISBN 978-975-315-643-1:

رقم النشر

518

IŞIK YAYINLARI

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1

Üsküdar - İstanbul / Türkiye 34696

Tel: +90 216 522 11 44 Faks: +90 216 650 94 44

Neşe Matbaası

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي – خلف سيتي بنك- التجمع الخامس- القاهرة الجديدة – مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: daralnile@daralnile.com

مركز التوزيع: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر

Mobile: 0020 1141992888

www.daralnile.com

الصفحة ٢: تفاصيل النسيج من داخل غرفة العرض - متحف قصر "طُوبْ قَابِي".

فهرس

مدخل

لَطالما اختلفت وِجهات النظر حول المرأة العثمانيَّة؛ فبينما كان المستشرقون يصورون المرأة العثمانيَّة شخصًا غريبًا مسكينًا منحطّ الأخلاق، رفع المعجبون بها شأنها؛ فسمت كالملائكة في السموات العلا، أما أنا فاقتربت من النساء العثمانيَّات بشغف -على استحياء- في البداية، وعشت في تركيا بوصفي أجنبية قُرابة عشرين عامًا عرفت من خلالها حقيقة ما كان يقال عن المجتمع العثماني إيجابًا أو سلبًا؛ فمن الناس من كان يرى الشخص العثمانيّ مثالًا للأصالة والثقافة والتنوير، بينما كان بعضهم يراه شخصًا رجعيًّا متخلفًا، وكانت السيدات العثمانيَّات يُصوَّرن إما سيدات محترمات ناضجات وقورات، وإما سيدات مسكينات مقيدات بالضغوط حبسهنّ الرجال في حَرَم الدار.

وعندما بدأتُ قراءة ما كتبه الرحَّالة الأوروبيّون من كتب الرِّحلات التي تتحدث عن المجتمع العثمانيّ، واجهتُ هذه الفِكَر المتناقضة نفسها؛ فالمستشرقون يهينون العثمانيّين إهانة لا مكانة لهم معها إلا أن يكونوا في الحضيض؛ فيتحدثون عنهم إما بوصفهم برابرة مستبدين، وإما يظهرون نوعًا من الإنصاف فيرونهم مساكين! وكانوا ينكرون أن تكون للسيدات المسلمات أرواح، ويدعون أنهن يعاملن على أنهن متاع لأزواجهن فحسب، ورغم ذلك، فقد تصدى لهذه الفِكَر بوضوح في الآونة الأخيرة سيدات عشن في الأراضي العثمانيَّة فترة طويلة مثل السيدة مونتجو (Lady Montague)، وجوليا باردُئي (Julia Pardoe)، ولوسي جارنيت (Lucy Garnett)، ووفقًا لآراء أولئك الرحَّالات اللاتي اتخذن هذا الموقف تجاه القضية، فإن المرأة العثمانية ربما كانت تتمتع بحرية أكثر من أي امرأة أخرى على وجه الأرض، وبالإضافة إلى ذلك، فإن المعاملة التي حظيت بها المرأة العثمانية لا بد أن تكون نموذجًا لكل الأمم.

وهذا الفرق البارز بين وجهتي النظر لا يظهر بوضوح إلا في ضوء سجلات المحاكم الخاصة بالسيدات العثمانيات؛ وقد لعب العلماء الغربيون دورًا رائدًا في الدراسات الخاصة بموضوعات الحقوق القانونية للسيدات العثمانيَّات، وكيف كنَّ يفزعن إلى المحاكم لحماية تلك الحقوق؛ والأغلبية الظاهرة من الأدلة التي تم الحصول عليها حتى يومنا هذا نتيجة لهذه الأبحاث تشير إلى أن السيدات العثمانيات كنَّ أفرادًا أحرارًا من الناحية القانونية، لا أعضاء مقهورات ومغتربات في المجتمع، وأما كثرة لجوئهن إلى المحكمة، فسببه المطالبة بحقوقهن، وقد اتبعن هذا الأسلوب ولو على أزواجهن وأقاربهن من الرجال إذا اقتضى الأمر، وإن لم يستطعن أن يجدن حلًّا قانونيًّا يرضيهن في بلادهن؛ سافرن إلى إسطنبول من بلاد بعيدة مثل مصر، وقدمن رفيعة للسلطان ليحصلن على حقوقهن.



وكان من المستحيل ألا أهتم بهذا الموضوع بعد ما اطلعت على صورة المرأة العثمانيّة المنعكسة على سجلات المحاكم، وكنت قد رأيت في المرأة العثمانيّة نموذجًا يتجاوز حدود الزمان والمكان؛ إذ كانت ظريفة مرهفة أنثويّة سواءٌ من حيث مظهرُها الخارجيُ أم من حيث سلوكُها، ولكنها في الوقت ذاته كانت شجاعة، جسورة، جريئة، مدافعة عن حقوقها التي منحها الله لها، وكانت الناحيتان -الأنثويَّة الجبليّة والذكوريَّة إن اقتضى الأمر- متوازنتين في أفضل شكل.

وبفضل ذلك أصبحتْ ركنًا من أركان عائلتها الأساسية التي لا تتزعزع، ورغم أنها لم تكن تَظهر كثيرًا داخل البنية الاجتماعيّة إلا أنها لعبت دورًا مهمًّا جدًّا؛ فصورة المرأة العثمانية تقدم لنا نموذجًا قويًّا حول الكيفية التي يجب أن تكون عليها نساء العالم الطامحات إلى التخلص من الصور المفروضة عليهن منذ قرون، إذا ما بدأن يبحثن عن هوية جديدة أفضل.

كانت للمرأة العثمانيّة صلة عميقة ودائمة بخالقها؛ ولهذا كانت تتجلى فيها رأفة ''الجمال'' وحبّه أحيانًا، وقدرة ''الجلال'' وعظمته أحيانًا أخرى، وقد تغيرت اليوم المعايير الاجتماعيَّة للنساء من دون شك، ولكن المبادئ الأساسيَّة التي كانت تشكل شخصية المرأة العثمانيَّة صالحة أيضًا للقرن الحادي والعشرين كما كانت في الماضي.

ملحوظة للكاتبة: يجب أن يتضح أيضًا أن الدولة العثمانيَّة في مرحلة قمتها كانت دولة ذات نطاق كبير جدًّا ممتد في ثلاث قارات هي: إفريقيَّة وآسيا وأُورُبَّة، وأن آل عثمان تولوا الحكم أيضًا مدة طويلة جدًّا تبلغ نحو ستة قرون، ولأن مصطلح ''المرأة العثمانيَّة'' تعبير واسع وعامٌّ يشمل كثيرًا من الهُوِيَّات والخلفيَّات العرقيَّة والدينيَّة؛ فإنه من الصعب أن نزعم أن هناك نموذجًا وحيدًا متجانسًا من النساء، أما النساء اللاتي يوصفن في هذا الكتاب، فهن السيدات المسلمات اللاتي عشن في المناطق المركزية للدولة العثمانية، ولأن التراث المتعلق بالسيدات المسلمات في المراحل المبكرة القديمة من الدولة كان قليلًا جدًّا؛ فقد حاولت أن أعكس روح أولئك السيدات والجمالَ والرهافة السائدَين في جميع نواحي حياتهن عن طريق اللوحات والصور الفوتوغرافية والمطبوعة.



Fausto Zonar, Göksu Sefası
(ما بعد ١٩١٠م)

١

المرأة العثمانية في عيون الغربيين

"صوَّر الغربُ المرأة العثمانيَّة أَمَةً ومتاعًا، ولم تكن المرأة التركيَّة أيًّا من هذين النوعين، بل كانت من الناحية القانونيَّة في منزلة أفضل من معظم النساء الأوروبيَّات المتزوجات؛ فالسيدات الإنجليزيَّات المتزوجات عند موازنتهن بالسيدات التركيَّات صاحبات الحقِّ الكامل في أملاكهن في كل وقت، نجد أن غير التركيَّات لا يختلفن كثيرًا عن العبيد، لا سيما الحالات السابقة على القوانين التي دخلت حيز التنفيذ فيما بعد، وخاصة في الماضي القريب جدًّا؛ فالقوانين تعطي الحق للمرأة التركية عند زواجها في التصرف في أملاكها مهما كانت أو أي ميراث يؤول لها بعد ذلك؛ فتستطيع المرأة أن تترك هذه الأملاك ميراثًا لمن يرثها، وتستطيع أن توزعها أثناء حياتها؛ فالمرأة التركية عنصر حر في نظر القانون، وتستطيع أن تتصرف بشكل مستقل عن زوجها، ومن الممكن أن تقيم دعوى، وأن تقام ضدها دعوى من دون أي ارتباط به قط، وهذا يعني أن المرأة التركية المسلمة كانت تتمتع بحرية أكثر من مثيلتها المسيحية"[١].

ز. دوكيت فريمن (*Z. Duckett Ferriman*)، ١٩١١م.



كان موضوع المرأة العثمانيّة يجذب القارئ الغربي طوال سنوات؛ فقد جذبت قضايا كثيرة -لا تزال في بؤرة الاهتمام حتى الآن- كثيرًا من الأوروبيين إلى الأراضي العثمانيّة، مثل الحجاب، وعالم الحريم المنفصل عن العالم الخارجيّ، وتعدد الزوجات، وكان ذلك سببًا في المخاطرة باجتيازهم للكثير من الطرق الوعرة حتى يكونوا أول من يحصل على المعلومات المباشرة عن هذه الموضوعات، ورغم أن الكُتَّاب سواءٌ الرجال منهم أم النساء دوّنوا ملاحظاتهم عن الحياة العثمانيّة إلا أن تأثير الكاتبات قد حظي بأهمية كبيرة في عهد الملكة فكتوريا في إنجلترا، وقد سجَّل هؤلاء كل ما سمعوه وشاهدوه خلال الفترة التي قضوها في الأراضي العثمانيّة حتى أدقّ التفاصيل؛ فكلُّ شيء حتى الناس والأماكن، والأحداث والعادات والمناظر قد أصبح محلَّ اهتمام هؤلاء الأوروبيّين، ولطالما عنوا به ودوَّنوه، ومعظم هؤلاء الكتاب يمكن عدُّهم شهود عِيان على حياة العثمانيّين، ولكن عندما نتناول مشاهدات هؤلاء الرحَّالة، يجب علينا أن نتيقظ حتى نستطيع أن نحكم على صدقها؛ إذ كان العثمانيون أناسًا يهتمون بخصوصيَّاتهم إلى أبعد حدٍّ، وكانوا يظهرون اهتمامًا كبيرًا بآداب السلوك في حياتهم الخاصة، كانت السيدات العثمانيَّات يُقِمْنَ في حَرَم الدار المخصص لهن، وكانت هذه الأماكن تُعدُّ أماكن مقدسة عندهم، وكنَّ لا يقابلن من الرجال إلا أقرب الأقارب، ومن كان بينه وبينهن صلة رحم فقط، مثل: الآباء والإخوة والأزواج والأحماء، أما دخول الرجال الغرباء إلى حَرَم الدار، فلم يكن مسموحًا به في أي وقت ألبتة؛ ولذلك فإن تقديم الرحَّالة الأوروبيّين معلومات مباشرة عن السيدات العثمانيَّات في حَرَم الدار والحياة فيه لم يكن متاحًا، فاغتنَوا عن ذلك بسعة خيالهم أو بالمعلومات الوفيرة التي تلقوها من الأجانب الآخرين أو قرؤوها في مصادر أخرى؛ فحتى السيدات الأجنبيَّات لم تكن إحداهن لتدخل حَرَم الدار إلا بعد تمحيص وتدقيق، وحتى يستطيع الرحَّالة الدخول على حريم الأشخاص المرموقين من العثمانيّين، كان لا بد أن تكون لهم علاقات دبلوماسية فى المواقع المهمة.



المنضدة الصغيرة في الثمانينات من القرن التاسع عشر

وكانت المرجعيَّة الثقافيَّة والدينيَّة للأوربيّين تشكل سببًا آخر جعل ما كتبوه لا يتفق مع الحقيقة؛ إذ كانوا في أوروبَّة يحصلون على مصادرهم عمَّا يتعلق بالحريم فيما مضى من حكايات "ألف ليلة وليلة"، "وقد نُشِرَ هذا الأدب التقليديُّ باللغة الفرنسية للمرة الأولى في اثني عشر مجلدًا بين عام ١٧٠٧م-١٧١٤م بشروح



Lady Montague

وإيضاحات أنطون جالاند (Antoine Galland)، وبعد ذلك نشرت أيضًا عدة تراجم إنجليزية لهذا العمل قام بها العلماء الإنجليز في ذلك الوقت، وكانت أشهرَها الترجمة التي قام بها المستشرق سير ريتشارد (Sir Richard Burton) بين عام ١٨٨٢م-١٨٨٦م ونشرت في سبعة عشر مجلدًا، وقد أثرت نماذج المرأة الفاتنة اللعوب في "ألف ليلة وليلة" تأثيرًا حقيقيًا في جموع القراء، وشكل هذا العمل والحكايات المزيفة وتراجم الحكايات الشرقية التي جاءت بعده أساسًا لصورة شهوانية انطبعت في أذهان المستشرقين التقليديِّين عن الحَرَم العثمانيّ".



والشيء اللافت للنظر هو عدم معرفة المصدر الأساسيّ لحكايات "ألف ليلة وليلة"، ويزعم جالاند أن هذه الحكايات قد جاءت من الهند إلى العالم العربيّ عن طريق إيران، وكون العمل خاصًا بكاتب واحد أم من إنتاج أكثر من كاتب هي مسألة يكتنفها الغموض، وعلاوة على ذلك، فإن النص العربيّ قد طُبِعَ تقريبًا بعد قرن من الإصدار الفرنسي، ومع أن مصدر حكايات "ألف ليلة وليلة" لم يعرف على وجه التحديد إلا أنها كانت ذات تأثير كبير على القارئ الغربيّ، وقد شكلت هذه الحكايات أرضية أيضًا لأسطورة الحَرَم مع حكايات الشرق الأخرى التي بدأت طباعتها بعد حكايات "ألف ليلة وليلة" (مثل أقاصيص تركيا وإيران والصين...)، وهذه الأسطورة التي قامت بتصوير السيدات الشرقيات مخلوقات منحطة الأخلاق ومثيرة للشهوة قد صورت الحَرَم أيضًا مكانًا للمتعة، وهذه الفِكَر التي اتخذت شكل قالب نمطيّ قد استُخْدِمَت بشكل مستمر في كتب الرحّالة الأوروبيّين، وجعلتهم يستمرون في إنتاج الأعمال الأدبيَّة المثيرة حتى الآن بتغذيتها بالرواية شبه التاريخيَّة المتعلقة بموضوعات المرأة العثمانيَّة والحَرَم، وكانت أسطورة الحَرَم ناجحة حتى إنَّ الشخصيَّات النمطيَّة نفسها كانت تظهر في الأعمال التركيَّة الشعبيَّة المتعلقة بهذا الموضوع.

وبعض الرحّالة الأوروبيّين خاصة السيدات قد انتقدوا الرحّالة الذين حشَوا كتبهم بأعمال الخيال والمعلومات التي لا تعتمد على الواقع ألبتة، وعلى رأس أولئك السيدات تأتي الرحّالة "السيدة مونتجو" التي سافرت إلى الأراضي العثمانيَّة بين عام ١٧١٦م-١٧١٨م مع زوجها سفير إنجلترا لدى الدولة العثمانيَّة، ونراها -وهي تصف المنازل التركيَّة في خطاب كتبته إلى سيدة تُدعى ثيستلثويت (Thistlethwayte)- تقول ما يلي:



الفنجان المغطى، ١٩٠٢م. متحف قصر "دولْمَا بَهْجَة"

''ربما تتعجبين عندما تسمعين حقيقة مختلفة تمامًا عمّا ذكره الكتاب الرحّالون الذين كانوا مولعين جدًّا بالحديث عن الأشياء التي لا يعرفونها؛ فإن استقبال شخص مسيحيّ في منزل شخصيَّة مرموقة يتطلب الحصول على توصية من شخص محترم هناك أو حدوث موقف استثنائيّ، أمّا حَرَم المنازل فقد كان منطقة محظورة''[٢].

وتواصل مونتجو -وهي تصف الأحوال الماتعة للعبيد القوقازيّين- التأكيد على الموضوع نفسه في خطاب آخر كتبته للسيدة ريتش (Lady Rich) قائلة: *''أنا قلقة لأنك سوف تشكين في حقيقة ما قلته؛ لأن الأشياء التي قلتها تختلف كثيرًا عن آرائنا العامة في إنجلترا، ولكن وصفي هذا لا يخالف الحقيقة في شيء''*[٣].

كانت السيدة مونتجو بارعة جدًّا في نقد التعبيرات البعيدة عن الحقائق فيما يتعلق بتركيا وبالإنسان العثمانيّ؛ لكنها لم تكُف -حينما يقتضي الأمر- عن تشويه الحقيقة وفقًا لرغبتها، وقد فعلت ذلك حين وصفت النساء العثمانيّات في حمام ''صُوفْيا (Sofya)''، وكانت مونتجو تحيي صورة من الكلاسيكية الجديدة في أذهان القراء، وهناك احتمال كبير أن يتقبل قارئ اليوم رصدها، ولكن قراء القرن الثامن عشر لم يكونوا يتوقعون حقيقة الأوصاف التي ذكرتها حول المرأة العثمانيَّة، ونتيجة لما قاله ج. أ. ست جون (J. A. St. John) محرر أعمال السيدة مونتجو، فإن القراء تصرفوا بشكل عادل وبذكاء حادٍّ جدًّا؛ فلم يتوقعوا عكس الحقيقة [٤].

وقد بينت جوليا باردُئي وهي رحّالة إنجليزيّة أخرى شهيرة بعد أكثر من قرن كيف شوهت السيدة مونتجو الحقيقة، وقالت باردُئي التي جاءت إلى الأراضي العثمانية عام ١٨٣٥م، وقضت في إسطنبول خمسة عشر شهرًا تقريبًا: *''لن أكون منصفة إذا قلت إنني لم أصادف شيئًا مما ذكرته و. مونتجو في وصفها البذيء التافه للمرأة العثمانية؛ وكأنها شاهدت ما أوافقها عليه في حفلات فاخرة حضرتها بوصفها سفيرة مرموقة''*[٥].

وقد بذلت جوليا باردُئي –الروائية المؤرخة الشاعرة– جهدًا كبيرًا من أجل تصويرِ الحياة العثمانية تصويرًا حقيقيًّا وتجاوزِ المناظر الشكلية للمجتمع، والغوصِ في الأعماق، وفهمِه بشكل أفضل، وفي ذات الوقت كانت قد انتقدت أيضًا الرحّالة الذين كانوا قد حشوا كتاباتهم بمعلومات ناقصة وخاطئة من مصادر وسيطة، خاصّة عندما لم يستطيعوا الحصول على فرصة لمقابلة النخبة العثمانية، وإذا ما ألقينا نظرة على كتاباتهم في هذا نرى أنهم كانوا يعانون في الحصول على المعلومات، فلا تتأتى لهم إلا بمصدر وسيط؛ *''فليس تحت أديم السماء مثل تركيا في قوميَّتها العصيَّة بنظر الأوروبيّ؛ فالتركي له عادات وثقافة مغايرة للأوربيين تحول دون مرونة التواصل بينهما، وأيضًا فالحصول على المعلومة يقتضي تعلُّم لغتين أساسيتين، وهذا يستدعي بذل الوقت والجهد سنين عددًا، فهاتان اللغتان مغايرتان للغات الأوروبية تمامًا، وهذا يجعل عمل الرحالة أمرًا عسيرًا بل مستحيلًا.*

وفي الواقع فإن الفِكَر المسبقة المتناقضة ضاعفت الموانع الموجودة بشكل واضح طبيعيٍ بين الأفكار والعادات، ولست أدري فلعل ذلك متعلق بتفضيل الشخص لما يحبه، ولكن من المؤكد أن الأوروبيين الذين يعيشون في تركيا في الوقت الراهن يجهلون النظام الحكوميّ، والاقتصاد السياسيّ، والمبادئ الأخلاقيّة لهذه الدولة، ويكأنهم لم يغادروا بلادهم أبدًا، بالرغم من أنهم يعيشون هنا فترة ليست بقليلة، تبلغ نحو عشرين عامًا، أو خمسة عشر عامًا على الأقلّ"[٦].

وقد أدركت باردُئي أن تصحيح الصور النمطيّة حول الحياة العثمانيّة والمجتمع العثمانيّ، التي نُقِشَت مِرارًا وتَكرارًا في ذاكرة الأوروبيين طوال سنوات عملٌ صعب جدًّا، فالحكايات والأساطير المتعلقة بالشرق كانت تجذبهم أكثر من الحقيقة نفسها، أما باردُئي فقد خرجت بهذه النتيجة: "لقد حشا الأوروبيون عقولهم بركامٍ من الأحكام على الشرق (عظمته وصوفيّته وغموضه)، وصار من عادتهم الاعتماد عليها، حتى إنّ التحرر من تلك الأحكام التي رسخت في عقولهم أمر مشكوك فيه"[٧].

"إن وصف الشرق بـ "شرقيّ" يمثل أكثر الصور الرومانسيّة لدى الأوروبيين، وأنا امرأة عاشت فترة طويلة في الشرق لم أقع في إِسارة هذا التصور، ولكن تجذُّر ذلك التصور فيّ قد يوقعني في الخطأ نفسه؛ فعادات الشرق من السهل أن تخدعك إذا شُغِلت بالمظهر عن المخبَر، أما إذا كان المدوِّن ذا ضمير صادق فلن يكتفي بالمظهر، لذا فإنّ تمسكّي بمعرفة ما أجهلُ أشدُّ من عثوري على ما يوافق هواي؛ فقد فضلت الحقيقة على التسلية".

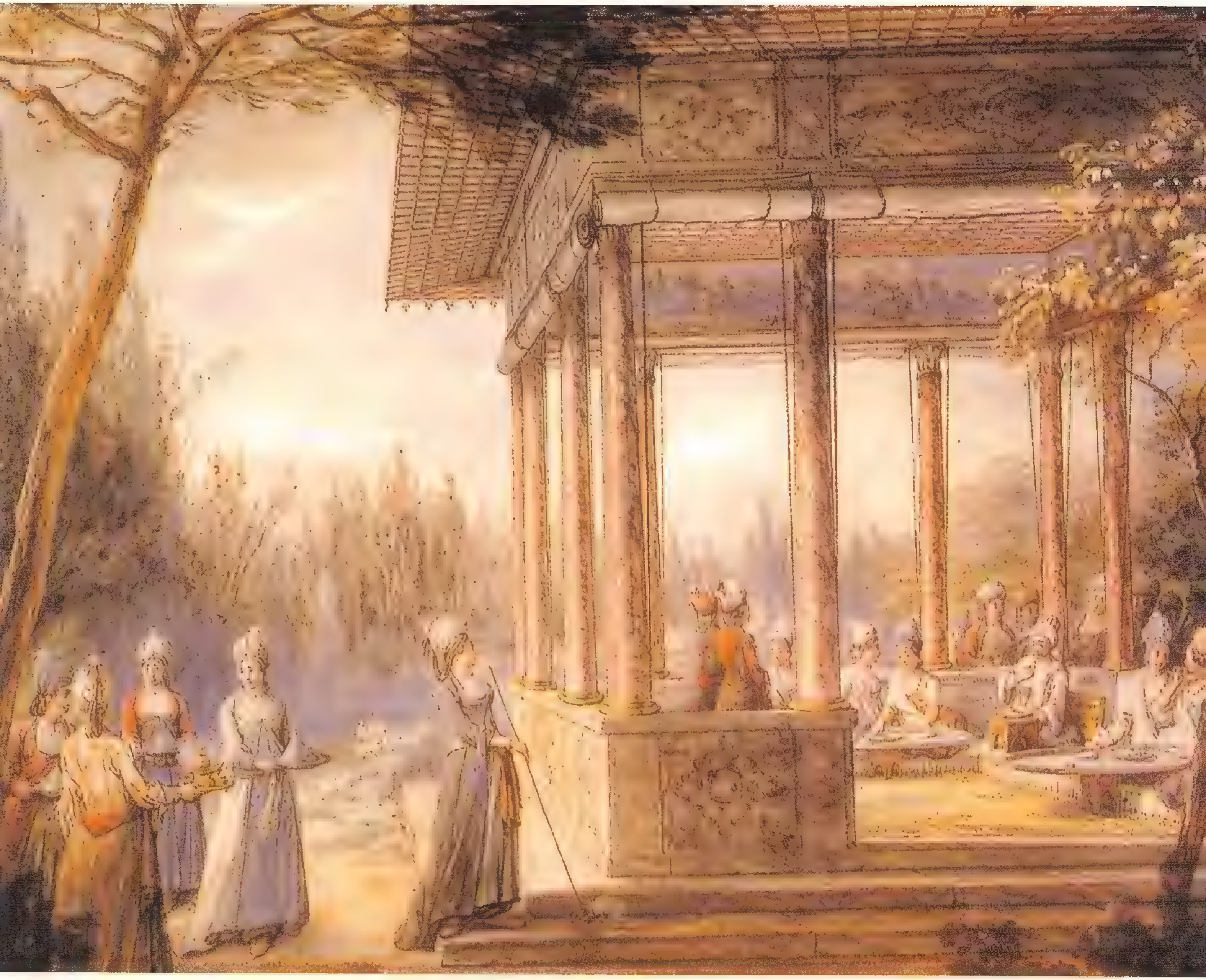
"لا أستطيع أن ألمس ولو طيًّا واحدًا من الستارة الظريفة التي تغطي النصب التذكاريّ المشيّد بجمال الشرق وقوته العريقة، ولكنني لا أستطيع أن أتوقف أيضًا دون أن أرفع القمامة التي كدسها حوله ذوق سمِج بجهالة مطبقة؛ فهي ركام قذِر لا صلة له بالتحفة القيمة التي لوثتها أذواقهم،



إبريق وطست مغطى بالذهب



Helene Glavany
من عمل ملابس الترك



Jean-Baptiste Hilair، حَرَم السلطان يتنزهون في التعريشة، ١٧٩٨م (؟)

وهذا شأنه شأن النذور التي تقدَّم بجهل وعقيدة باطلة؛ فإنها لن تكون يومًا ما قطعة من لوحة مادونا (تحفة رفائيل (Raphael) الرائعة)؛ لمجرّد أنّها وُضِعَت في معبده''[٨].

وقد دافعت السيدة رامسي (Lady Ramsey) -وهي امرأة إنجليزيَّة ورحَّالة أخرى- عن الشعب التركيّ ضد المزاعم الظالمة للأوروبيّين في كتابها المسمى ''الحياة اليومية في تركيا'' وقد نشر عام ١٨٩٧م، قالت: ''*لقد أصبح شيئًا اعتياديًّا أن أسمع باستمرار أشياء سيئة لا توصف حول الأتراك في الأيام الأخيرة، مثل أن الأتراك يكرهون المواطنين المسيحيِّين ويتعصبون ضدهم، ويرتكبون المظالم في حقهم؛ لأنك إذا نظرت لما يقال، فإنه يمكنك أن تعتقد أن الأتراك كانوا عنصرًا شيطانيًا، ينزل إلى منزلة حيوان وحشيٍّ جبان، ويمكنني أن أقول إنني لم أعرف أتراكًا بهذا الشكل قطُّ، ولا أرغب في أن أتحدث عنهم بهذا الشكل أيضًا، لقد مرَّ سبعة عشر عامًا على أول سفرة إلى تركيا مع زوجي، تجولنا هناك وصادفت أشخاصًا منهم من كان حريصًا على الصداقة، مضيافًا، متواضعًا، في غاية الوداعة، وجميعهم يعيشون بمحبة مع جيرانهم المسيحيِّين*''[٩].



وبالإضافة لأولئك الرحَّالة كانت هناك أوروبيات أخريات مثل م. دي أوهسون (M. D'Ohsson)، وهي أرمنيَّة عملت في السفارة السويديَّة فترة طويلة من الوقت في القرن الثامن عشر، وعاشت قريبة من الشخصيَّة العثمانيَّة، والمجتمع العثمانيّ؛ ولوسي جارنيت (Lucy Garnett)، وهي إنجليزيَّة عاشت في تركيا طيلة سبعة عشر عامًا على عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩م-١٨٦١م)، والسلطان عبد العزيز (١٨٦١م-١٨٧٦م) من بعده أيضًا، وكانت جارنيت و دي أوهسون كانتا تتحدثان اللغة التركية بطلاقة جدًّا، وكان لكل منهما رؤية حياديَّة بشكل عامٍّ.

ويمكننا أن نقول: إن كل هؤلاء الأوروبيات كن شاهدات عن كثب على الحياة العثمانيَّة، ولكن يجب توثيق الأشياء التي ذكروها من المصادر الموثوقة بسبب تعدد الوعي الثقافيّ التقليدي، ولكن عندما نجمع ما نقله لنا كل هؤلاء الأشخاص تظهر أمامنا صورة ملونة -وإن كانت ناقصة- للمرأة العثمانيَّة والحياة العثمانيَّة.

المرأة العثمانيَّة
في تصاوير الرحَّالة الأوروبيِّين



المظهر الخارجيّ

ز. دوكيت فريمن:

"على قدر ما كانت طويلة جدًّا، فإن جمالها متعدد الألوان بفضل ملامحها الجميلة، وفي الواقع فإن هذا الجمال نابع من التعبيرات الذكيَّة المرتسمة على وجهها بكثرة؛ واليوم نرى أشكال الوجوه قد تنوعت كثيرًا كما هو الحال عندنا، إلا أننا لم نُعدَم تلك السمة هنا في أية امرأة تقريبًا؛ فالجاذبية التي ينعشها التناغم على لسانها، واللطافة والأصالة الصافية في هذا الوجه ولدى صاحبته تجعلانها بلا منافس تقريبًا في كل مكان باستثناء قليل جدًّا في الشرق الأدنى، هذا فضلا عن هدوء قَسِماتها، أما صواحب الملامح الحادة، فهناك احتمال كبير جدًّا في أنهن ذوات دماء قوقازية، أو من أصل العبيد"[١٠].

السيدة جوليا باردئي:

"صادفنا فتاة جميلة نزلتْ من سيارتها البعيدة قليلًا عن سيارتنا، انحنت على الأرض جاثية فوق سجادة إيرانية غالية الثمن، عليها زَهريَّة من الفضة منقوشة يدويًّا في جانبها الشرقيّ، وكان يقف خلفها مباشرة ثلاثة عبيد عاقدِي أذرعِهم، في حين عكفت على صلاتها؛ فلا شيء يجذب انتباهها لترفع عينيها نحوَنا نحن السيداتِ الأوربِّيات، كانت ظريفة ذات جمال أخَّاذ لا يمكن تصديقه، وما إن رفعت يديها الصغيرتين أمامها حتى أطرقت في خشوع عميق ساكن، فلم يكن هناك داع في أن تصاغ الأدعية التي تنبثق من قلبها في قالب من الكلمات فلو لم تكن مشغولة بهذا الشكل لمكثت ساعة أخرى بجانبها؛ لأستمتع بمشاهدة وجه من أظرف الوجوه في الدنيا"[١١].



السيدة و. م. رامسي:

"ذهبت في أحد الأيام إلى بلدة يبدو أن نصف سكانها من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين، وحسبما رأيت لم تكن أية سيدة من السيدات منتقبة مطلقًا، وكان الفرق الصغير جدًّا بين النماذج لأغطية الرأس يعبر عن الاختلاف بين الأعراق، وهذا المكان الذي أتحدث عنه كان مشهورًا بمياهه الصافية، ومناخه الشافِي، ولم أصادف ولو سيدة واحدة ذات مظهر عاديّ من سيدات قُوْلَا (Kula) التي تعدّ مصيفًا لا مثيل له عند من يعيشون في المناطق المجاورة"[١٢].

السيدة مونتجو:

"يجب أن أعترف بالآتي: نصادف هنا كل أنواع الجمال أكثر مما لدينا... ومعظم السيدات التركيَّات يزجّجن حواجبهن بشكل متميز، بالإضافة إلى عادة تكحيل العيون باللون الأسود سواءٌ لدى السيدات اليونانيَّات أم السيدات التركيَّات؛ فأكسب سواد العين عمقًا واضحًا حتى عند النظر إليها من بعيد أو في ضوء الشموع، وعمقًا أكثَرَ وضوحًا في ضوء النهار، وأعتقد أن معظم سيداتنا سوف يشعرن بالسرور لمعرفة هذا السر، وكن يطلين أظافرهن بنوع من الطلاء الأحمر أيضًا، وعلى قدر ما كانت هذه العادة جميلة لكنني لم أستطع اعتيادها"[١٣].

"غير أننا لا يمكننا أبدًا أن نوازن بين جمال هؤلاء السيدات وجمال فاطمة؛ فجمالها جعلني أنسى كل شيء يمكن أن يقال عنه جميل ولطيف شاهدته في إنجلترا أو ألمانيا... نهضت لمقابلتي واضعة يدها على قلبها بدماثة ملأى بالأصالة؛ لتحييني وَفقًا للعادات التركيَّة، ولو أنها ولدت وترعرعت في القصر ما كانت لترقى إلى هذا المستوى، وأمرت



مرآة، القرن السادس عشر،
متحف قصر "طُوبْ قَابِي"

بإحضار الوسائد لتوضع خلف ظهري، ثم أجلستني في صدر البيت... كان أسلوبها أصيلًا جدًا، وتصرفاتها رقيقة جدًا بعيدة عن التكلف، واقتنعت بشكل قاطع أنك لو أخذتها فورًا، ووضعتها على عرش أية دولة في أوربَّة، لاعتقد كل شخص أنها قد ربيت منذ ولادتها لكي تكون ملكة، رغم أنها قد ترعرعت في دولة أطلقنا عليها اسم "دولة البرابرة" وفضلًا عن ذلك، يجب أن نقول بإيجاز: إن أية سيدة لدينا -ولو كانت جميلة الجميلات- أقلّ منها شأنًا"[١٤].

م. دي. م. د. أوهسون:

"كانت المرأة بعيدة عن إسار الحداثة التي غشيت عقول النساء الأوروبيَّات كأنها الكابوس؛ فقد كان يستخدم في تركيا النمط نفسه من الملابس المتنوعة من النسيج نفسه، وأغطية الرأس من النوع نفسه، ولا غرابة في أن يرتبط الإنسان بعاداته وتقاليده؛ ولم يكن في إسطنبول مثل ما في مدن الإمبراطورية الأخرى طَرَّازُون ديدَنُهم تصميم أشكال جديدة تترك الناس في حيرة من أمرهم".

"...لم تبدِ السيدات المسلمات اهتمامًا بالمسائل التافهة، مثل أن يخفين علامات السن أو ينقصن وزنهن الزائد، ولم يعرفن قطُّ استخدام طلاء للشفاه، ولكنهن كن يقمن بطلاء نصف أظافرهن بالحناء، ويكحلن أهدابهن أكثر من حواجبهن".

"لم تكن هناك قط أية سيدة مسلمة تستخدم الشعر المستعار والكريم وكريم الأساس، والعِقْصة الصناعيَّة، فكل هذا ونحوه لم تكن تستغني عنه المرأة الأوربيّة في زينتها أمَّا التركيّة فلم تكن تعرَف شيئًا من ذلك؛ فكان الشكل الطبيعيُّ للشعر لا يتم تغييره، فيتدلى جدائل على الأكتاف، أو يُضفَر كلّه بضفيرة من القماش القطني، وتُربط أطرافه، ويبلغ عدد الضفائر لدى بعض السيدات خمسين أو ستين بل وثمانين ضفيرة، وكانت الضفائر تزين عادةً بالزهور والأحجار الكريمة".

"ولم يُعْنَ جُلُّ السيدات بجمالهن الشخصيّ فحسب، بل بتزيين وتطريز أدوات الزينة يوميًّا أيضًا، وكان كل شيء مزينًا ومطرزًا من المناديل حتى المناشف، ومن مناشف المائدة حتى الأحزمة، وكان التطريز بالذهب والفضة يستخدم كثيرا، ومعظم السيدات كن يرتدين دروعًا حريريَّة مطرزة بمهارة"[١٥].



Marquis de Ferriol، المرأة التي تطرز

الرّقة في السلوك والتصرفات

السيدة جوليا باردُئي:

"ليس هناك من هو أفضل من السيدات التركيَّات استضافة للغرباء؛ فقد كن يجدن متعة كبيرة في تجاذب أطراف الحديث مع السيدات الأوربِّيَّات، وهكذا كانت الأوربيات، وكانت السيدات التركيَّات يتحدثن بلباقة، وبقلب مفتوح؛ فلا يبقى هناك أي إحساس بالغربة لدى الأجنبيات اللائي يتحدثن معهن، وقبل مرور خمس دقائق كن يقدِّمن كل ما لديهنّ ويجعلنه طَوع أمركنّ، ويقدمن لكنّ من الفاكهة التي تأكلونها معًا، أو الشراب المعطر الذي صنعنه بأيديهن، ويكفي أنكنّ تصبحن سعداء ما إن تدخلْنَ في زمرة أصدقائهن، وتشبعن فضولهن المستساغ، وتقابلن لطفهن وسلوكهن المتحضر أيضًا بقدر ما في وسعكنّ، وليس هناك داعٍ أبدًا للخوف من أن تجدْنَ شيئًا مما انتشر لدى الأوربّيين -من أسلوب المحقِّق المتعالي، أو عدم المبالاة المنغص للاستمتاع بالحديث- لدى السيدات التركيَّات؛ فهن على العكس من ذلك؛ لديهن حضارة نابعة من القلب، تجعل الإنسان مطمئنًا.

وأحوالهن هذه النابعة من الدماثة في الأسلوب تشعر بها ويمكن أن تراها لدى كلّ الناس في هذه الدولة، وكونهم ذوي خلق صادق ومخلصين في مشاعرهم كل هذا يجعل الحياة أكثر جاذبية، ولسوف تبتهج قلوبكن وعيونكن أيضًا في لحظات الحوار المسلية وإن كانت قصيرة؛ فالمرأة الشرقية بشكلها الظريف تبدو أكثر رقة وجاذبية في الوقت الراهن، وثقتها في نفسها والأصالة في سلوكها تفوق كثيرًا البرودَ المتكلف والرغبة في التقليد الأعمى لهذه المواقف، وبينما تعبر لكم عن لطفها، وعلى قدر ما تتصرف بسرعة واهتمام، تُبدِي أنها قد تكون مستاءة أيما استياء إزاء الوقاحة" [١٦].

ز. دوكيت فريمن:

"فليتقوّلْ من يتقول على الأتراك، فسلوكهم المهذب لا يمكن إنكاره، وهو لا ينحصر بطبقة واحدة، وفضلا عن ذلك، فهو ميراث الأمة كلها من القرويِّ إلى الباشا، والأتراك من هذه الناحية يختلفون عن الأمم الأخرى التي عاشت بينهم، وعن الأوروبّيين أيضًا" [١٧].



م. دي. م. د. أوهسون:

"لقد وهبت الطبيعة جاذبيّة ولطفًا للمرأة الشرقيَّة، وكان سلوكها ظريفًا وأصيلًا، بقدر ما كان تصرفها لطيفًا، وحديثها واضحًا صافيًا رقيقًا، وعلى الأقل، فإن كل السيدات المسيحيَّات اللاتي اختلطن كثيرًا بالسيدات التركيَّات أجمعن على هذا، فلا مسوّغ للاعتقاد بعدم صحة ذلك، وأنا شخصيًّا اجتمعت كثيرًا جدًّا بسيدات تركيَّات، وقد أثر فيَّ كثيرًا حديثهن الفِطْريّ، والوضوح في تعبيراتهن، والرقة في أفكارهن، والظرف في نغمات أصواتهن، والرقي في سلوكهنّ دائمًا"[١٨].

لوسي جارنيت:

"لقد خلا المجتمع العثمانيُّ من التمييز الطبقيّ، وانتساب الشخص إلى عائلة ذات وضع اجتماعيّ معين؛ فربما أصبح كل عثمانيّ أرستقراطيًّا بمقتضى أخلاقه أو عاداته"، ويمكنكم أن تشاهدوا أيضًا لطف هذا السلوك وأصالته في منزل متواضع لأحد القرويّين أو في قصر أحد الباشوات"[١٩].

غطاء الذي يغطي الفنجان عند تقديمه للقهوة،
متحف قصر "دُولْمَا بَهْجَة"



النظافة

ز. دوكيت فريمن:

''كانت النظافة إحدى السمات التي تميز الأتراك؛ فربما تكون منازلهم متواضعة، أو من دون سجاد، ولكن من المؤكد أن كل حصير قد كنس، والأرضيات قد دعكت، والصحون والقدور قد غسلت غسلًا نظيفًا تمامًا يشبه نظيره في منازل الهولنديين، وبوسعكم أن تتناولوا الطعام وأنتم مطمئنون في أهون مكان خاصٍ بالأتراك ولو من صينيَّة أمامكم، أو كرسيٍّ خفيف منخفض عنكم، أو تحت شجرة، ولكن ثقوا أن كبابكم البالغ ثمنه قرشين فقط سيقدَّم لكم في نسيج ناصع البياض في طبق نظيف جدًّا؛ فنظافة الأتراك خصلة قوميَّة لديهم''[٢٠].

لوسي جارنيت:

''إن النظافة الشخصية بين المسلمين نابعة من الإيمان؛ لأن الشريعة أمرت بها؛ فالوضوء بشكل صحيح دقيق شرط للقيام بالواجبات الدينية التي لا بُدّ لها من طهارة شرعيَّة باتت جزءًا من نظام اعتاد عليه الأتراك؛ ولعلّ هذا هو ما جعلهم أقل عُرْضةً للإصابة بالأمراض المؤثرة من جيرانهم المسيحيين واليهود، وهناك حمامات تركيَّة يطلق عليها اسم ''حَمَّام'' في كل المدن التركيَّة الكبيرة، أما في العاصمة فالحمامات كثيرة جدًّا، وبعض الحمامات القديمة في إسطنبول والحمامات المعدنيَّة في ''بورْصَه (Bursa)'' تعد من أجمل نماذج هذا النوع من العمارة، ويذهب الناس إليها من كل طبقات المجتمع، وأجرة الدخول إليها رخيصة جدًّا، وثمة الكثير من الحمامات الصغيرة التي ألحقت بأبنية الوقف أو الجوامع لكي يستخدمها الفقراء، ويستطيع الناس أن يتوضؤوا هناك مجانًا''[٢١].



السبيل المغطَّى بالنحاس (من قسم الحرَم)، متحف قصر ''طُوبْ قَابِي''

م. دي. م. د. أوهسون:



''ليس هناك ما هو أفضل من الاهتمام الذي أولاه الرجال والسيدات أيضًا بموضوع التطهر والاغتسال كل يوم، وعلى قدر ما كانوا يقومون بذلك بوصفه واجبًا دينيًّا، كانوا يستمتعون به أيضًا، وكنت قد تحدثت قبل ذلك عن نظافة المنزل،



كانت الأرضيَّات الخشبيَّة تغطى بالسجاد تمامًا، سواءٌ أكانت في منازل الفقراء أم في منازل الطبقة الراقية، وكان الجزء المتبقي من المنزل يتم تنظيفه ودعكه بعناية أيضًا كل أسبوع؛ فلا تشاهد ذرة صغيرة من الغبار أو الطين أو القاذورات في أنحاء المنزل؛ لأنّ كل الرجال والسيدات بصرف النظر عن وضعهم ودرجتهم كانوا يخلعون أحذيتهم أمام عتبة الباب قبل دخول المنزل، ورغم استخدام بُسُط أقل قيمة في الدوائر الرسميَّة إلا أن العناية بنظافتها كانت في المستوى نفسه، دع عنك هذا فالمقاهي والحوانيت والمصانع والحمامات العامّة كانت أيضًا نظيفة بالمستوى نفسه" [٢٢].

الحمام السلطاني في الحَرَم، قصر "طُوبْ قَابِي"

السيدة جوليا باردُئي:

"كانت قوة النظافة هي إحدى السمات البارزة لمنازل الشرق؛ فلا يمكن أن ترى أي أثر لقدم أو ذرة غبار فوق الحصير الهنديّ في الرَّدَهات الواسعة المفتوحة على كثير



قَبْقَاب من الخشب والفضة، في القرن التاسع عشر

من الشقق عن اليمين وعن اليسار، والكوب المستخدم للشرب يحفظ باهتمام خشية تلوثه، وفور أن تنتهي من طعامك يحضر أحد الخدم ماء ومنشفة كي تغسل يديك، وكنت قد تحدثت من قبل عن استخدام الحمامات كثيرًا باستمرار، ولا يمكن أن ترى أصغر بقعة في ملابس سيدة تركيَّة'' [٢٣].

التدين

ماري أديلايد وُلْكر:

''كان بعض السيدات اللائي يجلسن حول هذه السيدة يلبين نداء المؤذن، وبعضهنّ الآخر لا يتحرك ألبتة، وكان لدى حَرَم الدار اهتمام كبير بصيام رمضان في وقته رغم صعوبته، وإخراج الزكاة وكثرة الصدقات، وإقامة الصلوات في وقتها رغبةً بما في الآخرة، كلّ ذلك يفنّد تمامًا الحكاية الملفقة القائلة بأن السيدات المسلمات ربما لا يحملن أرواحًا'' [٢٤].

خط ''هو الباقي''، قصر ''طُوبْ قَابِي''

السيدة جوليا باردُئي:

''كان تدين السيدات التركيّات نابعًا من أعماقهن؛ فكم كان مثيرًا للإعجاب انسجامهنّ في تأدية واجباتهن الدينيَّة، وفي ظلّ ما يتمتع به حَرَم الدار من سكون كانت أوقات الصلاة لدى سكان الحَرَم مبعث عنايةٍ لا تتناهى، وكان فَرْش السيدات السجاجيد على الأرض، وتزملُّهن بغطاء الصلاة الأبيض، وخشوعهن بين يدي الخالق، كان شيئًا جميلًا مؤثرًا جدًّا في أعماق الإنسان'' [٢٥].

''لم يكن تدين الإنسان العثمانيّ متكلفًا، بل استحالت المبادئ الإيمانية السامية إلى قواعد سلوك لديه؛ فحوَّل كل شيء إلى قوة أعظم من الإنسان، وقد لاحظت أن ذم معتقدات الأتراك والتقليل من شأنها إلى درك الوثنية كان عادة عندنا، ولا شك أن هذا خطأ لا يليق أيضًا بوجهة النظر الحرة للإنسان الإنجليزيّ في القرن التاسع عشر، ولا يمكن الانحياز والتقليل من شأن دين يأمر بأخوة الناس ويظهر تسامحًا في أشكال العبادة المختلفة كلها جاعلًا الإحسان شرطًا لها'' [٢٦].

''لم يكن هناك أي شيء قطّ عملًا كان أم تسلية ليشغلَ السيدة التركيَّة عن واجباتها الدينيَّة مهما كان موقعها، وأينما كانت في أي موقف، فهي لا تقصّر في القيام بواجبها هذا ألبتة، فمثلًا لا يمكن أن تعد حالة استثنائية رؤيتكم لأخت

السلطان -في حيّ "كَاغِتْخَانَه (Kağıthâne)" أو في أيِّ مكان آخر يتجمع فيه الأهالي- وهي تنزل من عربتها إذا حان وقت الصلاة، لتؤدّي الصلاة في سكون وخشوع على سجادة فرشها الخدم على الأرض، تؤدّيها دون أن تتأثر مطلقًا بالنظرات أو الأصوات الصادرة، فكأنها داخل خصوصيَّة غرف القصر المطليَّة بالذهب والفضة"(٢٧).



المِسْبَحة (الغرفة الخاصة)، متحف قصر "طُوبْ قَابِي"

حسن الضيافة والكرم

م. دي م. د. أوهسون:

"كانت في أراضي مدن الإمبراطوريَّة لا سيما إسطنبول أوقاف دينيَّة أسَّسها السلطان أو غيره من الأثرياء تلبية لاحتياجات سكانها؛ فما مرّ يوم من دون تقديم صدقات أو مساعدات للمدينين، وكانت الأمهات والآباء والأوصياء من كل طبقات المجتمع يُعَدون قدوة لأطفالهم؛ لذلك كانت خصلة الإحسان والكرم تنمو لدى الأطفال في سن مبكرة؛ فنشؤوا على ترك الأنانيّة؛ فنمت هذه الفضيلة الساميَّة وحفزتهم على مساعدة الآخرين.

ولما كانت هذه الخصلة يسيرة على الأتراك؛ فقد جعلتهم متفوقين على الأمم الأخرى، ورغم أن رهافة الإحساس مسألة ذاتيَّة تعتمد على الشخص نفسه، فلا وجود لشعب آخر لديه أحاسيس عميقة هكذا بهذه السهولة، ويساعد الآخرين ولا ينتظر منهم شيئًا؛ فلم يكن دافع الإنسان التركيِّ لذلك الولَع بالتظاهر أو المديح بل دافعه إلى ذلك معتقداته الدينيَّة والإنسانيَّة"(٢٨).

السيدة جوليا باردُئي:

"عندما أتحدث عن كرم الإنسان التركيِّ غير المشروط، فمن زار تركيا يفهم تقريبًا ما أعنيه؛ فقد كانت مائدة الوجهاء في إسطنبول مفتوحة أيضًا للفقراء؛ فبوسعهم أن يطعَموا منها عندما يرغبون؛ فيدخلون مسلِّمين على صاحب المنزل، فيستقبلهم بكلمة طيّبة "تفضلوا"، ويتم اصطحابهم لأماكنهم بلا مراسم كثيرة، وكانت هذه العادة الجميلة مستمرة في القرى أيضًا من دون أيِّ تغيير ألبتة.



وفي الواقع فإن صفة الكرم لديهم لم تظهر مقدار العطاء فحسب؛ فالمهمّ أن يُعطَى عن طيب نفس، وفضلًا عن ذلك فإن الأتراك كانوا بمنأى عن الشحّ والتقتير على عكس الدول الأكثر تحضرًا، بل كانوا يفعلون ما يفعلون ولا يخشون الفقر ولا يفكِّرون وهم يقدمون ما يقدّمونه من إحسان"[٢٩].

"إن كرم الضيافة في الشرق -الذي لا يتخلف أبدًا- كان يتجلَّى في أول سؤال تسأله ربة البيت، فقد سألتني أولًا ما إذا كنت مسرورة من طريقة استقبالها لي أم لا؟ ثم ذكرت لي بلطف كم هي مسرورة جدًّا لرؤيتي في قصر زوجها! وكم هي معجبة بملابسي! وبعد ذلك شكرتني لتزيني باهتمام من أجل الزيارة"[٣٠].

التواضع والشرف

م. دي م. د. أوهسون:

"لا يمكن أن نغفل حياة السيدات المتواضعة الاعتيادية وقتئذ، والسبب هو العادات والتقاليد في المحافظة عليهنّ والحرص على تأمينهنّ؛ فكانت المرأة تقضي وقتها في المنزل، وكانت نوافذ المنزل المطلة على الشارع كأنها مَشْرَبيّة، وكانت السيدات المقيمات في منازل ذات حدائق لا يخرجن، ولكن كل هذا لا يعني أن المرأة لم تكن تستطيع الخروج من المنزل، بل كانت تستطيع أن تفعل ذلك إذا كانت ترغب في الذهاب إلى الحمَّام، أو زيارة عائلتها، أو الذهاب للتسوق، أو لمجرد الخروج خارج البيت، ولكنها لا تخرج وحدها، بل معها سيدات أخريات أو خادمات أو كبير خدم المنزل، أما العجائز فيمكنهن الخروج وحدهن"[٣١].

Camille Rogier,
الأكل في الحرَم



"وعندما نتحدث عن الشرف فلنعلم أن المسلمين يكونون حذِرين جدًّا في هذا، وإذا صدر عن امرأة ما يثير أدنى شك، لقيت من الناس امتعاضًا وإنكارًا، بل إن أدنى شك يجعل الزوج وأفراد عائلتها في خزي وعار، بل إن الجيران وأهالي الحي يرون أنها دنَّست شرفهم"[٣٢].

"وعندما يؤخذ كل ذلك بعين الاعتبار يتبين لنا بشكل أفضل مدى امتناع إقامة علاقة خارج الزواج بين المسلمين، فإقامة علاقة غير مشروعة مع فتاة شيء غير معروف بين المسلمين، ولا يمكن لرجل أن يعاشر خادمة زوجته أبدًا ولو أَوْكَلت زوجته أمرَها إليه"[٣٣].

الحرية

يعبر لا بارون دوراند دي فونتماين (La Baronne Durand de Fontmagne) عن أنّ المرأة التركية كانت حرة لا أَمة في ظلّ القوانين قائلًا:

"كانت المرأة التركية حرّة تمامًا، وكان من الممكن مشاهدة ذلك بسهولة؛ فالذين يقولون: إن السيدات التركيات كنَّ إماء، يجعلون أنفسهم عرضة للسخرية"[٣٤].

السيدة مونتجو:

"بنظرة شموليَّة أعتقد أن السيدات التركَّيات كنَّ أكثر الفئات حريَّة في الإمبراطورية؛ إذ



Jean Brindesi، السيدات في سبيل كُوجوكْصُو ١٨٥٠م

حظين بالاحترام وخاصة من قبل الديوان، وإذا قرَّر السلطان إعدام أي باشا لا يلحق ضررًا بامتيازات حريمه، وتظل المرأة الأرملة -كما كانت- في حَرَم الدار"[٣٥].

السيدة جوليا باردُئي:

"بناءً على ما ترسخ في اعتقادنا جميعًا من أن السعادة في الحرية، فإن السيدات التركيَّات كنَّ أكثر الناس سعادة في الإمبراطوريَّة كلِّها، وإذا كان للحزن تقاليد معينة؛ فأغلب الظن أن مردّها جهلُ من يبالغنَ في أمر الحزن؛ فقد ذكرت من قبل أن السيدات التركيَّات كان بإمكانهن أن يصمّمْن على أي موضوع يشغل بالهن، أو يحذرن منه أو يشوّقن إليه.



فنجان قهوة فضي، في القرن التاسع عشر

كان الرجال العثمانيون لا يمتعضون أبدًا من تعبيرات زوجاتهم، بل على العكس، فإن تجاهل الكلمات النابية غدا جزءًا من ثقافتهم تقريبًا، حتى إن المقيمات في حَرَم الدار لم يلقين من بعولتهن ردًّا على ما يتفوّهن به بمشاعر حسّاسة وعواطف جيّاشة سوى العبارة الساذجة (دعوْنا نرَ)".

وبالإضافة إلى ذلك، ورغم أن الرجل التركيَّ كان من حقه دخول شقة زوجاته متى يريد، إلا أنه قلَّما يفعل ذلك، حتى إننا يمكننا القول بأنه تقريبًا لم يستخدمه قط، وإذا ما رغب رب البيت في مجالسة شخص ما ليتجاذبا أطراف الحديث معًا، أرسل إليه خادمًا يستدعيه، ثم يجلسان في غرفة أعدت لذلك في حَرَم الدار، وإذا رأى نعل امرأة أجنبية أمام عتبة الباب عند مروره إلى شقة زوجاته، لم يدخل مهما كان السبب؛ فلا يمكن لأية امرأة في الإمبراطورية أن تتغاضى عن عكس ذلك التصرف، وإذا جاء ضيف ليمكث عدة أيام، أرسل رب البيت خادمًا ليخبرهن قبل مجيئه؛ فهذا يمنحهن وقتًا يكفيهن للتواري حتى يدخل الضيف إلى غرفته"[٣٦].

حبّ الطبيعة

ز. دوكيت فريمن:

"إحدى السمات المميزة لشخصيّة المرأة التركيَّة هي حبّ الهواء الطَّلْق والحقول، وحب الزهور والماء الجاري والظلال في الأماكن المزدحمة، وكان هناك شغف بين المتعلمات بكل ما هو جميل في الطبيعة، وعلى قدر ما استطاع الكاتب أن يلاحظ، فإن تلك السمة لم تكن منتشرة بين السيدات الشرقيات الأخريات، أو على الأقل لم تكن بالكثافة نفسها.

وها هو ذا غروب الشمس الجميل يجذب السيدة التركية إليه؛ فأينما حلَّ بادرت لمشاهدته، وكذا الاستمتاع بمناظر الطبيعة، فلم يكن ذلك الشغف حكرًا على المتعلمات فقط؛ ومن يتجول أثناء إقامته في إسطنبول بين الأطلال على الساحل في أمسية جميلة، يقابل في كل خطوة مجموعات من الجالسين بين الأنقاض المبعثرة المتساقطة من الأبراج، ولم يكن هؤلاء يهتمون بأطلال الأبراج، بل كانوا يجلسون جميعًا، ومعظمهم يشاهدون في سكينة لونَ أشجار الليلك ذات البريق الأحمر الممتد إلى ثلوج "أُولُودَاغْ (Uludağ)" في أطراف الأناضول، وذاك اللمعانَ الأحمر الساقط فوق الجُزُر، والبحرَ عندما يحمرّ وجهه إبّان الغروب[٣٧].

لوسي جارنيت:

"إحدى السمات الغالبة لدى العثمانيين هي شغفهم بمناظر الطبيعة الجميلة المؤثرة، وحبّهم للآفاق المفتوحة، والينابيع اللطيفة، وظلال الأشجار، والبحار المتلألئة، والمناظر الرائعة، فأينما أقاموا اتخذوا منازلهم في أكثر الأماكن جاذبية، في أماكن لا مثيل لها في جمالها وتأثيرها والبيئة التي تطل عليها"[٣٨].

السيدة جوليا باردئي:

"فإذا ما جاء يوم الاستراحة والمتعة تلاشت كل أنواع التميز والفروق الاجتماعية، كان كلّ شخص مطمئنًا من أنه سيجد ما يُسعده، فما كان لهم أن يلتمسوا أسبابًا أخرى للسعادة؛ فإن أديم السماء المتلألئة، والنسيم بروائحه الطيبة، والمناظر الجميلة المتزايدة، كل هذا الجمال كان طوال أيام الصيف الجميلة طَوع أمر الناس مِن أشدّهم فقرًا حتى أكثرهم ثراءً، وإذا أضفت إلى ذلك الابتسام بودّ الذي لن يضنوا به عليك -فأينما كنت في أي بقعة من تركيا قابلوك

بالتحيّة متى ما حللت وحيثما نزلت- فلسوف تدرك لماذا كان العثمانيُّون أكثر رقة من الأوروبيين، وكيف كانوا يفضلون التعامل بنية طيبة مع الناس جميعًا، وكيف يؤثرون المتعة اللطيفة للطبيعة الكريمة السرمديَّة على السعي لتحقيق انتصارات محتملة.

فهل تراني أخطأت في قولي: "أكثر رقة"؟ أليست المتع في تركيا طبيعية أكثر من إسراف الغرب في الزينة المصطنعة؟ أليس جمال الطبيعة الإلهي منظرًا أكثر تأثيرًا من القاعات المذهَّبة لدى الأثرياء؟ أليست القدرة على التمتع بهبةِ الخالق الجميلة هذه واستشعارِها أجلّ قدْرًا من اكتشاف سمات بديعة متناهية في صنعة المخلوق، وأعتقد أن ما تحمله الرياح من روائح لطيفة تهب على قمة تلّ شديد الخضرة، أو على امتداد الوادي فتتركه مفعمًا بعطر الزهور، أفضلُ من القاعات الفخمة المخضبة برائحة العطور المنعشة.

وإذا كانت هذه همجيَّة، فإن الأتراك بذلك يعدون أكثر الناس همجيَّة على وجه الأرض؛ لأن أكبر متعة لديهم تعتمد على ذلك؛ فالوزير ينغمس فيها وينسى هموم وظيفته، والعامل يتخلص بها من تعب عمله، ولكن إذا اعتقدنا أن هذه المتع أفضل جذبًا لأكثر القلوب صلاحًا، وأكثر العقول ثراءً، فإن الأتراك قد اختاروا أعلاها، وقد حاولت ذكر ذلك من قبل.

وفي الواقع يحق لنا أن نتصبب عرقًا خجلًا من أنفسنا؛ لأننا لم نحاول أن نستمتع بتلك المتع، واكتفينا بخداع أنفسنا بأننا -نحن الأوربيين المتحضرين- قد تجاوزنا منذ زمنٍ الأشياء التي تُشعر الأتراك باللذة؛ فها نحن أولاء قد حاولنا السيطرة على الخيال -الذي لم نمتلكه يومًا قطّ- وركضنا نحوه لما أغرانا، ومضى العمر من دون جدوى، والجميع يسخرون منّا، وكذلك يفعلون.

ولم أواجه الحقيقة بشكل مؤثر إلى هذا الحدّ قبل ذلك سوى في كُكْسو (Göksu)؛ فلم أشاهد قطّ السيدات التركيَّات في جوّ طيب إلى هذا الحد، ويكأنهن في احتفال! فعندما جاء المساء وعُدنا إلى زوارقنا، وودعنا المياه العذبة في نواحي الأناضول، شعرت أنني أعرفهنّ أكثر؛ بل كأنني لم أكن أعرف الشخصية الاجتماعية لهذه السيدات من قبل"[٣٩].

المكانة الاجتماعية

إدموند دي أميكوس (Edmondo de Amicus):

''الشخص العثمانيُّ رحيم يرعى عائلته، ويبدي احترامًا للزواج والروابط الاجتماعية عامة أكثر من الأوروبّيين، ورغم أن ما يقال عكس ذلك، فإن المكانة الاجتماعية للنساء المسلمات ليست أقل منها لدى نظائرهن المسيحيات في أوربَّة، فلهن السيادة الكاملة في منازلهن، ويعاملن دائمًا بشكل مهذب، وأسلوب دمِث''[٤٠].

لا بارون دي فونتماين (La Baronne Durand de Fontmagne):

''كانت السيدات التركيّات يعاملن بنبل الفرسان؛ فلا يستطيع أحد أن يرفع يده على امرأة، وفي أوقات العصيان والتمرد لم يمسّ الجنود أيضًا السيدات اللاتي كن يقمن بشغب، وجلبة، وكان الرجال يعاملون زوجاتهم بوصفهن صديقًا لطيفًا جدًا، أما عن احترام الأمهات، فلا حدّ له''[٤١].

أ. ل. كاستلان (A. L. Castellan):

''كان الأتراك يحترمون السيدات إلى أقصى حدّ، حتى إنهم عدّوا النظر إلى امرأة في أي مكان ذنبًا''[٤٢].

السيدة كرافن:

''إن المعاملة التي كانت تعامل بها النساء التركيّات لا بُدَّ أن تكون نموذجًا تحتذيه الأمم الأخرى''[٤٣].

م. دي م. د. أوهسون:

''من عامل امرأة معاملة سيئة، عوقب أيًا كانت مكانته أو دينه؛ لأنَّ الدين أوصى باحترام النساء عامّة؛ لذلك فإن قوات الأمن والقضاة أيضًا كانوا يقسون على من يعاملون النساء بقسوة''[٤٤].



٢

النساء العثمانيَّات في حَرَم الدار

"لمْ تكن النساء أسيرات حقًّا، بل إنهن كنّ يأبين الخروج من خلف المَشَارِب، خلافًا لما يدعيه بعض الناس؛ وهذا ليس فيه عبء على المرأة المسلمة، بل إن انتقاص خصوصيتها هذه يغضبها هي أولًا؛ لأنّ شيئًا من هذا القبيل يعني أنها فقدتْ قيمتها في عيني زوجها"[٤٥].

إليزابيث كوبر (Elizabeth Cooper)، ١٩١٦م.



مكان من داخل البيت العثماني

الأسطورة

لقد أثرت أسطورة حرم الدار على عقول الغربيين بشكل جليّ طوال قرون، ولا يزال هذا التأثير مستمرًا حتى الآن، ووفقًا لما تقوله الأسطورة، فإن النساء العثمانيات خاصة والنساء الشرقيات عامة هن سيدات كسولات، غريبات، لا يمكن الاعتماد عليهن؛ وقد وُصفت المرأة في الوسائل المكتوبة والمرئية مرتعًا للشهوات، وجاء في تعريف النساء العثمانيّات عندهم أنهنّ ضحايا مسكينات أسيرات في حرم الدار مسلوبات الإرادة، مقهورات، مجبورات على الحياة تحت السيطرة.

وقد نتجت هذه الأسطورة عن أعمال العلماء المستشرقين الأوائل، وفي الحقيقة كان أشهرها ترجمة حكايات "ألف ليلة وليلة"، صدرت الطبعة الأولى لها باللغة الفرنسية بين عامي ١٧٠٧م-١٧١٤م، وكان لهذا العمل عدة إصدارات باللغة الإنجليزية بعد ذلك.

وهذا التصوير الخيالي الغريب لحرم الدار بدأ يحظى بشهرة كبيرة في الغرب بمرور الوقت، حتى إنه كان ناجحًا إلى الحد الذي جعله اتجاهًا أدبيًا، وقد أعقب ذلك ظهور الكثير من الحكايات الشرقية التي انتشرت بملامح مناسبة لهذا الاتجاه، ثم ظهرت حكايات مشوّهة من هذه الحكايات الخيالية.

وكان انتشار حكايات "ألف ليلة وليلة" إلى هذا الحدّ نقطة مهمة؛ لأن الصورة المبسطة للسيدات في هذه الحكايات قد حلّت محل الإطار الذي وضع فيه الغربيون المرأة العثمانية، وها نحن أولاء نواجه في رواية "ألف ليلة وليلة" نموذج مجسم لامرأة لعوب ذات أخلاق وضيعة، ما من خطأ إلا ارتكبته، أمّا شخصية شهرزاد (Şehrazat) الراوية فنجدها امرأة بسيطة غير مثيرة.





Lewis, Kabul, ۱۸۷۲



وفي الواقع فإن هذه الصور النمطية للسيدات لا تعد حديثة، ولكن عندما يتعلق الأمر بنساء الشرق فإنها تكتسب نغمة أكثر غرابة؛ فإن تلك الصور المتناقضة قد شغلت حيزًا من عقل الرجل الغربيّ مدة طويلة جدًا، بينما لا نرى آثار ذلك في اليونان القديمة ولكن إذا طالعنا العادات المسيحية، فإننا سنرى وجهة نظر مختلفة تمامًا؛ فالصور تشغل حيزًا من قطبين متناقضين؛ فالنساء إما نقيَّة مثل "العذراء مريم"، وإما ساقطة مثل "مريم المجدلية"، وكانت العذريَّة شرطًا لقبول الروح النقية؛ فأحجم عن الزواج الكثير من المسيحيين سواءً كانوا رجالًا أم نساء في الحقبة الأولى، وكانت العلاقة الزوجية تعد شرًّا يُمارس على مضض في أضيق الحدود محافظة على النسل، وعلى مدى قرون واصل كثير من الرجال والنساء المنتسبين إلى الكنيسة الكاثوليكية حياتهم متبتلين لا يتزوجون.

وعندما نأخذ بعين الاعتبار ما قيل عن المرأة هنا، لا يكون من الصعب علينا فهم السبب الذي جعل الرجل الغربيّ يصنف المرأة الشرقية بوصفها لعوبًا أو ساقطة، غير أنه كان يضع معظم النساء في هذا التصنيف حتى منتصف القرن الثامن عشر، ولكن عندما نأتي إلى القرن التاسع عشر، نجد أن السيدات المتزوجات في عهد الملكة فيكتوريا في إنجلترا صُنّفن في طبقة السيدات المحترمات إن قمن بعبء دور "مَلاك المنزل"[٤٦]، وقد تحملنه -وفيه ما فيه- رغبة منهن في الأولاد فقط؛ وبينما عُدَّ بحث الرجال -المحترمين- عن الخيانة شيئًا اعتياديًّا، عيب ذلك على السيدات، وهذا معيار مزدوج.

وعندما نجمع الحكايات الغريبة عن السيدات الشرقيات مع صور المرأة التي شغلت حيزًا في هذه الأقطاب المتناقضة في عقل الرجل الغربيِ، يتضح بقوة أن أسطورة حَرَم الدار محض ادّعاء، وعلاوة على ذلك، لا شاهد عِيان يمكنه أن يشهد بعكس هذه الأسطورة؛ وذلك بسبب عدم السماح لأيّ رجل غريب قط بدخول حَرَم الدار العثمانيّ؛ فكان الرحالون الرجال يعتمدون على رحالين آخرين مصدرًا لهم، وقد اعتمد هؤلاء -الرحالون الآخرون- فيما قدموه من معلومات على التعبيرات المشحونة في آذانهم، وعلى الأخيلة في عقولهم، فضلًا عن كون المسألة الحقيقيَّة رُويت بشكل مبالغ فيه عدة مرات، أو روي جزء منها فقط، أو طمس جزء منها على فترات بالأكاذيب المحكمة؛ فهناك حكاية المنديل التي يمكن أن تعد مثالًا على هذا الوضع، فوفقًا لما تقوله الحكاية، أسقط السلطان منديله عَمْدًا أمام الجارية التي كان يرغب في قضاء ليلة معها، وبهذا تحققت الخلوة، ورغم أننا لا يمكن أن نثبت صحة هذا الأمر أبدًا، إلا أن هذه الحكاية تكررت كثيرًا بين الرحالين الرجال، ورغم أن الرّحالات النساء قد جئن إلى الأراضي العثمانيَّة، وشاهدن حَرَم الدار العثمانيَّ والسيدات العثمانيَّات إلا أنهن لم يتمكن من إظهار صور أكثر واقعية عن الحياة في حَرَم الدار، لأنهم لم يدخلوه.

وقد لعبت السيدة مونتجو دورًا مهمًا في ظهور مناقشة أكثر واقعية عن السيدات العثمانيّات والحياة في حَرَم الدار، وعُدت أول سِيدة رحالة مشهورة تقدم للقراء معلومات عن الحياة في حَرَم الدار بشكل قريب جدًّا من الحقيقة؛ قالت: ''إن ما ذكره الرحالون الرجال لا يمكن الوثوق به''، وفي إحدى رسائلها إلى السيدة ريتش ذكرت النقد التالي:

''إن رسالتك ملأى بالأخطاء من أولها إلى آخرها، وعلى قدر ما رأيت فإن آراءك عن تركيا قد تأثرت بما قاله الكاتب المحترم دي مونت (Dumont) الذي كان جهله كبيرًا مثل وقاحته، أما أنا فقد شعرت هنا بمتعة مختلفة بفضل قراءة كتب الرِّحلات عن الشرق؛ كل ما هو مكتوب عارٍ من الحقيقة، ومليء بالهذيان، وفي الحقيقة فإنني أجد ذلك شيئًا مسليًا؛ إنهم لا يكتبون في أية مرة من دون أن يذكروا أشياء عن النساء، ورغم أنهم لم يشاهدوهن قط، يتحدثون بشكل جديّ عن السمات المتفوقة للرجال الذين لم يصطحبوهم قط، لا سيما أنهم لا يملكون وصفًا للجوامع؛ إذ لم يتجاسروا على إلقاء نظرة داخلها''[٤٧].

وكانت السيدة مونتجو قد أظهرت أنّ حكاية المنديل لا أساس لها؛ إذ علمت مونتجو -أثناء زيارتها لحفيظة حَظيَّة السلطان مصطفى الثاني المتوفى بعد عزله عن العرش بعدة أسابيع- أن حكاية المنديل كاذبة قطعًا؛ وعلى عكس ما قيل، فالزوجات كنّ يُخبَرن أولًا برغبة السلطان، تخبرهن مديرة شؤون القصر، يبلّغها بذلك رئيس دائرة حَرَم الدار الذي يتحدث مع السلطان مباشرة، وكانت هناك قواعد يجب اتباعها بدقة أيضًا بشأن زيارة السلطان لجواريه وَفقًا لترتيب معين، وكانت الجارية المختارة أولًا تسبق، ثم تتبعها الثانية، وهكذا، وقد تفقد السيدة أو الحَظيَّة دورها إذا مرضت، وتوازن مونتجو بين سلوك السلطان وسلوك الحكام الأوروبيين؛ وتواصل حديثها جاعلة من ذلك شيئًا طبيعيًّا:

''كان السلطان أحيانًا يريد أن يقضي وقته مع كل زوجاته اللائي يشكلن حلقة حوله، وقد اعترفت لي حفيظة أن سعيدة الحَظ التي يتوجه إليها السلطان بأي شكل -كائنة من كانت- تثير غضب بقية النساء بسبب الغيرة والغبطة اللتين كن يشعرن بهما تُجاهها، وفي الحقيقة، فإن هذا الوضع لم يكن أفضل أو أسوأ مما كان منتشرًا بكثرة في قصور أوربّة؛ فكانت كل امرأة أيضًا تتابع نظرات الحاكم منتظرة بصبرٍ نافد ولو أصغر ابتسامة، واللاتي لم يحظين بتلك الابتسامة، تتملكهن الغيرة''[٤٨].

وبالإضافة للسيدة مونتجو، فإن الرحَّالات الأخريات في القرن التاسع عشر مثل: جوليا باردُئي، ولوسي جارنيت، وفاني بلنت (Fanny Blunt) كان حديثهنّ شيئًا طبيعيًا، فصوّرن السيدات في حَرَم الدار تصويرًا أكثر واقعيَّة؛ فمن الواضح أنّ أولئك السيدات الغربيات قدّمْن كلّ التفاصيل الدقيقة في كتاباتهنّ؛ إذ وصفن طريقة الفَرْش لحَرَم الدار، وملابس السيدات، وطريقة تصرفهن، وماذا كنّ يأكلن، بالإضافة إلى العبيد، كيف كانوا يتصرفون، وكيف كانوا يعتنون بالأطفال، ووصفْن زيارات الحمام، والجولات، والاحتفالات الدينية، والأيام المقدسة، وغير ذلك بإسهاب حتى أدق التفاصيل؛ إذ انتهزن الفرصة لرؤية حياة النساء العثمانيَّات وتقويمها من دون أن يشعرن أنهن دخيلات أو أسيرات في حَرَم الدار.

وقد عملت الرَّحالات في عهد الملكة فيكتوريا على هدم الصور السلبيَّة لحَرَم الدار التي عزاها الرَّحالون والمستشرقون الغربيون، مثل: "البيت الماجن"، و"سجن النساء"، وميّزن بين حَرَم الدار، وغيره من الأماكن التي يغشاها الذكور، وامتدحنه بوصفه مكانًا محترمًا خاصًّا بالنساء، وقلن: إن معيشة النساء لحياة مختلفة في حَرَم الدار لا يرجع إلى الضغط الذي يمارسه عليهن أزواجهن، بل على العكس من ذلك، فإن هذا يرجع إلى أن أزواجهن كانوا يُقيمون لهن وزنًا كبيرًا، وإلى شعورهم بالاحترام تجاههن، ومن ثم، فقد عُدَّت السيدات شخصيات محترمة جدًّا، ويجب إبعادهن عن الزحام الكثير...

ويمكننا أن نقرأ تلك التعليقات الموضوعية لكاترين إيلوود (Catherine Elwood) عن صورة المرأة العثمانيَّة وحَرَم الدار:

"تكمن خصوصية حَرَم الدار في الرغبة بالاستئثار بحب الزوج وتجنب كل سوء يمكن أن يصل إليهن من الآخرين، ورغبة الزوج كذلك في تجنيب زوجتِه -طائرِ عنقائه ونورِ بيته- الأكدارَ والهموم، كما نحافظ نحن على حجر كريم باهتمام داخل جِراب، أو كما نخفي أمانة مقدسة عن النظرات الدنيئة للحشود من الناس، كان الزوج يفعل الشيء نفسه؛ إذ كان يخفي أَنْفس شيء لديه عن الأجلاف والأنذال، وفي مفهوم النبالة لدى الأتراك مَن كانت زوجة لرجل لا يمسّها أحد بسوء، وحَرَم الدار -مكانها- يُعَدّ مكانًا محترمًا دائمًا"(٤٩).





خط، ١٨٤٩م "الله جل جلاله. محمد عليه الصلاة والسلام"

المكان المقدس

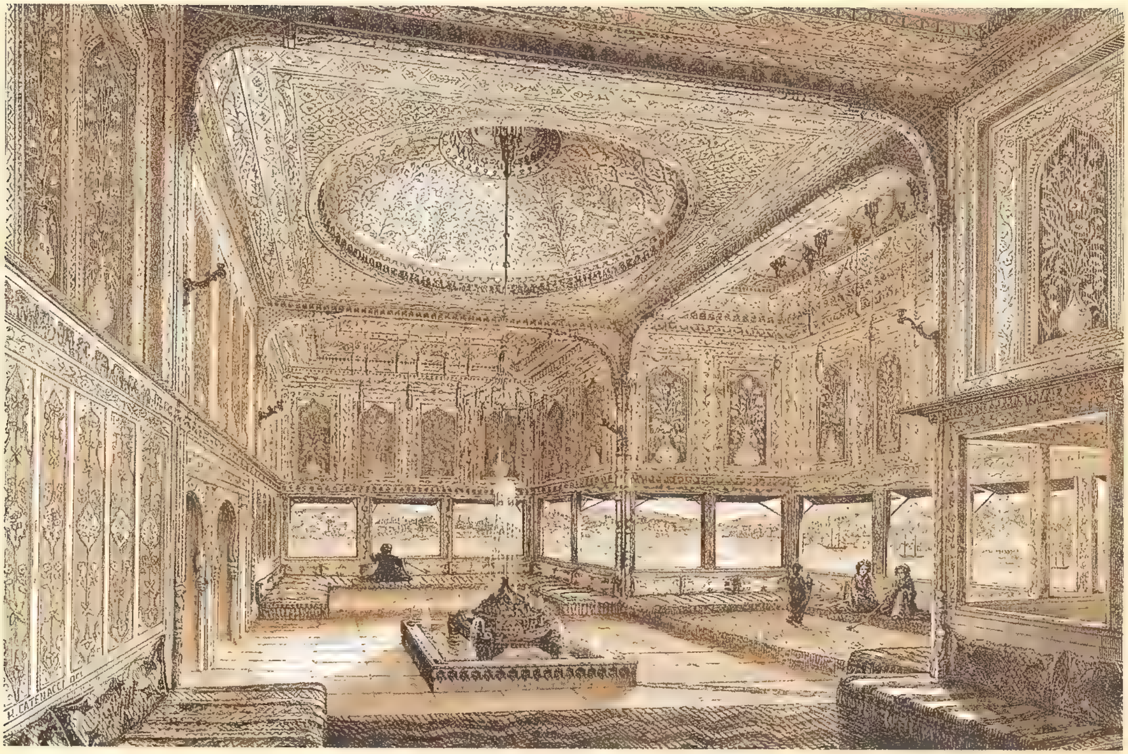
كلمة "حَرَم" مادّتها: (ح-ر-م) بمعنى المقدس، أو المحظور، ولكنها لا تطلق على الأماكن التي تعيش فيها النساء فقط؛ إذ تسمى الكعبة الشريفة والمسجد النبويُّ باسم "الحرمين الشريفين"، وكلاهما في مدينتين مقدستين عند المسلمين، الأول في مكة والثاني في المدينة، أما المسجد الأقصى في القدس، فيعرف باسم "بيت المقدس" أو "الحرم الشريف".

وعلاوة على ذلك، فإن العثمانيين كانوا يطلقون لفظ "حَرَم" أيضًا على الأفنية الداخليَّة للجوامع[٥٠]، وعند إنشاء قصر طُوبْ قَابِي في عهد السلطان محمد الفاتح، ظلّ الأطفال والسيدات من عائلة السلطان



يعيشون في القصر القديم، ورغم أن الرجال هم من كانوا في القصر الجديد حينئذ إلا أنه أطلق تعبير "حَرَمِ هُمَايُونْ (Harem-i Hümayun)" أي: (الحَرَم السلطاني) على منطقة تشمل دائرة السلطان مع جزء من القصر؛ لأنه مكان السلطان، وتعبير "حَرَم" يدل على الاحترام، ويُذكِّر بالوقار، والصفاء الدينيّ، ويوقظ الإحساس بالاحترام المطلق الذي ينبغي إظهاره"[٥١].

وكلمة "حَرَم" في الوقت نفسه كانت تستخدم للدلالة على الجزء الخاصّ بالسيدات في أحد المنازل حينئذ، وعلى السيدات اللاتي عشن هناك، وعلاوة على ذلك، فإن هذه الكلمة اختيرت للتعبير عن الأماكن المخصصة للسيدات في القطارات الكهربيّة، وفي السفن البخاريّة، وفي قاعات الانتظار في محطات القطار، والمقصورات التي تجلس فيها السيدات في القطارات في أوائل القرن العشرين[٥٢]، وبصفة عامة كان محظورًا على الرجال دخول حَرَم النساء، ولا يدخل في نطاق الحظر أقارب الدرجة الأولى من الرجال وهم: أزواجهن، وآباؤهن، وأعمامهن، وأخوالهن، وإخوتهن، وأبناؤهن، وأحماؤهن.



Catenacci، حجرة الديوان في قصر Amcazade Hüseyin Paşa

كان الرجال في المجتمع العثمانيّ يظهرون احترامًا واهتمامًا كبيرين لحَرَم الدار ولمن فيه سواءٌ من الداخل أم من الخارج، وقد أوضحت امرأة غربيَّة رحَّالة أن الزوج إذا رأى نعالًا على باب حَرَم الدار يعلم أن في المنزل ضيفة، فلا يفكر في الدخول من دون استئذان.



المبخرة، ١٨٨٥م

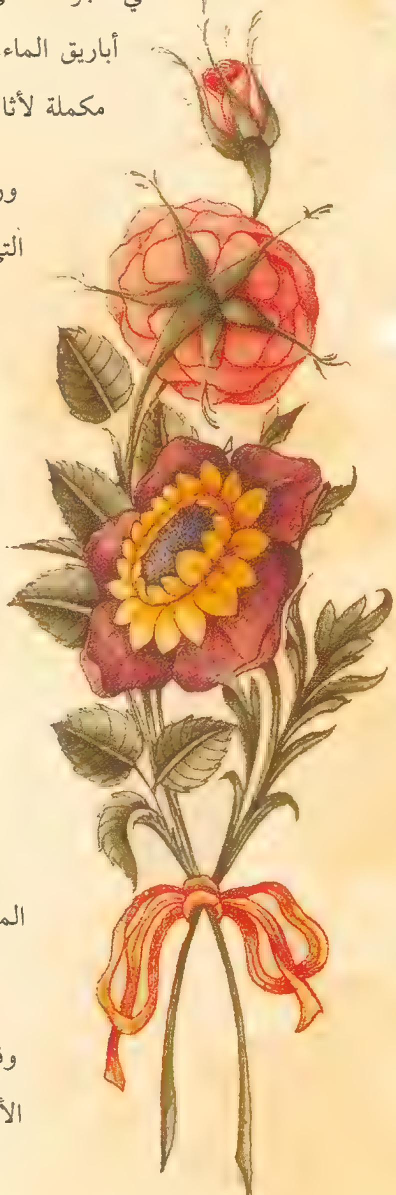
أماكن العيش

كانت المنازل العثمانيَّة تنقسم إلى قسمين: "حَرَمْلِكْ (Haremlik)" و"سَلَامْلِكْ (Selamlık)"، وكانت كلمة "سَلَامْلِكْ" تطلق على الغرفة أو الغرف التي يستقبل فيها ربّ البيت ضيوفه من الرجال، ويقوم بالخدمة فيها الخدم من الرجال، أما "حَرَمْلِكْ" فهو الاسم الذي يطلق على جزء تعيش فيه زوجته وأولاده وأقاربه الآخرون، وكان حَرَم الدار عامة يوصف بأنه عبارة عن شِقَّة واسعة أُثِّثَتْ بشكل هيّن، وفي وسطها رَدْهة واسعة تنبثق منها غرف صغيرة يطلق عليها اسم "صوفة (Sofa)".



كانَ حَرَم الدار الأكثر حركة وتفاعلًا في المنزل، تسكن فيه سيدة المنزل، والأطفال، والقرائب، والإماء، والضيفان من النساء، ويُتناوَل فيه الطعام، وفي بعض المنازل كانت تُفْرَش الفُرُش للنوم، وكانت الغرف لها وظائف كثيرة؛ فكلٌّ منها كان يستخدم لأكثر من غرض لا في أغراض محددة، مثل: النوم والجلوس والطعام.

وكانت الغرف بصفة عامة تغطَّى بأرائك خشبيَّة ملاصقة للأرض من ثلاث نواحٍ، وتوضع فوق هذه الأرائك حُصُر كبيرة مغطاة بأنسجة فاخرة تبعًا لإمكانيات رب المنزل؛ ليجلس عليها أفراد العائلة، وكذلك الضيوف، أما في الجزء الخالي فتوضع خزانة كبيرة في معظم الأحيان، وفيها توضع الفُرُش طوال اليوم، وأيضًا أباريق الماء، وأدوات المنزل الصغيرة في تجاويف الرفِّ، وكانت الستائر والسجاد عناصر مكملة لأثاث المنزل.

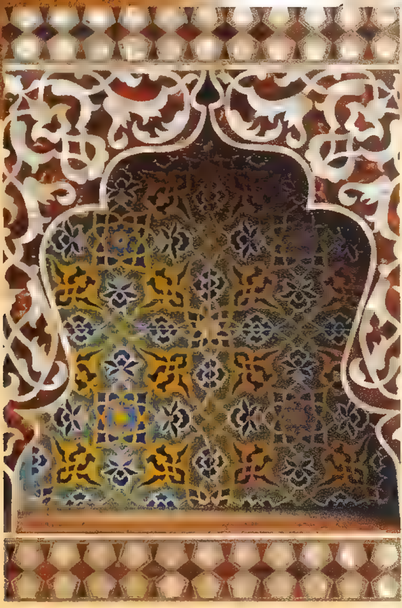


ورغم أن الغرف كانت تفرش بشكل متواضع إلا أنها كانت جذابة جدًّا بنوافذها التي تُدْخِل ضوءًا كثيرًا إلى الداخل، وبجدرانها المغطاة بالورق أو المطلية، وهناك صنابير رخاميَّة في رَدهة المنازل عند بعض الأثرياء، ونقوش أنيقة فوق الأنسجة الفخمة -مثل: الإستبرق والحرير في المنزل- تلفت الأنظار، وفي وقت الطعام تُحضر صينيَّات مستديرة كبيرة إلى رَدْهة البيت، وتوضع فوق قاعدة يمكن نقلها، وتوضع وسائد حول الصينيَّات، ليجلس عليها أهل البيت أو الضيوف عند تناول الطعام، وكانت الأطباق تغدو وتروح أثناء الطعام، وعندما ينتهي الطعام تجمع الصينيَّات.

وعندما يأتي الشتاء تدفَّأ المنازل بمِجْمرة تُسمَّى "تَانْدِيرْ (Tandır)"، وتوضع الجمرات فوق المِجْمَرة الشبيهة بمنضدة مستديرة ذات قاعدة منخفضة جدًّا، وتغطَّى بنسيج عريض من صوف كشمير، ويجلس الناس حول المجمرة ويضعون أقدامهم تحت صينيَّتها، ويغطونها بدثار حتى يمكن تدفئتها، وحول المجمرة يتبادلون أطراف الحديث، والعمل، وقراءة الكتب حتى النوم.

إن أول وصف حصلنا عليه عن المنزل العثمانيِّ يمكن أن نقرأه لدى السيدة مونتجو، وفي الفقرة الآتية تصف مونتجو المنزل المقام في "أَدِرْنَه (Edirne)" عندما جاءت إلى الأراضي العثمانية عام ١٧١٧م مع زوجها سفير بريطانيا لدى الدولة العثمانية قائلة:





تجويف في الجدران، قصر بغداد،
متحف قصر "طُوبْ قَابِي"

"كان كل منزل -سواءً كان كبيرًا أم صغيرًا- ينقسم إلى جزأين يصل بينهما ممرّ: الجزء الأول خاصّ بربّ المنزل، أما الجزء الآخر فحَرَم الدار أي شِقة النساء المطلّة جميع نوافذها وشرفتها المغطاة من أعلى على حديقة تحيط بها، ورغم أن جناحَي حَرَم الدار يتساويان في عدد الغرف إلا أن أثاثه وطلاءَه كان جذّابًا وأكثر حيوية، وكان الجزء السفليُّ للنوافذ منخفضًا جدًّا، والرواشن تشبه ما بداخل الأديرة تمامًا، وكانت المصاطب بارتفاع نصف متر تقريبًا في كل الغرف المفروشة بالسجاد الإيرانيّ، وكان في جوانب غرفتي مصاطب أيضًا، أمَّا السجاد الأكثر جاذبية، فكان في الرَّدهة حوله أرائك بارتفاع من خمس عشرة إلى عشرين سنتيمترًا مفروشة بحرير من نوع جيد، تبعًا لذوق ربّ البيت ومقدرته، وكانت الأريكة في غرفتي مغطاة بنسيج أحمر، أما جوانبها

فذهبيّة اللون، حولها صفان من الوسائد المستندة إلى الحائط، الأمامية صغيرة والخلفية كبيرة جدًّا؛ وهكذا ظهرت في هذه الوسائد مهارة الأتراك الفائقة؛ فلا أعتقد أن هناك شيئًا أكثر جاذبية وحيوية من هذه الوسائد المغطاة بصفة عامة بنسيج من الإستبرق أو الحرير اللمّاع الأبيض المطرّز بالذهب، وكانت الأرائك مريحة حتى إنني أظنّ أني لا أنعم بالراحة فوق كرسيّ آخر طَوال حياتي، وكانت الغرف ذات أسقف منخفضة، وكنت أعدّ هذا شيئًا غريبًا، وكانت الأسقف الخشبيَّة كلها تقريبًا مغطاة بالورق، أو مزخرفة بالقلم أو مرصعة، ولم يُعلَّق أيُّ شيء قط على الجدران المغطاة بالخشب الأَرْزيّ، وبدلًا من ذلك نُقشت بزهور ملونة أو بنقوش فضية، أما الخزانات المبنية داخل الجدران، ذات الأبواب الممكن دَرْجُها، فكانت ملائمة أفضل مما لدينا.



ورأيتُ قناطر صغيرة بين النوافذ توضع عليها أُصُص الزهور، وزجاجات العطر الجميلة، أما التزيين الذي كان يعجبني كثيرًا، فهو صنابير رخاميَّة ذات فوَّارة تقع في الجزء المنخفض من الغرفة من دون مِصطبّة، وهذه الصنابير تعطي للناس برودة لطيفة، والمياه المتدفقة من ميزاب إلى آخر كانت تحدث خريرًا جذّابًا داخل المنزل؛ في الواقع بعضها كان عظيمًا جدًّا.

وكان هناك حمام في كل منزل، يتكون بصفة عامة من غرفتين أو ثلاث غرف، والجزء العلوي منها مصنوع من الرصاص، أما الأرضيات فمن الرخام، وأحواض المياه بالداخل كان منها أجزاء باردة وساخنة لتفي بكل الاحتياجات"[٥٣].

وثاني تقرير مفصَّل حصلنا عليه في وصف حَرَم الدار التركيّ قامت به لوسي جارنيت، وهو كالتالي:

"يخصص الجزء الواسع من المنزل للحَرَم بمدخل خاص، وفناء، وحديقة، ونوافذ، وهناك غرف شخصيَّة لكل أفراد العائلة، والباب الأمامي في أغلب المنازل الشرقيَّة يفتح على رَدهة واسعة يتم المرور من جانبيها إلى الغرف الأخرى، وعرفت إحدى الغرف المنبثقة من الرَّدهة باسم "مطبخ القهوة"، وأمام مِجْمرة الفحم تقف عجوز تعد القهوة عند الطلب، أما الغرف الأخرى فكانت تستخدم لنوم العبيد، أو مخزنًا للمؤن، وبصفة عامة فإن المطبخ كان كبيرًا فسيحًا أنشئ ليكون ملحقًا منفصلًا عن المنزل، وفي جانب من المطبخ فرن به عدة مواقد محاط بقبة كبيرة فوقه،

وكان يمكننا مشاهدة أوانٍ من النحاس المطليّ بالقصدير تغلي على نار الفحم فوق المواقد، أما القدور فكان طاهٍ زنجيٌّ يقف أمامها ويروِّح بمروحة من ريش الديك الروميّ بخارَ الأطعمة.

كان الصعود إلى الرَّدهة في الطبقة العلويَّة من طبقة المدخل عن طريق سلم واسع، وفي وسط الطبقة العلويَّة كانت هناك غرفة جانبيَّة كبيرة جدًّا، وكانت الشقق الأخرى تفتح على ذلك المكان، وفي بعض المنازل القديمة غرف رئيسة لاستقبال الضيوف، تسمى ''ديوانخانه (Divanhane)''، وكان هناك ركن واسع لتناول الطعام، أرضه مرتفعة نحو نصف متر تقريبًا عن بقية الشقة.

والركن الأكثر راحة في الغرفة الرئيسة -المفروشة بالأرائك المنخفضة في أركانها الثلاثة- هو الركن الذي تجلس فيه سيدة المنزل دائمًا، ولو لم تكن الرَّدهة الواسعة (ديوانخانه) كبيرة إلى هذا الحد لاتسعت لتشمل نصف الجناحين الإضافيين مع ناحية الغرفة، أما الركن الرابع فكانت به خزانة ذات أدراج، سطحها مصنوع من الرخام، وفوقها مِشْمعة ومرآة، وعلى جانبيها رفوف مجوفة، فوقها قوارير ماء الورد، وأقداح الشراب، وغيرها من الأدوات الصغيرة للزينة، أما الأجزاء الأخرى الخالية ففيها بضعة كراسيّ مصنوعة في أوربَّة مُسنَدة بإحكام إلى الجدار، وإلى جانب الأريكة كانت توضع صينيَّة أو صينيَّتان، قاعدتهما من الجوز مرصعتان بالصدف لوضع لفائف التبغ، والمطفأة، وعلبة الثِّقاب، وفناجين القهوة، وهلم جرًّا، وربما كان على الحائط آيات من القرآن الكريم داخل إطار، ولكن الشيء اللافت للانتباه بوضوح هو انعدام الصور على الجدران.

الأتراك من ذوي العادات القديمة لا يستخدمون أسِرَّة، وفي كل غرفة خزانات كبيرة محفورة في الجدران، والأغطية والفُرُش منضود بعضها فوق بعض، وعند النوم يُستدعى العبيد؛ ليخرجوا الفُرُش ويفرشوها على الأرض، وهناك بعض الأمتعة لغرف النوم الأخرى يبدو أنَّها زائدة عن الحاجة ولا تستخدم مثل خزانة الثياب، ومائدة الزينة، والمغسلة المتنقلة



لاستخدامها داخل الغرفة، وهناك مرحاض صغير في المنزل، في أرضه ثقب للصرف، وإذا اقتضى الأمر غسل الوجه واليدين فقط، أحضر أحد العبيد إبريقًا وطستًا وصبَّ الماء، وقد استخدمت الحمامات المنزليَّة والحمامات العامَّة في الاغتسال.

وكانت السيدة تصفف شعرها أو تأمر بتصفيفه وهي متربعة في الركن الخاصّ بها، أمَّا الأنسجة الرقيقة، والأنسجة الحريريَّة، والإستبرق، والمطرزات الخاصة بسيدة المنزل، فتوضَع كلها في صناديق وأدراج محفورة مدهونة مصنوعة من الجوز تحفًا في غرفة المتعلقات الشخصيَّة"[٥٤].

وبناءً على ما شاهدناه في وصف حَرَم الدار في كتاب لوسي جارنيت المطبوع عام 1909م؛ كان كثير من الأمتعة التقليديَّة للمنزل ما يزال على الطراز العثمانيّ؛ وعلى سبيل المثال ما زالت الفُرُش توضع في الخزانة نهارًا، وتفرش ليلًا، واستخدمت الغرف لعدة أغراض بدلًا من تخصيص غرفة للطعام، وغرفة للنوم، وغرفة للمعيشة، وذلك على عكس منازل فيكتوريا التي رأينا أنّ كل غرفة منها كان لها مَهمّة واحدة.

إن ذكر عدة أشياء أثناء الوصف مثل الكرسيّ والخزانة ذات الأدراج والمرآة يشير إلى أن التأثير الأوربيّ قد بدأ، وبمرور الوقت بدأ استخدام الأشياء المصنوعة في أوربَّة بشكل أكبر، فأدَّى ذلك إلى حدوث خليط انتقائيٍّ غير مستحسَن في الأمتعة المنزليَّة، وتواصل جارنيت -مستطردةً إلى الحديث عن جمال الأنسجة وثرائها وعن التطريز والسجاد العثمانيّ التقليديّ- على النجو التالي:

"ويظل العقلُ الشرقيُّ قاطبةً حائرًا إذا ما حاول إضفاء رؤيته العظيمة والبهية على الحضارة الغربيَّة؛ فقد جُلبت أكثر النماذج الفنيَّة ارتقاءً مع الأشياء عديمة الذوق، وعندما جمعت الآثار الفنيَّة العظيمة بابتذال أدّى ذلك إلى العبث اللافت للانتباه جدًّا؛ فقد كان نسيج الستائر المنقوش نقشًا رديئًا يوضع جنبًا إلى جنب مع القطيفة والإستبرق الجميل، ويفرش سجاد ألمانيّ رخيص عليه نقوش لكلب وأسد مع سجاد حريريّ لا يقدر بثمن"[٥٥].



Preziosi، بائع الحلوى، ١٨٦١م

المكانة الاجتماعيَّة والمَهامّ

كان حَرَم الدار العثمانيّ مكانًا يتجمع فيه الناس ويعيشون معًا، وكان كلّ نساء المنزل وأطفاله يقيمون في هذا المكان ويقومون بأعمالهم فيه، ومن بينهن وفي مقدمتهن تأتي الحماة لا سيما الأرملة، فضلًا عن العجائز الأخريات من خالات وعمات، وأيضًا ربة البيت، والأطفال وعدة جوارٍ.

ومن المعروف أن في الحَرَم الكبير لديار النُّخبة العثمانيّة نحو مائة من العبيد يقومون بالأعمال المنزليّة اليوميّة، وبالإضافة إلى هذا، فإن المنزل كان مفتوحًا أيضًا دائمًا للضيوف من النساء والقرائب والجيران، والبائعات، والجواري، وَوَفْقًا لما كتبته أمينة فؤاد تُوقَايْ (Emine Fuat Tugay) -المولودة عام 1897م- عن ذكريات طفولتها؛ فإنَّ المائدة كان فيها ستة عشر طبقًا يُوضع فيه الطعام، ستة منها لها ولأخويها ووالدتها ومربيتين لها، أمّا سائر الأطباق فكانت مخصصة للضيوف المتوقَّع مجيئهم في أية لحظة(٥٦).

وكانت النساء من جميع الأعمار والأجناس والطبقات الاجتماعية يتجمعن في حَرَم الدار، وعندئذ يلتزمن دائمًا بآداب صارمة جدًّا، وكانت الضيوف من عِلْيَة القوم يجلسْنَ مع سيدة المنزل على أريكة، أما النساء من المرتبة الأدنى، فكنَّ يجلسن على الفُرُش على الأرض، وقد وُصف الحال في حَرَم الدار حيث يستقبل الضيوف -باختصار- على النحو التالي:

"كان كل شخص يأتي إلى المنزل يُستقبل بشكل جيد جدًّا، مهما كان وضعه وفقًا للتقاليد العثمانيَّة، وتلك الأيام كانت تمثل الغاية في كرم الضيافة الأبويّ، وفي الواقع كان في المنازل نظام اشتراكيّ بالمعنى التام للكلمة؛ لأن الناس من كل الطبقات كان يمكنهم الدخول والخروج من منازل الوجهاء، ويستقبلون ببشاشة.

كانت التربية الجيدة هي دون غيرها القاعدة الوحيدة السارية المفعول بين جميع الطبقات؛ فإن كانت المرأة أقل مكانة، لا تصرّ على الجلوس بمقْرُبة من سيدة المنزل، ولكن عندما تريد الجلوس، تختار الكرسيَّ على مَسافة معينة من مكان صاحبة المنزل، وذلك تبعًا لوضعها، وإذا كان هناك نساء أحوالهن أكثر تواضعًا، فإن هؤلاء يجلسن على وسائد فوق الأرض بالقرب من الباب، غير أن جميعهن كنَّ يستمتعن بالاستقبال في منازل النخبة عندما يرغبن في ذلك"(٥٧).

دور الحَمَاة

إذا كانت الحماة تعيش مع ابنها، فإنها تأتي في مقدمة النساء في حَرَم الدار، تمامًا مثل: والدة السلطان في حَرَمه... وللحماة قيمة كبيرة جدًّا سواءٌ كان في حَرَم السلطان أم حَرَم المنازل، والأعضاء الأخريات في حَرَم الدار يبدين لها احترامًا كبيرًا؛ فربما استندت تلك المكانة المتميزة للحماة إلى أمر القرآن الكريم: ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ (سورة النِّساء: ١/٤) وكان العثمانيون يمتثلون هذا الأمر حرفيًّا، وكلمة الفصْل في جميع الأمور فيما يتعلق بحَرَم الدار تصدر عن الحماة؛ إذ تقوم بإدارة كل الأمور اليوميَّة، والمقتطفات الآتية المقتبسة من كتب الرِّحلات للرحَّالين الغربيّين توثِّق مدى الأهمية للحموات في البيوت العثمانيَّة:

"أهمّ شخص في حَرَم الدار هي والدة الزوج، وهي فرد من أفراد المنزل لها امتيازات أكثر مما لدينا -حسب تقليد الإقامة للأبناء المتزوجين مع آبائهم في المجتمعات الأبويَّة- ومقدمة على سيدة المنزل؛ فهي السيدة الكبيرة طَوال حياتها، ولها ما لها من الاحترام"[٥٨].

"واذا كانت هناك أرملة تعيش في بيت زوجها مع حماتها -كان ذلك حالة شائعة- فمكانة سيدة البيت بعد مكانة حماتها، ويجب أن تترك الزوجة كلّ المسائل لرأي حماتها، وكان من التقاليد تقبيل اليد لإظهار الاحترام؛ وكانت سيدة المنزل تُقبّل يد حماتها وزوجها، في المناسبات العائليَّة المهمة، وفي الذكرى السنوية للزواج، وفي صباح الأعياد الدينيَّة للمسلمين؛ فعلى سبيل المثال: لا تستطيع الزوجة أن تجلس على المائدة قبل جلوس الحماة، ولا يمكن أن تبدأ في تناول الطعام قبلها"[٥٩].

دور سيدة المنزل

في المنازل الخالية من الحماة تكون سيدة المنزل مديرة لحَرَم الدار، مخوَّلة بجميع السلطات في تنظيم الشؤون اليومية واقتصاد حَرَم الدار وإدارة الجواري والعناية بالأطفال، وعندما نفكر في ضخامة حَرَم الدار أحيانًا خاصَّةً لدى النخبة، فمن الواضح أن ذلك لم يكن -في كثير من الأحيان- بالأمر السهل قط، وكانت الفتيات الصغيرات يتدربن على كيفية القيام بهذه المهام بدءًا من مرحلة الطفولة، وعندما يحين وقت الزواج، يكنَّ قد اكتسبن في الواقع كل المهارات اللازمة لإدارة المنزل باقتدار، وكان حَرَم الدار مكانًا استطاعت النساء فيه عرض كل مهاراتهن وكفاءتهن، وكان الزواج



Abdullah Frères، مدرسة الإعدادية للبنات
"Sultan Ahmed İnas Rüşdiyesi "
١٨٨٠م-١٨٩٣م

خاصّة الأمومة أمرًا يحقق لهنّ مكانة محترمة آمنة داخل الأسرة والمجتمع أيضًا.

وكما ذكرنا سابقًا أيضًا، فإن الفتيات كنَّ يتعلمن في سن مبكرة لكي يصبحن زوجات وأمّهات، وكن يذهبن أولًا إلى المدارس الابتدائيَّة، وهناك يتعلمن الخطَّ والحساب والجغرافيا والتاريخ بالإضافة إلى المعلومات الإسلامية الأساسية، مثل: الحروف العربية وتلاوة القرآن، وحفظه، والقِيَم، وإقامة الصلوات الموقوتة، وكانت هذه المدارس عادة ملحقة بالجوامع عدة قرون في كلّ مكان تقريبًا، وقد ذكر الرحّالون الغربيُّون أن القرى ولو صغيرة لم تخل من مدرسة ابتدائيَّة.

وفي عام 1858م افتتحت أول مدرسة ثانوية للبنات في إسطنبول، وعند مجيء عام 1901م كان عدد تلك المدارس ارتفع إلى إحدى عشرة مدرسة، وكانت الدروس تُلقى هناك كل يوم ما عدا يوم الجمعة مدة عشرة أشهر في السنة، وبلغ عدد الموادّ ثماني عشرة مادّة متنوِّعة، ومجموع ساعات الدراسة ست وثلاثون ساعة أسبوعيًّا، ويتكون المنهج الدراسي من دروس الأبجدية، والخطابة،



Abdullah Frères، الطالبات،
مدرسة دار التحصيل الخاصة
١٨٨٠م-١٨٩٣م



Lewis، المدرسة، ١٨٥٠م

والقرآن الكريم، والتجويد، وعلوم الدين، والقراءة والكتابة، والأدب، ونحو اللغة العثمانيّة، واللغة العربيّة، واللغة الفارسيّة، وفنّ الخط، وعلم الاجتماع، وإدارة المنزل، والأخلاق، والصِحة، والهندسة، والحساب، والجغرافيا، والتاريخ، والمهارات اليدويّة.

وبينما كانت هذه المدارس تقدِّم للطلاب منهجًا شاملًا، قدمت للفتيات الصغيرات معلومات مفصلة عن إدارة المنزل سوف تساعدهن في القيام بتكاليف الزواج، وها هي موضوعات الدروس في مادَّة إدارة المنزل تشير جيدًا إلى ذلك:

أ- ما هو المنزل؟ ماذا يجب لتحويل مكان إلى منزل؟ كيف يجب أن يُفرش المنزل، ويعتنى به، وماذا عن تدفئته، وتهويته، وإضاءته؟

ب- السمات الرئيسة للمنزل الجيد، ترتيب أمتعته، أجزاؤه الداخلية، متطلبات النظافة، الملامح الرئيسة للأثاث، الاحتياجات وحلول تنظيف المطبخ والغرف الأخرى والحمامات والمرحاض، مجموعة الأثاث، الكراسيّ، الوسائد، الستائر، السجاد، أطقم السرير والعناية بها، تنظيف النحاس والقصدير والرخام والجواهر، حلول القضاء على الحشرات والذباب والبق والقمل والبراغيث.

ج- الملامح الرئيسة للغرف الصيفيَّة والشتويَّة، المعلومات عن توفير الوقود وتأسيس الأفران والمواقد وتنظيفها، الوسائل المستخدمة في الإضاءة: المصباح الغازيّ، والشمع، وزيت الزيتون، والنفط، والسولار والغاز الطبيعيّ، والمصابيح، والقناديل، ومصابيح الغاز.

د- العناية بالملابس تبعًا للموسم، الخياطة، نسج الشِّعار من تُبّان وقميص تحتانيّ، نسج السجاد بأنواعه ومنها "الكِليم"، معلومات عن أنواع السجاد، تنظيف الملابس بعصير الليمون والصودا والصابون، وتنشية وتنشيف الملابس وكيها، إزالة البقع، التطريز، أشغال الإبرة، أعمال النسيج المختلفة.

هـ- صناعة الخبز والتخمير، حفظ المواد الغذائية تبعًا للموسم، تجفيف خضار الموسم وفاكهته، تجهيز المخللات والمربّى والشراب واللحم المشويّ والقديد والسجق، الأطعمة بزيت الزيتون أو من دونه، أعمال الخميرة، إعداد النُّقاعة، الخزف، تحديد الحد الأدنى للاستهلاك الأسبوعيّ للاحتياجات من السلع الأساسية تبعًا لعدد أفراد الأسرة.

و- صيدليَّة المنزل: إعداد معجون الأسنان وماء لنظافة الفم، وصناعة الكريم للأيدي والشفاه المتشققة، وفرَشاة الأسنان الطبيعية والصناعيَّة، وصناعة إسفنج الحمام وليفه، وحياكة البرنس، ومدخل إلى الأعشاب الطبية والأدوية التي يمكن إعدادها في المنزل، ومعلومات عن النزيف والتسمم، وغير ذلك.

ز- المعلومات الصحية في المنزل: الجروح والكدمات والالتواء، والكسور، والحروق، والعناية بالشخص النَّاقه، وصفات طبيب العائلة.

ح- ارتداء الملابس تبعًا للموسم، الأكل والشرب، تحديد ميعاد الطعام، التغذية اليوميَّة للأطفال والشباب وكبار السن، ساعات النوم وَفقًا للسن، النظافة اليوميَّة والأسبوعيَّة.

ك- معلومات عن غرفة المعيشة كي تكون معدة دائمًا لاستقبال الضيوف، الآداب، الحديث، آداب الخدمة، الاحترام، الحب، خصال ضرورية للخَدَم، الأشياء الشخصية، الاستعداد دائمًا للضيوف، النظافة، النظام، القواعد التي تراعى عند الضيافة.

ل- تحضير دفترٍ للمحاسبة اليوميَّة، إعداد الميزانيَّة الشهريَّة، الادخار، مراعاة شروط الإيجار عند التأجير، القيام بكل أنواع الصيانة للمنزل سواءٌ كان ملكًا أم إيجارًا[٦٠].

وكانت الفتيات العثمانيَّات يتعلمن سواءٌ في منازلهن أم في المدرسة، ويُعددن جيدًا جدًّا لكي يتحملن كل التبعات في حَرَم الدار، ويزوّدن بكل المعلومات والمهارات اللازمة من أجل الوفاء بواجباتهن بوصفهن زوجات، وبالإضافة إلى تعليم الفتيات والفتيان العثمانيين المعلومات العمليّة، فقد عُلِّموا بدقة قواعد السلوك والمجاملة في المجتمع أيضًا، وكان هناك تسلسل هرميٌّ صارمٌ يعتمد على احترام كبار السن في البيت وفي المجتمع، وكانت كل شريحة من شرائح المجتمع تربي أولادها على امتثال هذه القواعد، ولم يكن الشباب يقصّرون في احترام كبار السن في أيِّ وقت قطُّ ولو كانوا أشقاء؛ فقد كان الأشقاء الكبار مسؤولين بشكل كبير عن إخوتهم الصغار.

وكان دور الزوجة يجلب الكثير من الفوائد للمرأة العثمانيَّة، ويمكن أن نعدّ من بينها نقاطًا، مثل: ضمان المعيشة، ومرافقتها لزوجها، والحصول على دعم من جميع أفراد الأسرة طَوال حياتها، والحصول على مكانة محترمة آمنة في المجتمع؛ وقد أجمعت الأغلبية الساحقة من الرّحالين الغربيين المحايدين على أن المرأة العثمانية كانت تسيطر بشكل كامل على مجال السيادة، حتى إنّ بعض الرحالين قد استهزؤوا بمن اعتقد عكس ذلك[٦١]، ووفقًا لكتب الرِّحلات للرّحالين الغربيين، فإن الرجال كانوا يعاملون النساء العثمانيَّات بلطف ورحمة واحترام، وقد تأثرت النساء الغربيَّات كثيرًا بالاحترام الذي أظهره الرجال العثمانيون للنساء خاصّة في حَرَم الدار.

كان القانون والتقاليد الاجتماعية يحميان المرأة؛ فكان محظورًا على الرجال الحديث مع النساء في الطريق، وفي هذا الإطار فحتى النظر مباشرة إلى امرأة أخرى من النساء غير زوجة الرجل أو القرائب جدًّا يعدّ شيئًا مخجِلًا، ومثالٌ ذو مغزى كبير على ذلك قد ساقه أنطوان إينياس ميلينج (Antoine-Ignace Melling) (١٧٦٣م-١٨٣١م)، وكان مهندسًا معماريًّا يعمل تحت إمرة خديجة سلطان شقيقة السلطان سليم: عندما كان يعمل في قصر خديجة سلطان، كان يقف في مكان يمكن أن يرى منه الجواري في ساحة القصر، أما كبار العمال معه فكانوا يديرون رؤوسهم إلى الجهة الأخرى في كلّ مرة لتجنب مشاهدتهن قائلين: إن الله أمر الرجال بغض البصر عن النساء الأجنبيَّات (أنظر سورة النور الآية ٣٠)[٦٢]؛ فكان العنف ضد المرأة المسلمة في المجتمع العثماني شيئًا نادرًا، وتلك الحكاية الهزليَّة المثيرة للاهتمام التي حكتها



Rogier، تقديم القهوة، ١٨٤٨م

السيدة رامسي عن موقف صادفته أثناء رِحْلاتها تعدّ مثالًا عن سلوك الرجال تجاه النساء؛ فقد كانت رامسي -المتجوّلة في أماكن كثيرة داخل الإمبراطوريَّة العثمانيَّة- شاهدًا على ممارسة العنف ضد المرأة ولو مرة واحدة فقط:

"كان صباحا رائعًا مشرقًا، أعددت أمتعتي للخروج، وزوجي يدوّن بعض الملاحظات حول منطقتنا، وفي أثناء تجولي، وصلت إلى أذني صرخة غاضبة من خلف الوادي الضيق، وعندما التفت إلى الوراء، أبصرت رجلًا في منتصف العمر يرتدي ملابس قرويَّة يصيح ويلوّح بذراعيه هنا وهناك، وعلى ما يبدو أنه كان غاضبًا وفي حالة سيئة، وبجانبه أربع نسوة أو خمس يحملن المعاول في أيديهن، فاعتقدت أنهن ذاهبات إلى المزرعة، وتوقف الرجل فجأة وعاد الى الوراء عند بداية التل، وتوقفت النساء إلى جانبه وعدن أيضًا، وسمعت أن هذا الرجل الغاضب قد نادى على امرأة أخرى خلفه على بعد بضعة أمتار، ويبدو أنه كان يأمرها بالعودة إلى المنزل، وكان هناك طفل صغير لا يكاد يقوَى على المشي وراء تلك المرأة، فكان يبذل قصارى جهده حتى يستطيع اللَّحاق بها بقدميه الصغيرتين.

كان الرجل واقفًا في مكان المرأة يزمجر ملوحًا بذراعيه، وعندما بدأ يسير عائدًا سارت المرأة خلفه، ولما تكرر هذا الموقف ثلاث مرات أو أربعًا استشاط الرجل غضبًا، واندفع تجاه المرأة، ورفعها في الهواء -كانت المرأة صغيرة ونحيلة بالفعل-، وضربها في الحائط المجاور لهما بكلّ قوته، وعلى قدْر ما استطعت أن أسمع، فإن المرأة لم تُحرِ جوابًا قطّ، ورقدت مثل صرة الملابس من دون أية حركة، وما كاد الطفل يصل إليها حتى بدأ يصرخ ألمًا وخوفًا، فانحنت النسوة الأربع أو الخمس اللائي كن بجانب الرجل فالتقطن الأحجار من الأرض، وبدأن يرجمنه، وعلى ما يبدو، فإن عددًا قليلًا منها قد أصابه، وكنت آمل من كل قلبي ألا يكون قد أضير، وبدا الرجل خجِلًا مما فعله عندما التفت وراءه، وبدأ يهرول وكأنه لم يلاحظ ما صدر عن تلك النسوة تُجاهه"[٦٣].

وأكثر نقطة كانت تجذب الانتباه في هذه الطرفة لم تكن العنف الذي مارسه الرجل الغاضب ضد زوجته مصرًا عليه، بل رد فعل النساء القرويات على سوء المعاملة من قبل الرجل؛ فأولئك النساء لم يكنَّ خائفات ولم يختبئن في مواجهة قوة الرجل، ومن الواضح أيضًا أنهن لم يخشين على مكاسبهن المالية، وكان ذلك موقفًا يعبر عن شعورهن بالثقة؛ لأنهن على حقّ من الناحية الخلقيَّة والقانونية للرد على القوة الغاشمة بمثلها في نفس اللحظة، وعلاوة على ذلك، فإن عدم رد الرجل الغاضب على رجم النساء له بالحجارة يشير إلى أنه قد شعر بمجانبته الحقَّ في مواجهة أولئك النسوة.

دور الأمّ والأطفال

الأمومة تجعل مكانة المرأة العثمانيَّة في المجتمع ذات مغزًى كبير، وتقوّيها؛ إذ كانت الأمهات يُحترمن جدًّا، ويُمنحن قيمة كبيرة في المجتمع العثمانيِّ، ويشير الحديث النَّبوي: "**الزمْها فإن الجنة عند رجليها**"(٦٤) إلى أن هذا السلوك يستند إلى أساس دينيٍّ كبير.

والأمهات العثمانيَّات مضحيات، يؤْثِرن أطفالهنّ، ويعاملنهم برحمة كبيرة؛ فالأم تهتمّ هي نفسها باحتياجات طفلها أو تشرف على اعتناء الجواري اللاتي يقمن بدور المربية لأطفالها، وفي كثير من الأحيان كنَّ -أي الأمّهات- يعتنين بالأطفال ويربينهم في غرفة المدخل الرئيس الواسعة في حَرَم الدار، وكان الأطفال يقيمون مع كبار السن هناك، ويعيشون في حَرَم الدار بوصفه جزءًا طبيعيًّا من حياتهم، وأدى هذا إلى أن بعض النساء في عهد الملكة فيكتوريا -بسبب اعتيادهن أن الأطفال يشغلون جزءًا منفصلًا تمامًا في المنزل- اعتقدن أن الأطفال محبوبون حبًّا جمًّا من قِبَل أمهاتهم أو مربياتهم، وكان الاهتمام بهم كبيرًا سواءٌ كانوا ذكورًا أم إناثًا.

وعادة ما كان الأطفال الذكور يقيمون مع أمهاتهم في حَرَم الدار حتى سنّ السابعة، وبعد ذلك يبدؤون في مشاركة الرجال في المكان المعروف باسم "سَلَامْلِكْ"، وكانت الفتيات يبقين في حَرَم الدار حتى الزواج وقيامهنّ بمسؤولياته، وكان تنشئة الأولاد والبنات تتم بحبٍّ ورحمة كبيرين، وكانت الأمهات يبدين اهتمامًا كبيرًا ليرسخن أنواع التربية والمجاملة كلّها لدى الأطفال، ولما كانت النساء العثمانيات يقضين كل أوقاتهن في المنزل لا في الخارج، فقد منحن كلّ أوقاتهن وجهودهن لأزواجهن وأطفالهن، وفي المقابل كان الأطفال يظهرون احترامًا كبيرًا للكبار، وكانوا يأخذون ذلك بعين الاعتبار، ووفقًا لما تقوله جوليا باردُئي:

"الاحترام، والرعاية، والاهتمام بمن كان سببًا في الوجود خصيصة من أجمل الخصائص الأساسيَّة للأتراك؛ فالأمّ هي الحكيم المرشد إلى الطريق، يتشاورون معها، ويشكون لها الألم، ويستمعون إليها باحترام كبير، ويتركون الأمور لتقديرها، تُعامَل باحترام بالغ حتى آخر ساعة في حياتها، وبعد وفاتها يتذكرونها بشوق وحب كبيرين"(٦٥).

ومبادئ مثل: الروابط القوية بين الآباء وأبنائهم، والتضحيات التي يقدّمها الآباء والأمهات أثناء تربية أبنائهم، والتضحيات التي يقدمها الأبناء للآباء والأمهات الذين تقدمت بهم السن، والمجاملة والتضامن، ووحدة الهدف في المواقف والسلوك تجاه كل أفراد الأسرة، كل هذه المبادئ قد جعلت الأسرة العثمانيَّة "أكبر بيت سليم في العالم" وَفقًا لما يقوله أستاذ قانون الأسرة السويسريُّ الجنسية(٦٦)، وكل العوامل كارتباط العثمانيين ارتباطًا وثيقًا بالإسلام،



Preziosi، قارب، ١٨٦١م

واحترامهم للقيم الثقافية الأُسْرِيَّة المهمّة جدًّا، وللعادات والتقاليد، فضلًا عن دعم الأسرة وحمايتها من قبل المؤسسات العثمانيَّة، مثل: نظام الإدارة المحلية والنِّقابات، والمنظمات الدينيَّة والمؤسسات الحكوميَّة، كل أولئك عوامل حيويَّة حقّقت قوة للعائلة العثمانيَّة.

وتتحدث المرحومة منوَّر آياشْلي هانم أفندي (Münevver Ayaşlı) -المولودة عام 1906م والمترعرعة في عائلة عثمانيَّة- عن تجربتها قائلة:

"لا أعتقد أن شيئًا من الجمال ودماثة الخلق والصدق في الحياة الأُسْريَّة العثمانيَّة كان في أي مكان آخر، وكانت الحياة الإسلامية لدى العثمانيين في ذروتها جمالًا؛ وبتعبير اليوم كانت في نقطة الذروة؛ فمحبة كل منهم للآخر واحترام زيارات الصغار الكبار في الأعياد والحفلات الدينيَّة، ومداعبة الكبار الصغار واهتمامهم بهم يعد حقيقةً حياة كأنها ملحمة شعرية، وإذا سألت قائلًا: ماذا كانت الحياة العثمانيَّة؟ فسأجيبك: كانت شعْرًا مفعمًا بالجمال ومزينًا بالورود" (٦٧).

الأنشطة الاجتماعية

كان العثمانيون أشخاصًا اجتماعيين، وكانت النساء في حَرَم الدار من جميع الأعمار والأجناس والطبقات الاجتماعيَّة يتجمعن كلّ يوم ويتفاعلن بعضهن مع بعض، وبالإضافة إلى ذلك كنَّ يقمن كثيرًا بمقابلة النساء الوافدات من خارج حَرَم الدار، وكان هناك الكثير من الأمور يفعلنها معًا، وكانت المرأة العثمانيَّة والرجل العثمانيّ يقومان بتنظيم حفلات لمشاركة الآخرين في الأحداث البهيجة المهمة في حياتهم أو لإحياء ذكراها معًا، وكانت الولادة والختان والخِطبة والزواج والأعياد الدينيَّة وغير ذلك أحداثًا ومواقف مهمّة، وقبل ذلك كان الاحتفال بها يتم وَفقًا للعادات والتقاليد، وكان جميع الأقارب يشاركون في هذه الاحتفالات، وبالإضافة إلى ذلك، كان يُحتفل أيضًا بالأحداث المهمّة الأخرى، مثل: ظهور السنّ الأولى للطفل، وذهاب الطفل إلى المدرسة المرّة الأولى، أو ختمه القرآن الكريم المرّة الأولى، وتغطية الفتاة لشعرها المرّة الأولى، وذهاب الشابّ إلى الخِدمة العسكرية أو عودته منها، وعودة الكبار من رحلة الحج... وبالإضافة إلى هذه الاحتفالات كانت هناك أيضًا فعاليّات مهمة أخرى، مثل: الزيارات الأسبوعيَّة للحمام، والذهاب إلى الضيافة، والزيارات المتبادلة، والخروج للتسوق، والنزهات وغير ذلك، ولم تكن حياة العثمانيّات في حَرَم الدار وعدم دخولهن إلى المجالات العامّة -التي احتكرها الرجال- محكومة بحياة الوَحدة بأي حال من الأحوال؛ إذ كانت النساء يجتمعن عندما يحلو لهن، وكان قيامهن ببعض الأشياء يعد مكانة اجتماعية خاصة بالنساء فقط، وقد وُصف عالم هؤلاء النساء في رواية تركيَّة رائعة في القرن العشرين على لسان امرأة في السابعة والتسعين من عمرها لحفيد حفيدها على النحو التالي:

"في ذلك الوقت كان هناك عالم للنساء مستقل عن الرجال، والآن تبدد تمامًا، وكان هذا العالم واسعًا جدًّا، وكان آلاف النساء يتحدثن بعضهن مع بعض، ويتناقشن، ويلهون، وكانت لهن متعتهن ووسائل التسلية الخاصة بهن، ولم يكن هناك أي أنماط مستحدثة في الملابس، بل كانت الفتيات يرتدين ثياب أمهاتهن، وكانت الحفيدات تتقلد جواهر الجدات، ونعال الجلد المطرزة، والأثواب الطويلة الحمراء... آه من الأثواب الطويلة الحمراء...! وكانت النساء تتألق في أماكن التنزه فوق المروج الخضراء في فصل الربيع وكأنهنَّ زهور ابن عرس، ولم يكن بينهن ضعيفة أو مريضة أو قبيحة، ولم يكن للرجال معرفة إلا بزوجاتهم فقط؛ فبعد العمل يعودون إلى منازلهم مبكرًا، وكانوا يبدعون مشاهد فاتنة من المحبة والمودة لا تنتهي لزوجاتهم؛ فلم تكن المقاهي والمنتديات والملاهي والنوادي والمسارح ... تخلو من النساء التركيَّات؛ فلا يُتركن كحارس نُسي منعزلًا في المنزل؛ فكن يعشن مع أزواجهن من دون حزن؛ فيجتمعن في منازلهم الكبيرة، والموائد الكبيرة، والحدائق ذات العرائش، وفي البساتين، وعلى شواطئ البحر، وفي المنتجعات الكبيرة النادرة، لاهين هانئين، واليوم نسي كل شيء، فلا ألعاب ولا تقاليد ولا شيء.

كان كل شيء بالنسبة لنا يبعث على الاستمتاع والترفيه: الطفولة، بداية المدرسة، ارتداء الأثواب الطويلة، الزواج، الولادة، حتى الهرم... وكانت تلك العهود ممتعة للكثير من النساء؛ فمضت حياتنا في متعة، فما مرّ أسبوع واحد من دون أن نشاهد احتفالًا ببدء الدراسة أو بختان أو بزفاف أو سُبوع، حتى الأثواب والحناء الخاصة بنا كانت وسيلة للمتعة، وكانت هناك أشعار "ماني" الخاصة بنا وأغانينا، وكنا نجتمع ونتشاور فيما بيننا، وفي ليالي الشتاء كنا نتفاعل معًا في المجالس، وكانت المواسم متعة أيضًا؛ إذ كان لكل موسم عاداته وتساليه وتقاليده"[٦٨].

حفلات العرس

مما لا شكّ فيه أنّ حفل العرس من أهمّ الأحداث في حياة المرأة العثمانيّة، وربما كان الوسيط في أمر الزواج بين الخاطب ووالدة المخطوبة من الأقارب أو الأصدقاء أو الجيران، أو من القائمين على هذا الأمر، حتى يتحقق الزواج وفقًا لأصول الخِطبة، ويبدأ بزيارة لمنزل أسرة الفتاة، حتى تتمكن أمُّه من رؤية كَنَّتِها عن كَثَب، وبعد الترحيب بالزوار في أجمل غرفة بالمنزل، واستعداد الفتاة بارتداء الملابس الملائمة لذلك اليوم، كانت الفتاة تقدم القهوة التركيّة بيدها للضيوف، وبينما تتمزمز والدة الخاطب في قهوتها، تتملّى الفتاة بحذر، وفور انتهاء القهوة تجمع الفتاة الفناجين في صينيّة، وتنسحب خارجة من الغرفة.



وإذا أعجبت السيدة بالفتاة، أخبرت زوجها وابنها، وبعد ذلك يتوصلون إلى قرار عائليّ، وإذا كان القرار بالإيجاب، يقوم والد الخاطب بزيارة لوالد المخطوبة في صحبة أقاربه من الرجال، ويخطبون الفتاة من والدها، وكان والد الفتاة قبل أن يعطي جوابه يستقصي عن أسرته ومستواها الماديّ إن لم تسبق له معرفة به، ويتعرَّف أحواله الماليّة، وما شابه ذلك، ثمَّ تجتمع عائلة المخطوبة وتنظر هل سيوافقون على هذا الطلب أم لا، وإذا قبلت العائلة الطلب يأذن والد المخطوبة بالشروع في أمر الزواج، فتتزاور العائلتان، وفي أثناء ذلك يتحدثون عن مقتضيات الزواج، ويتخذون القرارات، ويتبادلون الهدايا.

وكان مقدار الصَّداق من أهمّ الموضوعات التي يناقشونها، والصَّداق هو اسم المال المدفوع من الخاطب لمخطوبته، أو العقار المتعهد بتقديمه، وهو يختلف عن الجهاز المحضَر إلى مكان الزواج، والمقدم المدفوع لوالد المخطوبة، وقد اشترط الإسلام تقديم الصَّداق؛ فلا يتم الزواج من دون الاتفاق على شروط الصَّداق والمقدَّم، وفي العصر العثمانيّ كان يدفع جزء من الصداق قبل الزواج، ويبقى جزء في حالتي الطلاق أو وفاة الزوج، وكان الصداق يعدّ ضمانًا ماليًّا للمرأة في حالة الطلاق أو الوفاة، وعاملًا يردع الرجل عن الطلاق، وبصفة عامّة كان الصَّداق يختلف تبَعًا للمستوى الاجتماعيّ للخاطب.

وبعد تحديد كلّ الشروط بين العائلتين، والموافقة عليها تتم الخطبة، وترسل صرة هدايا من عائلة المخطوبة إلى عائلة الخاطب، تحتوي على حلويات متنوعة، وهدايا للخاطب، ولأفراد عائلته، وتوضع أيضًا هدية للأقارب،



Melling، حفل زفاف تركيّ ١٨٤٠م

إذا كان باستطاعة عائلة المخطوبة ذلك، وفي المقابل تأتي صرة من عائلة الخاطب إلى عائلة المخطوبة، تجهز بشكل أشمل؛ فتُملأ بالأطعمة المختلفة والهدايا، ويصف فاني بلونت هذه الصرّة قائلًا:

"كان هناك كثير من التجهيزات يمكن إدراجها تحت اسم صرة الخِطبة؛ إذ كانت العوائل الثريّة ترسلها في خمس صينيّات منفصلة يحملها خمس من الخدم على رؤوسهم، في الصينية الأولى النعال المنزليّة للمخطوبة وأقاربها، وأيضا نعال لخدم العائلة ولكن من نوعية أقلّ جودة، ومرآة صغيرة من الفضة، وعطور في زجاجات صغيرة من البلُّور، وصندوق أو علبة فضية فيها خاتم يقوم مقام خاتم الخِطبة أو الزواج، وعادة ما يكون مزينًا بحجر من الزمرد أو الألماس؛ وفي الصينية الثانية توضع الزهور، وفي الصينية الثالثة سلال الفاكهة، وفي الصينية الرابعة السلال المملوءة بالحلويات والأبازير والبنّ والشمع الملون وحناء مكة، أما الصينية الخامسة ففيها أنسجة أخرى مع أنسجة لباس العرس، بالإضافة إلى حوض غسيل صغير من الفضة، وزوج من القباقيب أبازيمها مزينة باللآلئ ومطعمة بالصدف، وأمشاط مزينة بدقّة لحمّام المخطوبة، وجميع هذه الصينيّات تُلَفّ بنسيج رقيق وتزين بالشرائط"[٦٩].


منديل الشراب

ثم يعقد القران رسميًا في منزل العروس بحضور الإمام والحموَين والشاهدين، ثم يوقَّع عقد الزواج بين الطرفين، وفيه تُذكر الشروط الواجب توضيحها لا سيما شروط العروسين، ومنها الصداق، وكانت العروس تتابع الطقوس لعقد القران من خلال غرفة جانبيّة، أما عروسها فإما يحضر الطقوس، وإما ينوب عنه نائب، وبعد الطقوس الرسميّة لعقد القران يقدم طعام العشاء للطرفين.

وكانت طقوس حفل الزواج تتم في تاريخ محدّد ليشارك الأقارب جميعًا في الاحتفال بزواج الاثنين، وتكون ليلة الزفاف يوم خميس، وكل شيء يسبق ذلك يكون محدّدًا وَفقًا لنظام محدَّد بشكل تقليديّ؛ ففي يوم الإثنين السابق لليلة الزفاف ينقل جهاز المخطوبة وأمتعتها إلى منزل الخاطب في قافلة، وتُعْرَض هناك لتشاهدها قرائبها وصديقاتها وجاراتها ويبدين إعجابهن بها، وكانت الأمّهات يبدأن الإعداد لجهاز بناتهنّ بعد مدة صغيرة من ولادتهن، وتبدأ الفتاة في إضافة الأمتعة لجهازها بنفسها عندما تصل إلى سنّ تستطيع أن تفعل فيها شيئًا، وكان جهاز العروس عامّة يتكون من:

"صوان فضيّة متعددة الأشكال، وأقداح وأباريق ماء مصنوعة من الزجاج المدهون، وهو نوع ينتمي إلى القرن التاسع عشر، وعين البلبل وهي زهريّة مزينة بخطوط بيضاء حلزونيّة، وزهريّة من الخزامى يطلق عليها اسم "لالَدانْ (laledan)"، وأكواب من البلور، ومفارش ذات خيوط مطرزة بالفضة أو الذهب أعدتها العروس نفسها في أغلب

الأحيان، والجواهر داخلها من الزجاج، ومجموعتان للغرفة أي: مفروشات الغرفة على شكل مجموعتين مختلفتين، مثل: الكراسيّ المطعمة بالصدف، والسجاد والممسحات ذات الأهداب، ومفارش الأرائك، وأغطية للوسائد من النسيج نفسه، والستائر في معظم الأحيان من القطيفة الحمراء ذات الخيوط المطرزة، وأدوات الوضوء والطعام والمطبخ والشوايات، حتى المجارف كانت مزينة بخطوط رقيقة، وكانت تصنع بصفة عامّة من الجوز المطعم بالفضة، وخمسون طقمًا تقريبًا من مفروشات الأسرة، ويجب ألا ننسى أيضًا خزانة ثياب العروس؛ إذ كانت تحتوي على أمتعة كثيرة جدًا طرّزتها العروس بالخيوط من ثياب النوم حتى البراقع"[٧٠].





وكانت أمتعة الجهاز تعرض في الغرف المخصصة للزوجة بشكل جذّاب، وتُفرَش الغرف باهتمام، وكانت السيدات والفتيات يضعن كرسيًا ذا كِلّة مطرزة من أجمل نسيج، حيث تجلس العروس كالملكة طوال الاحتفال بالزواج مستقبلة هناك زوجها والسيدات اللاتي يقدمن لزيارتها.





Bruyn، أغطية رؤوس النساء، ١٧٠٠م

وكانت الاحتفالات تستمر يوم الثلاثاء في الحمام، ونقل العروس للحمام كان حفلًا في حدّ ذاته، وكانت قرائبها وصديقاتها يشاركن في حمامها التقليديّ، وشعرها يجدل ويزين بأحجار كريمة وفِدر من الذهب، ثم تنتقل إلى القسم البارد حيث الضيوف ينتظرونها، وهناك تقوم بتقبيل أيدي السيدات الكبيرات سنًا، وتتلقى تهنئتهن، وكان إعداد اللهو بمصاحبة الموسيقيّات والمغنيّات والراقصات، وكانت العروس تشاهده من الكرسيّ ذي النسيج وشرائط الشَفِ، ويتم إكرام الضيوف، وكان من العادة أن ترتدي العروس أزياء مستعارة خلال الفترة من بعد الحمام حتى ارتداء فُستان العُرس، أما النفقات، فكان الخاطب يتولى دفعها[٧١].

وبعد ظهر يوم الأربعاء تقوم قرائب الخاطب بزيارة منزل المخطوبة، فتستقبلهن والدتها وقرائبها، ويصعدن بهن إلى غرفة الاستقبال في الطبقة العلويّة، وبعد تقديم

القهوة مباشرة، كانت المخطوبة لا تزال ترتدي ملابس مستعارة وتدخل برفقة سيدتين لم يسبق لهما أن تزوجتا سوى مرة واحدة، وبعد أن تقبل يد حماتها تقبل أيضًا أيدي السيدات الأخريات، وبعد ذلك تمضي وتجلس عدة دقائق بجوار حماتها، وتتبادلان قطع الحلوى التي تقضمها كلٌّ منهما مرة واحدة تعبيرًا عن الحب والإخلاص، وكانت الحماة ومن برفقتها ممن يقضين وقتًا لطيفًا مع الراقصات والموسيقيّات يطلبن الإذن لهن بالنهوض، وكنَّ يُدْعَون إلى ليلة الحناء في مساء اليوم نفسه، وكانت المخطوبة تودّع حماتها والضيوف الأخريات حتى الباب، ويقوم الضيوف بنثر قطع نقود على قدميها، وكان المُسْتَجْدون والأطفال المنتظِرون بالقرب من الباب يجمعون هذه القطع الملقاة في حفلات العرس دائمًا ويضعونها في جيوبهم.

وفي تلك الليلة تخضب العروس بالحناء وداعًا لحياة العزوبيّة، وتصف لوسي جارنيت ليلة الحناء قائلة:

"كان الضيوف يتجمعْنَ مرة أخرى في المساء، وتقدَّم الشموع الصغيرة للشابات منهن؛ فينزلن خلف العروس إلى الحديقة برفقة الراقصات والموسيقَّيات، وكانت فتيات الغَجَر ذوات البشرة الدَّكناء يتقدمن على هيئة قطار واحد طويل متموج بين الأدغال وتحت الأشجار وروائح الزهور بملابس مطرزة بشكل مبالغ فيه وجواهر براقة ووجوه مشرقة وشعور كثيفة تلمع تحت ضوء الشمع، وكنّ يحدِثْن إيقاعًا بأقدامهن وألحانهن وجلجلة صنجاتهنّ، حتى إنَّ الناس عندما كانوا يشاهدونهن من الممكن أن يتصوروا أن الجنيات قد خرجن للتسلية، وعند العودة للمنزل مرة أخرى كانت المخطوبة -وقد خَرجت بزيّها الجذّاب- تدخل إلى غرفة الضيوف مرة أخرى، وتجلس على كرسيٍّ في وسط الغرفة واضعة ذراعها اليسرى على جبينها بشكل متقاطع، وبعد ذلك تخضب أصابع يدها اليمنى بطبقة كثيفة من الحناء، وتضع والدتها قطعة نقود ذهبية في يدها المخضبة بالحناء، ويقوم الضيوف بتَكرار الشيء نفسه، وتوضع اليد المخضبة في كيس من الحرير، وتضع المخطوبة يدها على وجهها بشكل متقاطع، وفي ذلك الوقت تخضب اليد اليسرى بالحناء، وبالشكل نفسه تزين وتوضع في كيس من الحرير، وبعد أن تخضب الأصابع لأقدام المخطوبة بالحناء يكون ذلك الطقس قد انتهى، وتؤدي فتيات الغجر رقصة إيمائيَّة حيَّة، وينهين رقصهن أمام السيدات من كبار القوم بين الضيوف بوقوف استعراضيّ، وينتظرن العطية، وفي الواقع، فقد كان من العادة أن يقوم الضيوف بدفع مكافأة مماثلة لما تدفعه صاحبة المنزل، ثم تعتزلهن المخطوبة لتستريح، ومن المتوقع أن تجعل الحناء الأصابع في لون العنبر، ثم تُغْسَل يدا المخطوبة" (٧٢).

وفي ليلة الخميس كانت المخطوبة ترتدي ثوب الزفاف المزين باللؤلؤ والخيوط الفضية والذهبية من كلّ جانب، وكان الثوب عادة ما يتكون من سروال ودرع حريريّين ترتديهما تحت فستان مطرز من كل جوانبه ومصنوع من القطيفة ذات الظلال الحمراء الدكناء، وكانت نقشة "بِينْدَالْلِي (Bindallı)" من أجمل النقوش المستخدمة في تطريز ثوب العروس، وكان الثوب يغطَّى كله تقريبًا على هيئة غصن أنيق جدًّا، وكانت العروس تتقلد جواهر من مختلف الأنواع وتشمل الذهب واللؤلؤ والألماس والأحجار الكريمة، وكان تُضفّر شعرها بدقة وبخيوط لامعة، وتغطي رأسها بمنديل كبير، يتدلى فوق ملابسها، إذا شاءت، كانت تستخدم أيضًا مع غطاء الرأس قطعة أخرى مزينة بالفضة أو طَربوشًا مزينًا بحلقات معدنية مذهبة، وإذا كانت العروس تنتمي لعائلة ثرية، كانت تلبس تاجًا مرصعًا بالأحجار الكريمة.

ومن العادات خروج العروس المنتهي تجهيزها وتزيينها إلى ناحية والدها لربط حزامها، فيربط الأب حزامًا معدنيًا أو على شكل طيلسان حول خصر ابنته تاركًا إياها تقبل يده المرة الأخيرة[٧٣]؛ إذ ستخرج من البيت المرة الأولى في حياتها، وبعد هذا الطقس تأخذها أسرة العروس، وتصطحبها إلى منزلها الجديد، وكان موكب العرس -الذي يتقدمه الرجال على ظهور الخيل والنساء في عربات تجرّها الخيول- ملونًا جدًّا، وكانت هناك دليل للعروس تقف بجانبها لمساعدة الزوجين في التعرف على بعضهما، وفي بعض الأحيان كان المارة يقطعون موكب الزفاف، ولا يفتحونه من دون أن يأخذوا بعض العملات الذهبية، وفي الواقع لقد كانوا جميعًا يعرفون أن توزيع النقود في زفاف العروس عادة من العادات.

ولم يكن العروس يشارك في موكب العُرس، بل يبقى في المنزل لاستقبال عروسه عند الباب، وعند وصول موكب العرس إلى منزل العروس تقوم دليلهما بإحضار العروس إلى غرفتها المعدّة من قبل، وهنا يبقى العروسان وحدهما بضع دقائق المرة الأولى، ثم يذهب العروس لضيوفه، وتدخل قرائب العروس -اللائي جئن حاملات الهدايا- إلى غرفتها، ويشاهدنها وجهازها.

ويتم إكرام الضيوف وإطعامهم وتسليتهم طوال الفترة الممتدة حتى أذان المغرب، على أن يكون الرجال في "سَلَامْلِكْ" والنساء في "حَرَمْلِكْ"، وعند رفع الأذان يذهب العروس وضيوفه إلى المسجد للصلاة، وبعد عودتهم للمنزل يذهب إلى غرفة عروسه تحفّه الدعوات لهما بالخير، وتصحبه الدليل إلى الداخل، وتكون العروس في انتظاره، وإذا لم يكن العروس قد رفع نقاب عروسه من قبل، يقوم برفعه الآن، ويقدم هدية لها تكريمًا لرؤية وجهها،

وفي ذلك الوقت تغادر الدليل لتعدّ طعامًا خفيفًا لعشائهما، وبعد العشاء يترك الزوجان لقضاء الليلة وحدهما، وتكون دليلها بالقرب منهما؛ لتكون جاهزة عند الحاجة، ويستمر حفل الزفاف يومين آخرين كذا الزيارات وإكرام الضيوف.

تعطى المرأة قيمة كبيرة في المجتمع العثمانيّ، خاصّةً عندما ننظر إلى عادات حفلاتها وطقوسها؛ إذ يظهر ذلك على نحو أفضل، ومن بداية احتفالات الزفاف حتى نهايتها تكون العروس محور الاهتمام والتصرفات، ويتم التعامل معها والإشارة إليها بكل الاحتفالات والطقوس كأنها ملكة تمامًا، حتى إن حمّامها وحنّاءها كانا احتفالًا تشارك فيه النساء الأخريات، وكان جهازها يرسل مع احتفال كلّ معارفها، وكان انتقالها من مرحلة العزوبيّة إلى الزواج حالة تحتفل بها عائلتها وأصدقاؤها والغرباء على حدٍّ سواء، وكانت العرائس العثمانيّات يتلقين الدعم والدعاء والتمنيات الطيبة من مجتمعهنّ كله، وهكذا يبدأن هذه المرحلة الجديدة من حياتهن بمشاعر قوية إيجابيّة.

الولادة

كان اتخاذ الزوجة الخطوة الأولى نحو الأمومة من الأحداث المحتفل بها جدًّا في المجتمع العثمانيّ، وكذلك الشأن

في الولادات التالية، غير أن الولادة الأولى تظل ممتازة، وكانت الماخض تلد طفلها فوق كرسيٍّ يسمَّى كرسيَّ الولادة، وكان من سماته ظهره ومَسَانده العالية، أما قاعدته فمحفورة لتساعد على الولادة، وكانت هناك قابلة من ذوات الخبرة بجانب الأمّ لتوليدها، وَفَوْرَ ولادة الطفل تقوم النساء هناك بترديد الشهادتين، وبعد أن تقطع القابلة الحَبْل السريَّ للطفل، تقمطه في قطعة نسيج قطنيّ، وكانت الأمّ النفساء تتمدد على أريكة أعدّت لما بعد الولادة مزيّنة بوسائد جذّابة مطرّزة وملاءات وقطيفة أو مفارش سرير من الحرير اللامع، ويعلق مصحف داخل حقيبة مطرزة جهة الرأس من السرير للحماية من العين، ثم يُستَدعى الأب ليؤذن ويتشهد في الأذن اليمنى للطفل، ويُقيم ويبسمل في الأذن اليسرى، وكان الأب يكرِّر ذكر اسم الطفل في أذنه ثلاث مرات أيضًا.

وإذا كانت الأمّ النفساء قد استجمعت قواها، يحتفل بالولادة في اليوم الثالث بمشاركة الأسرة والأصدقاء، وقد وصفت جوليا باردُئي هذا الاحتفال بالكلمات التالية:

"اعتقدت أنني سوف أصاب بالصَمم بسبب الضوضاء المنبعثة من داخل غرفة السيدة العقيلة قبل وصولي إليها، وقد اختلط صوت المغنية وأصوات الدفوف والضحكات العالية للضيوف بصياح الخدم، وفرقعات فناجين القهوة بأقداح الشراب، حتى إنني لم أستطع أن أصدّق أنني دخلت غرفة نفساء.

وفي مواجهة باب الغرفة تمامًا كان سرير السيدة مرفوع الستائر، وبالإضافة إلى ذلك، فقد أعدت أيضًا كلّة ذات كُريشة مصنوعة من طيالس كشمير مثبتة بأغطية منسوجة فضيَّة وذهبيَّة، وبقيَّة الأغطية أنيقة المظهر -تمتلك منها السيدة خمسين قطعة- بُسطت بحبلٍ ممدود إلى سقف الغرفة بشكل مائل؛ فلا تعرض من دون إتقان في تلك المساحة الضيقة، وقد أرفقت بالطيالس أغطية رأس ملونة ذات زهور وخيوط مطرزة مطلية بلون الذهب أو الفضة، وقد وضع بداخلها البرتقال والليمون وحلوى الفواكه، وقد طوي ووضع في جهة الرأس من السرير مفرشان من مفارش السرير من الحرير اللامع الورديّ، وعلِّق على الحائط مفرش مطويٌّ مخطط، جزؤه الأدنى الممكن لمسه مزين بذؤابات طويلة.

ويرقد الطفل على فراش طُويَت حوافُّه مثل المفرش وقد تزين بنقوش من الحرير الملون فوق الحرير اللامع الأبيض، وقد زُيّن جانب الفراش بالألماسات، أما الطفل فقد تَغَطّى بنسيج ذهبيٍّ فاخر، ولكن الأمّ الشابة كانت أكثر ما لفت نظري...

جدل شعرها الأدكن ممتدًا تحت الخصر من عشرين جديلة إلى ثلاثين، وقد زين عنقها بصفوف من اللؤلؤ الضخم، ووضع فيما بينها قطعة من الألماس متدلية على صدرها، وثُبتت خرزات ذهبيَّة أنيقة جدًّا في قميصها التحتانيّ في منتصف الصدر تمامًا، وتدثرت فوقه بطيلسان أنيق جدًّا، ووضع فوق رأسها غطاء أزرق، مشغول بالفضة، وكان غطاء الرأس مغطّى بالألماس المنثور، وحوافّه مزينة بقطع ذهبية كبيرة تتدلى حتى الأكتاف، وتكاد تغطي أقراطها اللامعة، وكانت عباءتها الحريريَّة جذابة اللون، وسروالها مصنوعًا من الحرير الورديّ الناصع، ومغطًّى من كل جوانبه بنقاط فضية اللون، وعلى حافَّة الوسادة الزنابق البيضاء داخل زَهريَّة، أما بجانبها فمنديل مزخرف مصبوغ مع مروحة مصنوعة من ريش الطاووس»[٧٤].



مقعد الولادة، القرن الثامن عشر والتاسع عشر



وتظلّ الأم نفساء أربعين يومًا حتى تتحسن أعضاؤها الداخلية، وفي اليوم الأربعين ينظم احتفال مطوّل في الحمام، وتغتسل الأم والطفل بطقوس خاصة، ويدهن جسمها بمرهم صحيّ مقوٍّ محسن مصنوع من العسل وعناصر ذات رائحة عطرة(٧٥)، وتغسل آثار المرهم بعد ساعة، وتأتي الأمّ الجديدة إلى جانب الضيوف في الجزء الثاني من الحمّام وقد ألبست ثوبًا مطرزًة حوافُّه بالخيوط الذهبيَّة أو الفضيَّة، فتدخل مقبِّلة أيادي العجائز، وبعد ذلك ينظم الترفيه وإكرام الضيوف حتى المساء.

وكان مجيء الضيوف إلى حَرَم الدار أمرًا اعتياديًّا أيضًا، وفي العادة لا تكون زيارات الأقارب يومًا واحدًا فقط، بل كانت تمتد أكثر من ذلك، وكانت هناك أيام لاستقبال الضيوف، تقوم النساء العثمانيَّات بتنظيمها مرة في الشهر، وكان الباب مفتوحًا دائمًا للضيوف الآتيات على غير موعد وللبائعات، وبالإضافة إلى ذلك كانت القصّاصات يُدْعون إلى حَرَم الدار لقضاء وقت لطيف في ليالي الشتاء الطويلة الباردة، وكان إعداد الجهاز يستغرق وقتًا طويلًا من النساء والفتيات الصغيرات والقرائب الأخريات، وكانت معظم النساء العثمانيَّات ماهرات إلى أقصى حدّ في النقوش، وكن يطرزن ويزين بأيديهن جميع أنواع الملابس وأغطية الرأس والمناشف وغيرها.

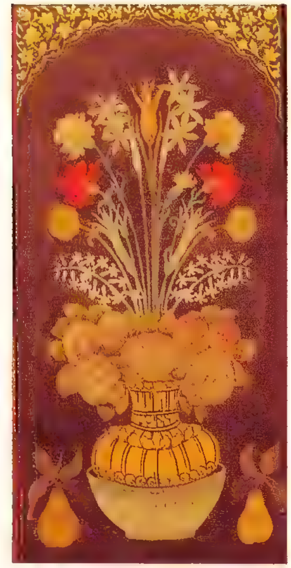


مهد، متحف قصر "طُوبْ قَابي"



الأيام والليالي المباركة

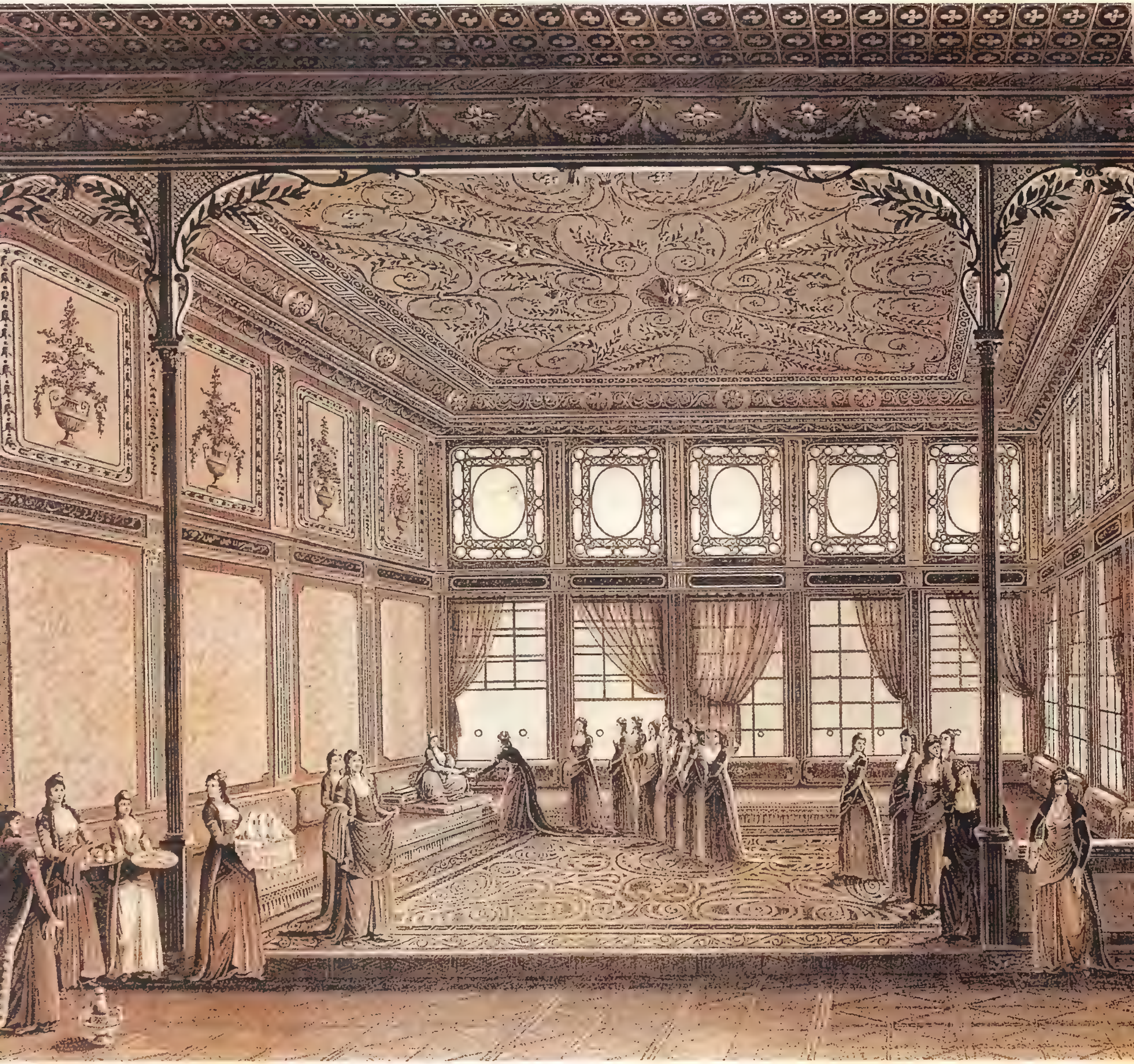
احتفال مهم آخر في حَرَم الدار كان ينظم أيضًا في أيام العيد والحفلات الدينية، وفي الإسلام احتفالات دينية تقام لإحياء ذكرى أحداث معينة، مثل: يوم ميلاد النبيّ محمد ﷺ ويوم الحمل به، ويوم الإسراء والمعراج، وكان عددها محدّدًا، وكان عيد الأضحى -وهو ثاني أكبر احتفالين دينيين- يستمر أربعة أيام، ويحتفل لإحياء ذكرى تضحية النبيّ إبراهيم عليه السلام بكبش بدلًا من ابنه إسماعيل عليه السلام، وفي عيد الأضحى يقوم المسلمون القادرون ماليًا بالتضحية بكبش للفرد أو ببقرة أو بجمل بالمشاركة مع آخرين، وثلث لحوم الهدي يوزع على الفقراء، وثلث على الأقارب، والثلث الآخر يبقى للعائلة، وبالإضافة إلى ذبح الأضحية في العيد، يتزاور المعارف والأقارب والأصدقاء، ويقدمون الهدايا لأفراد الأسرة والأطفال، وتوزع الصدقات على الفقراء.



زخارف الجدران، غرفة يميش، متحف قصر "طُوبْ قَاپِي"

أما الاحتفال الدينيّ المهمّ الآخر، فهو عيد الفطر التالي للعبادات والصوم في رمضان وفقًا للتقويم الهجريّ، وتحكي أمينة فؤاد تُوقَايْ ما يلي عن رمضان في طفولتها:

"تكون أبواب البيوت مفتوحة أمام الناس خلال شهر رمضان المبارك، وكان هناك إمام ومؤذن معينان شهرًا كاملًا في منزلنا، وكان المؤذن يمضي إلى أعلى الدّرج الهابط إلى الحديقة، ويرفع أذان المغرب، وكانت السجاجيد تفرش في اتجاه القبلة بالقاعة الرئيسة للرجال، وبالشكل نفسه كانت غرفة المعيشة تعد أيضًا للنساء... وفور انطلاق المدفع معلنًا دخول وقت الإفطار، يُشرَع في الإفطار بالخبز والزيتون، ثم تؤدى صلاة المغرب، ثم يجلس أهل المنزل والضيوف المقيمون والغرباء القادمون للإفطار حول الموائد معًا للإفطار، وكان الرجال يُستضافون في قاعة الاستقبال سواءً كانوا من معارف أبي أم من غير معارفه، أما والدي فكان يبدأ إفطاره منفصلًا مع ضيوفه، ولكنّ الأطعمة المقدّمة لكل الضيوف كانت هي نفسها، ورغم أن النساء الغرائب لا يأتين كثيرًا للإفطار، فقد كانت هناك مائدة معدّة دائمًا من أجل "ضيوف الله"، وفي الإفطار كانت تقدم أطعمة خاصة، مثل: الزيتون الأسود والأخضر، وشرائح متنوعة من الجبن، والمربّيات بنكهات مختلفة، وشرائح رقيقة من لحم الضلوع للغنم أو الديك الروميّ، ولحم الديك الروميّ ولحم



Melling، قصر خديجة سلطان

الغنم المجففين، وكانت الأطعمة المذكورة أخيرًا تُتوَّم بالثوم -الطعام المثوَّم لا يؤكل أبدًا في غير ذلك- وتوضع في أطباق صغيرة منفصلة بجانب الأطباق الشخصيَّة، وكانت هناك أقداح العصير دائمًا بجانب أكواب المياه، والقاعدة العامة أن الطعام يبدأ أولًا بالحساء يليه الجبن واللحوم والبيض باللحم المقليِّ أو المجفف، وينتهي الإفطار بالجُلَّاش -نوع من الحلوى مصنوعة من رقاق النشا الجاف الرقيق كالورق- الموضوع على المائدة بعد الكثير من الأطعمة الرئيسة، وبعد ساعتين من الإفطار كان المؤذن يرفع الأذان لآخر صلاة في اليوم صلاة العشاء، وكانت صلاة التراويح تؤدَّى بعد صلاة العشاء مباشرة وذلك في شهر رمضان فقط، وكان أبي لا يدع أيًا من هذه الصلوات تفوته قط مع أبنائه والأسرة والضيوف الذين يشاركونهم، وكنت أنا أؤدي الصلاة أيضًا مع النساء الأخريات في غرفة المعيشة، وكانت توضع حواجز أمام باب تلك الغرفة المفتوح ذي المصراعين، وبفضل ذلك كانت النساء تسمع قراءة الإمام من دون أن يشاهدهن الرجال، وكان هناك وجبتان فقط في أيام الصيام، أولاهما (السحور) يتناول قبل شروق الشمس بساعة واحدة، والأخرى (الإفطار) يتناول بعد غروب الشمس، وأثناء الصيام يمتنع الناس عن الطعام والشراب وتدخين التبغ ممنوع أيضًا؛ لأنه من الممكن أن يستنشق الدخان"[٧٦].

ولم يكن الناس ينامون عادة بعد صلاة التراويح، بل يظلون مستيقظين حتى السحور، وكان بعضهم يقضي هذه الفترة في العبادة، ورغم ذلك كان هناك أيضًا لهو في حَرَم الدار؛ فكانت القصَّاصات أكثر الناس رواجًا في رمضان، وكنَّ يجلبن للترحيب بالضيوف، وعلاوة على ذلك فقد نظم ترفيه شعبيٌّ خاصٌّ في رمضان؛ فكانت تعلق فوق المآذن وتُمد بين تلك المآذن "محياوات" المعبرة عن الوصايا والتحيات الطيبة.

والليلة السابعة والعشرون من رمضان هي ليلة القدر أكثر الليالي قدسية، والعبادات فيها خير بكثير من عبادة ألف شهر؛ فكانت المساجد تمتلئ وتزدحم بالناس في تلك الليلة، وبعضهم كان يستمر في العبادة حتى الصباح، والنساء اللائي لم يذهبن إلى المسجد في أوقات الصلاة عادة كنَّ يذهبن إلى المسجد في ذلك اليوم، وبالإضافة إلى ذلك كانت بعض النساء أيضًا تقضي الليلة في العبادة في سكون حَرَم الدار الخاصِ بهنَّ.

والاستعدادات للاحتفالات بالعيد المستمرة طوال ثلاثة أيام تبدأ قبل أسبوع من نهاية شهر رمضان، ينظف المنزل كلّه، وتعدّ الحلوى مثل: البَقْلَاوَة من أجل تقديمها للضيوف القادمين، وتشتَرى حلَّة جديدة لكل شخص، أو تفصَّل، وتصف لوسي جارنيت كيف كانت تقضي عيد الفطر بقولها:

"كان الاحتفال بالعيد يستمر ثلاثة أيام بعد رمضان، وفي الوقت نفسه تُدْفع زكاة الفطر المعروفة بأسماء، مثل: (جبر كسر الصيام)، ولا يعمل أيُّ شخص على الإطلاق طوال أيام العيد، ويقدم الأشخاص ميسورو الحال الهدايا لأطفالهم وخدمهم والعاملين لديهم في أول أيام العيد، وتوزع الصدقات الكثيرة جدًّا على الفقراء، وكانت الشوارع في صباح يوم العيد تمتلئ وتزدحم بالأشخاص المتجولين من منزل لآخر مرتدين ملابس العيد ويزورن معارفهم ورؤساءهم لتهنئتهم بالعيد، وبعد تأدية صلاة الظهر في الجامع ينشغل المسلمون جميعًا باللهو المعتدل" (٧٧).

الرِّحلات

كانت النساء العثمانيّات يذهبن إلى الحمَّام مرة في الأسبوع إلى جانب القيام بزيارات الأصدقاء والأقارب والجيران والمشاركة في الاحتفالات الخاصة في حَرَم الدار لدى غيرهن، مثل: حفلات الزِّفاف والولادة وغيرهما والنُّزَه القصيرة والتهنئة بالعيد وزيارات الرِّفاق، وكان ذلك اليوم وسيلة لقضائهن وقتًا لطيفًا ولتسامرهنّ معًا، وعند ذهابهن إلى الحمام كن يصطحبن أطفالهن الصغار معهنّ، وترافقهن الخادمات حاملات صرر الأمتعة اللازمة للحمام، مثل: المناشف، والأحواض، والصابون، والمشط، وملابس أخرى لارتدائها في الحمام، وكثيرًا من الطعام؛ لأن الحمام يستغرق اليوم كلَّه.

وكنَّ يلبسن في الحمام قباقيب ذات قاعدة عالية، وعادة تكون مطعمة بالفضة أو الصدف مزينة برباط من الكتان الرقيق، وكانت هناك عدة أقسام للحمّام، يسمَّى القسم الأول غرفة اللبس، وتصفه جوليا باردُئي قائلة:

"بعد أن اجتزنا بهوًا صغيرًا دخلنا إلى قاعة كبيرة ذات أرضيَّة رخاميَّة، وأحيطت أطراف القاعة بأروقة ذات سقيفة ترتفع صفين فوق أعمدة، والطبقة الأولى منها ترتفع عن الأرض مترًا واحدًا، وفرشت الأروقة بالوسائد وغطيت بالسجاد ذي النقوش الدقيقة، وقد بسطت فوق الوسائد أنسجة لامعة أو نسيج مخمليّ، ووضع فوقها كثير من البُسُط، والفراغات بين الأعمدة قسِّمت بجدران صغيرة ارتفاعُها تسع سنتيمترات أو عشر، وعندما دخلنا كانت كل المقصورات المخصصة لنا في الخارج ملأى، إذا جاز التعبير.



Tristam ، جولة في مضيق القرن الذهبي، ١٨٨٨م.

وفي منتصف القاعة ينبوع كبير أنيق المظهر من الرخام الأبيض، يتدفق ماؤه من أربعة ميازيب كأنّها كِنان المحار منسابًا إلى حوض أوسع ناشرًا أكثر الرسائل في العالم لطفًا ودعوة للاسترخاء، وكانت أطراف الينبوع محاطة بأربعة أرائك مغطاة بالأنسجة سالفة الذكر، وفي إحداها امرأة شابة جميلة ترضع طفلها متكئة بظهرها على وسادات مغطاة بطيالس جذّابة" [٧٨]..

أطلق على القسم الثاني من الحمام اسم "صُوغُوقْلُقْ (Soğukluk)" أي: القسم البارد في الحمامات، وكانت النساء يقضين وقتًا هناك بعد عودتهن من "سِيجَاقْلِقْ (Sıcaklık)" أي: القسم الساخن أو الجزء الرئيس من الحمام للاستجمام والاسترخاء قليلًا، حيث عدة ينابيع -ثمانية بإحصاء باردُئي- لمن لا مقدرة لديهم على تأجير غرفة شخصيَّة، وكان هناك حوضان يتدفّق من أحدهما الماء الساخن ومن الآخر الماء البارد إلى حوض رخاميٍ، وكانت الخادمات أو المدلِّكات يأخذن الماء من هناك ويسكبنه على المغتسلات اللائي يقضين عادة عدة ساعات في القسم الساخن؛ إذ كل أشكال العناية والنظافة على غرار حمامات البخار اليوم، وفضلًا عن ذلك يُصبغ الشعر والأظافر بالأصباغ أو بالحناء.

وبعد الانتهاء من الحمام والاستراحة وقتًا في القسم غير الساخن يعدن إلى المدخل الشائق جدًا،





ويتناولن الطعام هناك على أنغام الموسيقا والأحاديث، وبالإضافة إلى الأطعمة المجلوبة من المنزل تباع في الحمام أيضًا الفاكهة والمهلبية وعصير الليمون، وعند الفراغ من الحمام تُعلِم كل منهن صواحبها ليعدن إلى الخصوصية في حَرَم الدار مع انتهاء اليوم.

وكانت الرِّحلات الخَلَويَّة إحدى النُّزَه المفضلة لدى النساء العثمانيات، وفي الجوِّ الجيّد يذهبن جماعاتٍ جماعاتٍ إلى مروج كَاغِتْخَانَه ومناطق وادي كُكْسو أو أماكن التنزه الأخرى على جانب مضيق البوسفور، ويذهبن عادة في عرباتٍ مغطَّاة تجرها الثيران، بينما يمتطي الرجال عادة الخيل أو البغال، وعند الانتقال إلى الضفة الأخرى من مضيق البوسفور يركبن زورقًا.

بعد الوصول إلى مكان النزهة يجلس الرجال منفصلين عن النساء والأطفال، وكان الخدم يُعدون موائد النزهة من الطعام الكثير المجلوب من البيت فضلًا عمَّا يباع من المهلبية والعصير ومختلف أنواع الحلوى.

كان العثمانيون جميعًا مولعين جدًّا بالطبيعة، وكانت أماكن النزهة الخَلَوية أكثر الأماكن التي يشعرون فيها بالمتعة، وها هي جوليا باردُئي تحيي الجوَّ السحريَّ لأماكن النزهة الخَلَويَّة العثمانيَّة قائلة:

"كما حاولت أن أصفه، فإن وادي كُكْسو المزدحم بالناس يمنحنا منظرًا طبيعيًّا نقيًّا، العربات المخمليّة تسير تحت الأشجار، والنساء ذوات النقاب الأبيض يتنزهن جماعاتٍ جماعاتٍ فوق المروج النضرة، والخدم يسارعون في خدمتهن، والبائعون بمظهرهم الجذّاب يتنقلون مسرعين بالصواني فوق رؤوسهم لبيع الحلوى والمهلبية الوردية والصفراء ذات المظهر الرائع -المثيرة لشهية الزبائن- في أطباق الخزف والبلّور الموضوعة على الصينية، وبائعو اللبن الخثير العارضون القِشْدَة في القدور يتقدمون وهم يهزّون صواني اللبن -المغطاة بأغطية من الخزف- من أعلى الكتفين إلى أسفل، ولاعبو الدِّبية والقِردة بملابسهم الرَّثة؛ واليونانيُّ المتكسب عيشه ذلك اليوم بتسويق بضاعته الفاخرة -ربما تخسر كثيرًا- والمتحدث عدة لغات راكضًا من مجموعة لأخرى لبيع كتل المثلَّجات في يده بزيّه الفرنسيِّ وقبعته المصنوعة من الخوص ووجهه المسفوع، والسقاؤون غير مرتبكين ألبتة بعمامتهم الضخمة، وأكواب البلُّور، وأباريق الخزف الحمراء الأنيقة، والزنجيات يخدمن نساء النخبة حاملات مختلف الأطعمة والمباسم والسجاد، والإجاص الورديّ اللون فوق طاولات الفاكهيّين، وعنب "إِزْمِيْر (İzmir)" الأسود المنضود، والبندق النَّضيد على هيئة أهرامات، والبُرقوق غضّ الأوراق المزين بالأغصان المزهرة،


سلطانية فضيّ، القرن التاسع عشر

وبائعو البطيخ الجالسون بين بضاعتهم الجميلة المنضَّدة، والبطيخ الأَحْوى، والشمام يضوع المسك منه كلما مسّه النسيم متلألئًا كأنه كرة ذهبية... وأزياء أهل المدينة -إذا عنُّوا لنا- تبدو جذَّابة لا سيما في الجانب الآسيويّ، وأصوات الدفوف ذات النغمات، والصوت الرقيق والحادّ للرقصات الشعبية التركية يمتد ويذهب، تحدوه الأصوات عالية النبرة لنحو خمسة يونانيين أو ستة جالسين على هيئة هلال أمام عربة ملأى بالحسان... وعندما يتجمع كل هؤلاء تخرج صورة تامة خاصّة، وإذا جاء أوربّيٌّ إلى قُكْسو فجأة من دون أي استعداد ألبتة، اعتقد أنه سقط في يد ساحر، واعتقد أن ما شاهده يتلاءم مع الحكايات الشرقية المفعمة بالمبالغات" (٧٩).

تُعَدُّ الأضواء إحدى متع النساء العثمانيات لا سيما في الاحتفال بمولد النبيِّ ﷺ أو بالأحداث المتصلة بعائلة السلطان، وإضاءة المتنزهات والحدائق وواجهات المنازل الأمامية على طول ساحل البوسفور للاحتفال بالأيام الخاصة بآلاف المصابيح يشكل زينة رائعة جدًّا، وكانت الحدائق الشخصية تُفتح للجمهور لعرض مناظر الضوء، وكثير من الناس يغد ويروح بالزوارق في مضيق البوسفور ليشاهدوا المناظر، تصف أمينة فؤاد تُوقَايْ الإضاءة في ذكرى ميلاد السلطان أيام طفولتها كما يلي:

"لمَّا كنا أطفالًا كنا نشاهد الجمال في حديقتنا من النوافذ أولًا بإعجاب، ثمَّ نركب زورق أبي ونذهب لرؤية الأضواء في المناظر الأخرى

في مضيق البوسفور، وكان أفراد العائلة جميعًا ينزلون إلى ميناء "مُودَه (Moda)" ويجلسون مع عدة أصدقاء مقربين، وكنا نبادر إلى مشاهدة نشوة الأضواء المتقطعة في جميع أنحاء المدينة، لا سيما خيال قصر "دُولْمَا بَهْجَةْ (Dolmabahçe)" -ذي الواجهة الطويلة المغطاة أيضًا بالأضواء المتلألئة- ساقطًا على الماء، وصفّ القصور المنذثرة الممتدة على شكل حزام من الضوء حتى قصر "جِيرَاغَانْ (Çırağan)"، أمّا حديقة "يِلْدِزْ (Yıldız)" في الجزء الخلفيّ، فكانت تبدو كأنها قطعة من السماء ذات البروج نزلت إلى الأرض؛ وعندما تنهار خطوط المباني ويُمحى الظلام تمامًا، فإن أضواء قصورِ السلطان والمنازلِ الساحلية الكبيرة والحدائقِ الممتدة نحو مياه البحر تضيء صفحة الماء متلألئة من ناحية، وتخالط خلَد السماء فوق التلال أيضًا من جهة أخرى؛ وكاد هذا المشهد يكون بقعة من الجنة، وكنا نعْبُر من "بويوك دره (Büyükdere)" إلى الجانب الآسيويّ غير المأهول بكثرة، أما أضواؤه فكانت تبدو حادّة ساطعة أكثر تُجاه الظلام المخمليّ ليلًا؛ فتمنحنا منظرًا من أجمل المناظر التي شاهدتها، إذا عددنا مضيق البوسفور مكانًا فريدًا من نوعه؛ فذلك لأن المياه الجميلة في ذلك الوقت لم تكن قد فسدت بعد"[٨٠].

ونزهة أخرى يمكن أن نذكرها هنا أيضًا على مضيق البوسفور هي الحفلات الموسيقيّة تحت ضوء القمر صيفًا فقط، عندما يصير القمر بدرًا وينبعث النور الفوسفوريُّ في البحر أثناء الليل في مياه المضيق؛ فتتجمع مئات الزوارق بل آلافها معًا للاستماع إلى الحفلة الموسيقية، متقدمة تجاه ممرٍ بعينه، وتشارك النساء أيضًا في الحفلات التي تأمر الشخصيات العامّة مثل الأمراء والوزراء بتنظيمها في زوارق منفصلة للرجال والنساء، وكان صوت الموسيقا المعزوفة والأغاني المشدوّ بها ينتشر على هيئة موجات من الزوارق المحتفِلة حتى مضيق البوسفور، وكان الزورق أحيانًا يأخذ فترة استراحة أمام بيت من بيوت البحر لأحد المشهورين، ثم يواصل رحلته تحت ضوء القمر، وكانت الحفلة الموسيقية تنتهي مع شروق الشمس.



٣

الجواري في حَرَم الدار العثمانيّ

"لو كنتُ رجلًا مضطرًا أن أعيش خادِمًا للآخرين، لاخترت أن أكون عبدًا لعائلة تركية من دون أيّ تردد، وإذا أمكنني ازدراد تلك اللقمة المرّة؛ إذ لا مندوحة لي عن العبودية، فلتكن لدى عائلة تركيّة؛ فالشخص العثمانيّ يعدّ العبد ابنًا له؛ فبينما كان يقوم بشرائه، كان يتكفل بنفقاته أيضًا؛ إذ يغذيه ويربيه ويحميه ويعاونه، وفي كثير من الأحيان يكُوْن له خزانة أموال لا تنفد، وقلبًا مفعمًا بالحب؛ فيضحي العبد بكلّ آماله ورغباته لخدمة سيده؛ ولسوف تنسى أن الخادم المبتسم لك -وهو يقدّم القهوة ويصب ماء الورد من إناء فضيّ- قد شُري بالمال؛ فتشاهد بإعجاب موقف الخادم وسيده كلّ منهما تُجاه الآخر؛ فبينما يقوم أحدهما بالخدمة مخلصًا جدًّا وفيًّا جدًّا، يكون الآخر بالشكل نفسه لينًا معسول الكلام"[٨١].

جوليا باردُئي ١٨٣٦م



طِست والإبريق، القرن الثامن عشر



الجواري في حَرَم الدار العثمانيّ

اتفق الرحالة الأوربيّون على أنّ نظام الرقِ لدى العثمانيين كان يتشابه مع نظام الرّق لدى الغرب من ناحية الاسم فقط، وكانت هناك أسباب مهمّة لذلك:

أولًا وقبل كل شيء: نظام الرِق لدى العثمانيين لم يكن نظامًا قائمًا على الإجبار على الأعمال الشاقّة في حقول المزارع الكبيرة كما كان يحدث في الغرب؛ فالعبيد من الرجال لدى العثمانيين -بشكل عام- كانوا يُدرَّبون للأغراض العسكرية أو للخدمة داخل المنازل، أمّا النساء فكن يعملن في الخدمة داخل المنازل فقط، والنساء الإفريقيّات كنّ يعملن في طهي الطعام بصفة عامّة، ويقمن بالأعمال المنزلية اليوميّة؛ أما الرقيق الأبيض، فكنّ يقمن بالمهمات الأكثر تخصصًا، مثل: إعداد القهوة وتوزيعها، والعناية بمائدة الطعام، وتربية الأطفال؛ ووفقًا لأقوال النساء الأوربيّات اللائي زرن حَرَم الدار العثمانيّ، فإن كل الرقيق من النساء كنَّ حرائر في قضاء أوقاتهن؛ فيستطعن الحديث والتحرك كما يحلو لهن، وعلاوة على ذلك، فأولئك الرّحّالات قد أوضحن أن مكانة جارية في تركيا "يمكن أن تكون أفضل من مكانة خادمة المنزل في الغرب"[٨٢].

ثانيًا: الرِّق حالة مؤقتة؛ فبينما كانت النساء ذوات البشرة البيضاء مضطرّات إلى أن يكنَّ إماءً تسع سنوات فإن هذه المدة للزنجيات كانت سبع سنوات؛ لأن بنيتهن ليست ملائمة لإقليم أكثر برودة؛ وعندما تُعتق امرأة تُمنح وثيقة عتق سارية من الناحية القانونيّة، ويجوز لها البقاء في منزل سيدها القديم حتى نهاية حياتها، وفي هذه الحالة يُعتنى بها كثيرًا، ويمكنها أن تتزوج بدلًا من ذلك، وعندئذ يُوفَّر لها جواهر، وجهاز، وأثاث لمنزلها، وربما تُمنح منزلًا أيضًا؛ والأَمَة العتيق تحصل على عطاء تقاعديّ من سيّدها السابق بقية حياتها، وعلاوة على ذلك، فإن ارتباطها بالعائلة بوصفها فردًا منها يظل قويًّا جدًّا، وعندما تحتاج شيئًا يُوفَّر لها، والسيدات اللائي كنَّ إماء وترعرعن في حَرَم الدار لدى النخبة كنَّ يتزوجن برجال في حال جيد جدًّا بصفة عامّة؛ فكان الرّق وسيلة للارتقاء في المجتمع العثمانيّ، وعلى أية حال وحسب كلمات أدولفوس سليد (Adolphus Slade): "فكما كانت الهند وسيلة الارتقاء للجنود الإنجليز، فإن الرقَّ كان وسيلة الارتقاء للنساء الشرقيات..."[٨٣].



باب من قصر طوب قابي


عثمان حمدي، العازفات

ثالثًا: لم يكن الرقّ في المجتمع العثمانيّ بالشيء المخجِل المستهان به؛ فبعد القرن الرابع عشر بدأ السلاطين العثمانيون في تحرير الجواري واتخاذهنّ زوجات لهم بدلًا من الحرائر، وفي الواقع فإن معظم السلاطين كانوا أبناء لتلك الجواري، وكانت والدة السلطان أي: أمّ السلطان -المقدّمة على كل النساء في الإمبراطورية العثمانيّة- أَمَة في الأصل، وقطاع كبير من النخبة سواءٌ الجنود أم رجال الإدارة تربَّوا وترعرعوا في مدرسة "الأَنْدَرُونْ (Enderun)" بوصفهم عبيدًا، وزوجاتهم أيضًا رُبّين غالبًا في حَرَم الدار لدى النّخبة العثمانية، أو كنَّ من عتائق السلطانِ أو كبارِ الرجال في الدولة؛ فلم يكن الرقّ بالنسبة للجواري وضعًا يستحقره الآخرون؛ فتعدّ الفتيات المترعرعات إماءً في حَرَم الدار لدى النخبة فرصةً نادرة للطامحين، وعلى أية حال فإنّ هؤلاء الرجال إذا تزوجوا بهنّ، وجدوا فرصة لمدّ سبب لا ينقطع بعائلات النخبة.

ونتيجة لهذه الأحوالِ الاجتماعية، فإنّ كثيرًا من الفتيات دخلن عالم الرقّ راغبات أو آمنت عوائلهن بما سيكون لهنّ من مستقبل مشرق في ظل الرقّ، فقدَّموا بناتهم للرّق في مقابل ثمن معين، وهذه الحالة واضحة خاصّة للفتيات ذوات الأصل القوقازيّ؛ إذ إنّ أولئك مع ذوات الأصل الجورجيّ شكلن الغالبية العظمى من الرقيق الأبيض بدءًا من القرن الثامن عشر، وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما تقوله باردُئي، فإن الفتيان والفتيات جميعًا في القوقاز "كانوا يصرون على الذهاب إلى إسطنبول طريق الطامحين المفتوح للترقي"[٨٤].

ونتيجة لنظام الإقطاع الشائع في القوقاز يتألف من النبلاء والأمراء والعبيد وأبنائهم، باع السادة بعض أبناء العبيد رغبة في الرِّبح، وغاروا على القرى فاستعبدوا بعض أبنائها، وباعوهم للنخَّاسين، وسواء كان الرقّ طوعًا أم كرهًا فإن أبناء العبيد وأسرهم كانوا يعدون الرّق مرحلة مؤقتة ليرتقوا في المجتمع، وها ذي هي إحدى النوادر رواها فاني ديفيز (Fanny Davis) تعبر بشكل جيد جدًّا عن محاولة الأمهات القوقازيات استرقاق بناتهن في حَرَم الدار العثمانيّ بإصرار:

"*كان شقيق السيدة بلنت مسافرًا إلى القوقاز مع صهره بين عام ١٨٥٦م- ١٨٥٧م، لمنع الآباء والأمهات هناك من بيع أطفالهم رقيقًا، وكانا يذهبان إلى هناك ومعهما مختلف أنواع الهدايا والمَلْبن، غير أنها لم تُقبل؛ لأنّ الأمهات عدَدْن ذلك محاولة لمنع بناتهن من الذهاب إلى إسطنبول ومن ترقيتهن، فكنَّ يغضبن جدًّا؛ إذ كان حلمهنّ جميعًا أن تلتحق بناتهن بالقصر، وأن تصبح إحداهنّ الوالده سلطان بعد ذلك*"[٨٥].

من الطبيعيّ أن تكون المعاملة الجيدة للعبيد في حَرَم الدار العثمانيّ باعثًا مهمًّا آخر يوضح رغبة الفتيات وعائلاتهن في الرِّق لدى العثمانيين، وفي الواقع فإن الجواري الصغيرات نُشّئن بوصفهنّ من العائلة بالمعنى التامّ للكلمة، ونشأت علاقات وثيقة جدًّا بين أولئك الفتيات والأسر الراعية لهنَّ؛ فبصفة عامة أُخذن في السادسة أو السابعة، بل في سن الطفولة المبكرة، وجُلبت لهن المراضع، وقد سُمِّيت الأمة الصغيرة في منزلها الجديد اسمًا شاعريًّا جديدًا،

مثل: "دِلْشَادْ (Dilşad)" أي: التي تسرّ القلب، أو "دِلْرُبَا (Dilruba)" أي: التي تسلب الفؤاد، وكانت تأكل من طعام الأسرة، وتلبس ملابس شبيهة بما تلبسها العائلة، وتتلقى أرقى انواع التربية العثمانية، وقبل أن تنتقل إلى خدمة أفراد الأسرة تتدرب على خدمة الجاريات الأكبر منها سنا، وتلقين تعليمًا خاصًا في العلوم الإسلاميَّة الأساسيَّة والعبادات إلى جانب تعليمهنَّ الحوار باللغة بالتركية وكيفية كتابتها، فضلًا عن تعليمهن الحياكة، وتطريز النقوش أيضًا، وإذا كان لديهنَّ ملكة موسيقيَّة، تدربن على عزْف العود أو الرقص أو الغناء، وإذا كان لديهنَّ أية مهارة أخرى خاصَّة فعلت الأسرة كلّ شيء لتنميتها، ويُتخذ بعضهنَّ مرافقات لفتيات الأسرة؛ فيتلقين التعليم نفسه مثل أفراد الأسرة، وبعضهن تعلمن قراءة اللغات الفارسية والعربية، والإنجليزية والفرنسية في القرون الأخيرة، وبعضهن نُشّئن ليصبحن مربّيات لأطفال الأسرة؛ وبصفة عامّة فإن الجواري تعلمن كل فنون السلوك والثقافات مثل الحرائر، ويعلّق فريمن على مصير الجواري بما يلي:

"لا يمكن عدُّ الرق المعهود في ظلّ الأحوال المذكورة أعلاه من سوء الحظ؛ فالإماء الصغيرات يعشن في راحة واطمئنان، وغالبًا ما كن ينعمن بحياة مرفهة ناعمة؛ فلم تكن واجباتهن شاقَّة، ويمكننا القول باختصار: كنَّ ينتقلن إلى الحضارة"[٨٦].

كانت الجواري يُزوجن بالرجال العثمانيين بعد الانتهاء من الفترة اللازمة للخدمة بوصفهن إماء، وفي بعض الأحيان يُعتقن قبل إتمام المدة؛ لأنّ تحرير الرقاب يعدُّ عبادة تحمل قيمة كبيرة في الإسلام، وفي كلتا الحالتين أيضًا فإن تلك الفتيات كنَّ يتزوجن زواجًا جيدًا، وكن يُفضَّلن على غيرهن بجمالهن وفتنتهن وثقافتهن؛ فتزوج معظمهن أبناءُ العوائل اللاتي ترعرعن فيها، وبالإضافة إلى ذلك كان فيهنّ من يتزوجهن رجالٌ ينتمون إلى الطبقة الحاكمة العثمانيَّة من العتقاء، وكان بعض الرجال يفضلون الزواج بالإماء أو بالعتائق؛ لأن تكاليف هذا الزواج أقلّ بكثير من نفقات الزواج بالحرائر العثمانيَّات من الطبقة الحاكمة، حتى إن النخَّاسات العتائق اشترين الفتيات في سنٍّ مبكرة جدًّا، وزيّنَّهنَّ إلى سنّ الزواج ثم بعنَهنَّ بأسعار باهظة جدًّا، وكانت مهمة العثور على أزواج للجواري تُلقى على عاتق سيدة المنزل، فتقوم بأدائها بعناية شديدة، وكان تقديم الأمة عروسًا للأماكن الجيّدة يعد وسيلة مشرفة لها أيضًا، وكانت الأسرة -مخدومة الجارية- تقدم لها جهازها، والأمتعة المنزلية، ومنزلها في كثير من الأحيان، وذكرت أمينة فؤاد تُوقَايْ أنّ جدّتها أعتقت عبدها ومنحته منزليْن وزوّجته[٨٧]، وتصف ليلى سَازْ الأمتعة في جهاز إحدى الجواري في القرن التاسع عشر بصفة عامّة على النحو التالي:

"إلى جانب الهدايا الصغيرة المقدمة للجواري خلال سنوات الرقّ مُنحن أيضًا المقتنيات الثمينة، مثل: الجواهر والأقراط والخواتم الماسيَّة والساعات الذهبيَّة وأطباق الفناجين الفضيَّة وأطقم القهوة، وقدمت لهنَّ كلّ الأمتعة

اللازمة لتأثيث المنزل مع الملاعق الظريفة الصغيرة المصنوعة من قرن وحيد القرن والعاج حتى من ظهر السلحفاة، وكان ثراء الجهاز يتغير تبعًا لثراء السيدة ومنزلة الأَمَة في المنزل، واشترى كثير من السادة منزلًا للأَمَة عند تزويجها، حتى إنّ كثيرًا من الإماء المترعرعات في أحوال جيّدة دعون يومئذ بالخير لسادتهنّ، ولم يخجلن أنهنّ إماء غادرن المنزل بجهاز وأمتعة"[٨٨].

وكانت صلة الأمة بالعائلة العثمانيّة تستمر طَوال حياتها وبعد وفاتها، وكانت الأسرة في كثير من الأحيان تساعد أطفال الأمة أيضًا، وفي بعض الحالات كانت الإماء يرغبن في البقاء مع العائلة المخدومة بدلًا من الزواج، وفي هذه الحالة يُعتني بهن حتى نهاية حياتهن، وعلى سبيل المثال: فإن مربية شقيقة ليلى سَازْ رفضت ترك العائلة، ومزقت وثيقة عتقها بيديها، وربَّت أبناء أخت ليلى، وتوفيت وهي معهم عن عمر يناهز الستين[٨٩].

كان الرق في الإمبراطوريّة العثمانيّة منظمًا بإحكام من قِبَل الشريعة التي حدَّدت حقوق العبد وواجباته بوضوح؛ بعد شراء الجارية تُعامل كأنها فرد من أفراد الأسرة، فمن المحال أن يُترك العبد على حاله في الخارج، وإذا وضعت الجارية طفلًا من سيدها تحمل بموجب القانون صفة "أمّ الولد"؛ فلا يمكن بيعها، ولا يمكن منحها لآخر، وتصبح حرّة عند وفاة سيدها لو لم تُعتق من قبل.

وبعد إقرار الأب بالطفل -وكذلك يفعلون عادة- يُعدّ هذا الطفل ابنًا شرعيًا حرًّا، ويحصل على الميراث نفسه مثل غيره من إخوته أبناء الحرائر؛ أما الأمّ فتُزوّج بسيدها عامَّة، أو يتزوجها شخص آخر، ويقدَّم لها الجهاز.[٩٠]

وإذا رفض العبيد مقامهم لدى السيد، فلهم أن يطلبوا بيعهم من جديد، استنادًا إلى القانون الذي يعد أساسًا في هذا الصدد، فإذا رفض السيد هذا الطلب فله أن يَهْرُب، إلا أنه لن يحصل على حريته إلا بعد انتهاء مدة الرقّ الإجباريَّة، وعلى الآبِق أنْ يراجع أحد النخَّاسين، ليبيعه لشخص جديد، ويخبر سيده القديم أيضًا بحالته.

وكان كثير من الأوربِيّين قد تحدث خاصَّة عن رعاية السادة والسيدات العثمانيين وحبهم للرقيق، وتقدم أمينة فؤاد تُوقَايْ نموذجًا لهذه المعاملة المفعمة بالحب والاهتمام بحديثها عن إحدى جواري جدها خِدِيوي مصر، ووفقًا لما قالته، فقد كانت الأَمَة كثيرًا ما تشكو من مرضها، فيُستدعى طبيب القصر -وهو أحد الباشوات- للمنزل في كل مرة، ولاحظت جارية أخرى عجوز أن الفتاة الشابة تبالغ أكثر مما ينبغي، وأن الطبيب قد أمسك بمعصم الفتاة فترة أطول من المعتاد، وعند استجوابهما تبين أنهما حبيبان، فتزوجها، ومُنحت ثلاثة عشر ألف فدَّان من الأراضي إضافة إلى الجواهر والجهاز الاعتياديّ، وأُرسلت عربة يجرّها حصان إلى منزل العروسين الجديدين هدية أخرى أيضًا من سيدها.[٩١]

وهناك حادثتان مسجلتان تشيران إلى أن الجواري كان بمقدورهن الامتناع عن أي شيء لا يرغبن فيه حتى علاقة السلطان، تحكي أولاهما جوليا باردُئي، وكانت باردُئي قد تعرفت هي نفسها إلى جارية تدعى ''نازيب (Nazip)'' قد رفضت طلب السلطان محمود الثاني أن تكون من حظاياه، وتصف هذا الحدث على النحو التالي:

''كان جمال جواري ''أسماء سلطان''؛ -شقيقة السلطان محمود الثاني- تلهج به ألسنة الناس في العاصمة العثمانيَّة، وكان حضرة السلطان قد طلب نازيب خاتون ثلاث مرات، ولكنها رفضته في جميعها، وعندما رفضته في المرة الأولى، عدّ السلطان ذلك دلالًا ونَزَقًا لجميلة عنيدة، حتى إنه تنازل أيضًا ونصحها بود ولكن النصيحة لم تؤثر ألبتة فيها، وباء الطلب الثاني والثالث بالنتيجة نفسها، ووجد ''شقيق الشمس'' و''حاكم العالم'' -أولّ مرّة في حياته- نفسَه في موقف لم يعره فيه أحد اهتمامًا، وكان ذلك من فتاة عاديَّة أيضًا''[٩٢].



صورة ابنة السلطان عبدالحميد الثاني عائشة مع أمها السيدة مشفقة

أما الثانية الشبيهة بالأولى، فقد حكتها شَادِيَة سلطان ابنة السلطان عبد الحميد الثاني، ووفقًا لما روته شادية سلطان، كان والدها قد تعلق قلبه بجارية جميلة جورجيَّة من جواري القصر، فجاملها كثيرًا وبالغ في اهتمامه بها، ولكنها رفضت توسّله خمس سنوات، وعندما مثلت بين يديه لتقديم فروض الطاعة في أحد الأعياد، سألها -بعد أن أبدى إعجابه بجمالها- هل ستستمر في عنادها؟ فأجابت: ''يا مولاي أنا على استعداد للتضحية بحياتي فداء لك، ولا أستطيع أن أفارقك أبدًا، ولكن لو وهبت لي العالم، فلن أكون حظية لك؛ لأن زوجي يجب أن يكون لي فقط، أي: أتمناه لي وحدي، وإلا فإنني لن أتزوج أبدًا''، وتقبَّل السلطان -الذي لم تتحقق رغبته في الجميلة الجورجيَّة- ردَّها على مضض، واشترى لها منزلًا وأثَّثه، ثم زوجها برجل متدين يبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا[٩٣].

الجواري في حَرَم القصر

على ما يبدو فإن الجواري في حَرَم المنازل العثمانيّة قد جُلبن لخدمة العائلة في المقام الأول، وبعضهن كنّ حظايا، وكان هذا الدور مهمًّا جدًّا في حَرَم القصر، وبحلول نهاية القرن الرابع عشر لعب نظام الحظية دورًا أكثر أهمية في استمرار نسل السلطان[٩٤]، وكانت هناك جوارٍ للسلطان فيما سلف لدى النُّخب الإسلامية الحاكمة مثل العباسيين، ولكن نظام الجواري بوصفه سياسة للأسر الحاكمة -من أجل استمرار السلالة- كان له أهمية أكبر لدى العثمانيين.



سلطان عبد الحميد الثاني
(١٨٤٢م-١٩١٨م)

فوجود جوارٍ لدى السلطان يحقِّق كثيرًا من الفوائد للسلالة الحاكمة العثمانية:

أولها: امتلاك السلطان جواريَ ليس لديهن ولاء لأي شخص قطّ سواه، بدلًا من اتخاذ زوجات تنسب لعائلات عريقة يمكنها أن تتحداه يومًا ما، وقد نفذت السياسة نفسها أيضًا عند اختيار نخبة الجيش ورجال الإدارة من العبيد المخلصين ذوي التدريب الجيد أيضًا، أو من العتقاء.

ثانيًا: تنفيذ السياسة القاضية بأن تلد زوجة السلطان ابنًا واحدًا فقط؛ إذ يجب عليها تكريس وقتها لتعليم ابنها ورعايته بوصفها أُمًّا ومرشدة له، وفي الحقيقة ما كان ممكنًا قانونيًّا إجبار امرأة مسلمة حرّة على الاكتفاء بابن واحد فقط.

ثالثًا: عدم ربط استمرار الأسرة العثمانية بأطفال امرأة واحدة فقط يكون أكثر منطقيّة لأسباب، مثل: كثرة وفيات الرضع، والمرض، وفقد الأبناء في الحرب[٩٥].

ورغم أن الجواري لعبن دورًا أكثر أهمية في استمرار السلالة الحاكمة العثمانيّة إلا أن طموح معظم الجواري في حَرَم القصر أن يصبحن زوجات للسلطان كان خطأً أيضًا، وفي الواقع فإن ١٠٪ فقط[٩٦] من الجواري كنّ حظايا أو زوجات، ويشمل هذا العدد حظايا الأمراء في القصر، وتُختار


Lewis

الزوجات من الجواري المختارات بعناية في أعلى قمة لنظام التعليم في القصر، المتقدمات ذكاءً وشخصيةً ومهارةً وجمالًا؛ والزوجات أو الحظايا بصفة عامة كنَّ يتلقين تدريبًا من أمّ السلطان نفسها، إلا أن تكون الزوجة مهداة من أحد الأفراد في عائلة السلطان أو أحد الكبار في رجال الدولة؛ أما الجواري الأخريات في حَرَم القصر فكنَّ يترقين حتى منصب مديرات لمؤسسة الحَرَم، وكنّ يعقدن العزم على أن يحققن مكانة دائمًا لهنّ، أو يُعتقن، وكن يأملن في الزواج بأحد أفراد النخبة من الجيش أو الطبقة الحاكمة، وبعد زواجٍ هكذا كنَّ يُدرن حَرَم الدار، وتتغير أحوالهن تبعًا لمكانة أزواجهن.

وكان حَرَم القصر إلى جانب كونه مكانًا تعيش فيه عائلة السلطان يُعدّ مؤسسة تتعلم فيها النساء ليصبحن جزءًا من عائلة السلطان، وخادمات للأسرة، ومديرات لشؤون الحياة اليومية في حَرَم القصر، وليصبحن زوجات للنخبة العثمانية، وكانت قواعد السلوك الواجبة تتبع دائمًا في حَرَم القصر، وتنفذ الأنشطة جميعًا وَفقًا لها، حتى السلطان نفسه كان مقيدًا بتلك القواعد، وعلى سبيل المثال كان لزامًا عليه أن يستقبل زوجاته تبعًا للدور الذي لا يخطئ أبدًا، وهكذا فإن الزوجة لا تفقد دورها إن كانت مريضة إلا أن يؤذن لها، وكانت قاعدة الصمت المُطْبَق حول جناح السلطان الخاصّ منفَّذة، حتى إن بعض الغربيّين شبهوا حَرَم القصر بالدَّير بسبب ذلك، وقد ذكر فرانسوا بتيس دو لا كروا (François Petis de laCroix) في ١٦٩٥م التعليقات التالية حول الصمت الشديد في قصر الحَرَم:

"أخي الحبيب، بإمكاني أن أشبع فضولك أكثر من أي شخص بشأن قصور الحكام العثمانيّين، فقد كان لديّ ما يكفي من الوقت لمراقبة جمال ذلك المكان ونمط الحياة والانضباط فيه؛ لأني مكثت فيه أكثر من عشرين عامًا، فليس صعبًا قطعًا تصديق ما تمخّض عنه خيال كثير من الرحالين الأجانب عن ذلك المكان -وترجم معظمه أيضًا إلى لغتنا- وأنّ ذلك القصر قد امتلأ بالسحر والتعويذات، وفي الحقيقة فإن جمال هذا المكان يكمن في نظامه المراعَى عند دخوله، فهو بمنزلة تدريب لمن نُذروا لخدمة أصحاب السلطة هناك"(٩٧).







الفنجان المطرز بالمجوهرات، القرن السادس عشر

كان نظاما الحرم والفناء الثالث للقصر، أي: مكان العبيد والخدم من الأغوات والغلمان القائمين بالخدمة الشخصيّة للسلطان يشبه كلٌّ منهما الآخر، وكان حال الجواري يشبه كذلك حال العبيد من حيث الرتب التي يحصلن عليها والمناصب التي يعتلينها، وعلى سبيل المثال: بينما كان الأجر اليومي للإماء المقيمات في قصر "طوپ قاپي (Topkapı)" يبلغ ٨,٧ آقْجَه في عام ١٦٥٢م، كان الأجر اليوميّ لتلميذ يبلغ ٨,٥ آقْجَه عام ١٦٦٤م[٩٨].

وعندما جُلبت فتيات رقيقًا جديدًا إلى القصر خضعن لتدريب شامل جدًّا من قِبَل الجواري الأكبر سنًّا أو من قبل مدرسين خصوصيين جُلبوا للقصر، وعُلِّمن العقائد الإسلامية الأساسية والعبادات وقراءة القرآن الكريم أيضًا، وكانت الدروس تُلقى باللغة التركيّة، وجميع الفتيات تعلمن القراءة والتحدث باللغة التركية، حتى إن بعضهن تعلمن الكتابة، ولا سيما أن زوجات السلطان كلهنَّ يعرفن الكتابة، وكانت في غرفة كل منهن مكتبة[٩٩]، وعُلِّمت القادمات الجديدات الخياطة والتطريز أيضًا، وكانت النساء في القصر يقضين وقت فراغهن بالتطريز، وكنَّ يتلقين دروسًا خاصة بالطقوس والعادات وقواعد السلوك المهذَّب، وبصفة عامة فقد سيطر على القاعات في حَرَم القصر مناخ نظام واجتهاد وعمل، أي: يمكن أن يقال أيضًا: إن هذا المكان كان بمنزلة مدرسة للدماثة والتهذيب؛ لأن الجواري الشواب كنَّ يتعلمن داخل عائلة السلطان كلَّ المهارات والخبرة اللازمة لهن في المستقبل بين النخبة العثمانيّة.

٤

النساء العثمانيات في حَرَم القصر

"أصبح القصر الداخليّ بمنزلة مركز للحكومة بمرور الوقت بدءًا من عهد سليمان القانونيّ؛ إذ أصبح المقيمون فيه -أي الغلمان ورؤساء دائرة الحَرَم وأم السلطان والخاصَكِي وموظفو الحَرَم والحراس من أغوات الحَرَم الزنوج- ذوي تأثير رسميّ وغير رسميّ على قرارات السلطان، وكانت صواحب المقام الرفيع بحَرَم القصر يعشن وسط حياة سياسيَّة بالمعنى التامّ، وفي جانب منعزل عن الأنشطة المنفتحة على العامّة"[١٠٠].

ليسيل بيرس (Leslie Pierce) مؤلفة كتاب "The Imperial Harem"



Hilair، نزهة سيدات الحرم ١٧٩٧م





تجويف في الجدران، حجرة خاصة للسلطان أحمد، متحف قصر ''طُوبْ قَابِي''

وكان هناك تسلسل هرميّ صارم جدًّا من ناحية المركز والقوة بين النساء في حَرَم القصر، وكانت الوالدة أي: "والده سلطان" (Valide Sultan) على قمة الهرم في هذا التسلسل؛ فكانت لها السلطة المطلقة على حَرَم القصر، تتمتع باحترام كبير جدًّا سواء داخل القصر أم خارجه، ذات كلمة مسموعة في الشؤون كلها، تليها مباشرة جواري السلطان، غير أن هؤلاء كنَّ تابعات لتسلسل هرميّ فيما بينهن، يتغير موقعهن تبعًا لقربهن من السلطان، وأطلق على المرأة الأولى التي يختارها السلطان بَاشْ قَادِينْ سلطان (Başkadın Sultan)، أي: (السيدة الأولى)، بينما لقبت الأخريات بلقب: (السيدة الثانية) و(السيدة الثالثة) و(السيدة الرابعة) على التوالي، فغالبًا كانت هناك مرتبة للإماء ومنزلة اجتماعيَّة على غرارها لدى زوجات السلطان تمامًا رغم أنهن لسن كذلك قانونيًا، أما عدد الزوجات بصفة عامة، فكان لا يتجاوز الأربع، فوفقًا للشريعة يمكن للرجل أن يتزوج أربع زوجات فقط، وبعد أولئك الأربع (قَادِينْلَرْ/Kadınlar) يأتي دور الحظايا المعروفات باسم ''إِقْبَالْ (İkbal)''، والمرتَّبات تبعًا لمكانتهن أيضًا، وعند وفاة إحداهن تحتل تاليتها مكانتها؛ وأمّا أعلى مرتبة غير تلك المراتب فهي لبنات السلطان باسم ''سلطانة''، وبعد الأميرات تأتي مرضعة السلطان (دَايَة خَاتُون/Dâye Hatun)، وتليها (كَتْخُدَا خَاتُون/Kethüda Hatun) أرقى درجة بين المديرات في حَرَم القصر، يأتي بعدها في الدرجة الموظفات داخل قسم الحَرَم، وفي النهاية الجواري القائمات بالخدمة اليوميَّة، و٩٠٪ من الجواري في حَرَم القصر يقمن بالخدمة فقط، ولم يكن لهن أية علاقة مباشرة بالسلطان ألبتة[١٠١].

والده سلطان

عند اعتلاء سلطان جديد العرش تُوجَّه دعوة إلى والدته في القصر القديم حيث جواري السلطان المتقاعد، فتصل إلى قصر ''طُوبْ قَابِي'' في موكب احتفاليّ؛ إذ ينتظرها ابنها السلطان هناك، ومعه النخبة من الطبقة العسكريَّة بكاملها، وهذا يشير إلى مدى علوّ منزلتها، فيتجلى في النصّ أسفله إلى أي مدى كان السلاطين يحترمون أمهاتهم؛ فها هو سليم الثالث يستقبل والدته ''مِهْرِشاهْ (Mihrişah)'' -التي جاءت إلى القصر مع موكب والدة السلطان- واقفًا منحنيًا أمامها، وكان هذا تشريفًا لا ينبغي لغيرها في الإمبراطوريَّة؛ وقد وُصف موكب والدة السلطان المنظَّم لها بمشاركة ثمانين إلى مائة عربة على النحو التالي:

''كان في المقدِّمة رؤساء المراسم في الديوان بعمائمهم المجدولة، وخلفهم ولاة الحرَمين الشريفين، وخلفهم مباشرة محمود بك (كتخدا الوالده سلطان) يستند على عصا في يده، مرتديًا فرو السمور ذا الأكمام الواسعة، وخلفه يسير

(بَالْتَاجِيلَرْ/Baltacılar)[١٠٢] وآغا "باب السعادة" بعمامته المجدولة، وخلفهم جميعًا "والده سلطان" بعربتها ذات الستائر وستّة الجياد- ناثرةً النقود المعدنية اللامعة خلفها، ويتبعها العبيد وجواري السلطان إلى القصر الجديد.

"دخل موكب "والده سلطان" باب السلطان، ووصل أمام فرن القصر، واستقبل السلطان سليم والدته وحيّاها ثلاثًا، مقبِّلًا يدها من نافذة العربة، ثم اصطحبها إلى حَرَم القصر"[١٠٣].

لم تكن "والده سلطان" أمًّا له فحسب، بل أيضًا مربية، ومعلمة، ومؤتمنة على أسراره، وأكبر حليف له، وحصنَه، ونائبته إذا اقتضى الأمر؛ فكان استمرار الارتباط بين الأمير ووالدته عندما يصبح سلطانًا طبيعيًا جدًّا، وفي الواقع فإن كثيرًا من والدات السلاطين كان لهن تأثير قويّ على أبنائهن.

كانت كلٌّ من كُلْبَهَارْ سلطان (Gülbahar Sultan) (والدة بايزيد الثاني)، وحفصة سلطان (والدة سليمان القانوني)، ونُورْبَانُو سلطان (والدة مراد الثالث)، وصفيّة سلطان (والدة محمد الثالث)، كُولْنُوشْ (Gülnuş) سلطان (والدة مصطفى الثاني وأحمد الثالث)، ومِهْرِشَاهْ سلطان (والدة سليم الثالث)، وبَزْمِ عَالَم (Bezm-i Âlem) سلطان (والدة عبد المجيد)، والداتٍ لسلاطين انعكست إرادتهن الخاصة على شؤون الدولة[١٠٤]، ومن أقوى السلطانات "والده سلطان" كُوسَمْ سلطان (ت. ١٦٥١م) والدة مراد الرابع، الذي اعتلى العرش في الثانية عشرة من عمره، وهي أصلًا ابنة كاهن يونانيّ، انتقلت بعد وفاته إلى حوزة الوالي العثماني في البوسنة، فألحقها بحَرَم القصر، وظلت مسيطرة على شؤون الدولة طيلة عشر سنوات، حتى إنهم كانوا ينتقدونها لأساليبها القمعيّة، وعندما رفضت كُوسَمْ سلطان (Kösem) التنازل عن سلطتها للسلطانة طُورْخَانْ (Turhan) بعد اعتلاء ابنها محمد الرابع ابن السابعة العرشَ وهو حفيدها هي أيضًا، كان عنادها سببًا في أحداث دمويّة؛ إذ رغبت في خلع محمد الرابع وتنصيب حفيدٍ آخرَ أمُّه على وِفاق معها، لكن طُورْخَانْ سلطان علمت بهذا المكر، فأبلغت رئيس القسم في دائرة حَرَم القصر، فقام بهجوم وقائيّ، وقتل كُوسَمْ سلطان[١٠٥].

وكانت العلاقة الوثيقة المحتومة بين الأمّ والابن في السلالة الحاكمة العثمانيّة تستمر حتى يفرق بينهما الموت، والنص الآتي الخاصّ بطقوس جنازة نُورْبَانُو سلطان (Nurbanu) أمّ مراد الثالث تبين بشكل لطيف جدًّا مدى عمق الرابطة بينهما:

"على غير العادة القاضية ببقاء السلطان في القصر خلال أيّة جنازة، رافق مراد باكيًا نعشَ والدته إلى جامع الفاتح للصلاة عليها، وربما كان اختيار جامع السلاطين -رغم أنه في أبعد مكان عن القصر- لأداء صلاة الجنازة هو إتاحة الفرصة أمام كثير من الناس على طول الطريق للدعاء لـ" نُورْبَانُو سلطان"، واطلاعهم على تدين القصر، وابداء الاحترام الذي يظهره سكان العاصمة تجاهها. ووفقًا لما يقوله المؤرخ سَلانكي (Selanki) فقد أتى الناس أفواجًا إلى

الجامع، وكان كبار رجال الدولة والعلماء يزورون قبر "والده سلطان" أربعين يومًا يُتلى أثناءها القرآن الكريم دائمًا على القبر"[١٠٦].

رئيس حَرَم القصر

كان هناك عطاء يوميّ من الخزينة السلطانيّة لجميع النساء في حَرَم القصر، أعلاه قاطبة ما يدفع للسلطانة الأمّ[١٠٧]، حتى إنه في بعض الأحيان كان يتجاوز ثلاثة أضعاف ما خصّصه السلطان؛ فدلّ ذلك على الأهمية الفائقة لوالدة السلطان، وكان جناحها الشخصيّ عظيمًا إلى أقصى درجة، أوسع جناح في حَرَم القصر، به غرفة معيشة، وغرفة للطعام، وغرفة للنوم، وحمام، ومطبخ، ومخزن للمؤن.

كانت غرف النساء رفيعات المقام في حَرَم القصر -لا سيما والدة السلطان- مؤثثة بأغلى المفروشات الأنيقة، ويشمل ذلك بصفة عامّة الجواهر الثمينة والعناصر الفاخرة المتاحة وقتئذ، وكانت الأرضيّات تُفرش صيفًا بالحُصُر المصريّة، وشتاءً بالسجاد الإيرانيّ، وكانت الثريّات البلُّوريّة تتدلى من السقف، والمشامع الذهبيّة والفضيّة على الجدران، والوسائد من الأنسجة الغالية على الجدران وفوق الأرائك للاتكاء عليها، والستائر المخمليّة ذات الألوان الجذابة معلقة على الأبواب والنوافذ، وفي الداخل الأوعية البلُّوريّة، والذهبيّة، والفضيّة، جُلبت من مختلف بقاع العالم، والزهور داخل الزهريّات الخزفيّة الأنيقة في كل أرجاء الغرف والأبهاء، وكانت كل الأبواب والمكتبات والأرفف يدويّة الصنع، وقد حفرت عليها النقوش الرقيقة الدقيقة مرصعة غالبًا بالصدف[١٠٨]، وكانت معظم الغرف في قصر "طُوبْ قَابِي"، و"دُولْمَا بَاهْجَه" و"جِيرَاغَانْ (Çırağan)" التي تطل على ساحل البوسفور رائعة المنظر، وموقع "والده سلطان" -بين مكان السلطان والأمراء من ناحية، ومكان إقامة الجواري من ناحية أخرى- يسمح لها بمراقبة قسم العائلة وقسم الخدمة أيضًا.

وكانت الأنشطة كلها في حَرَم القصر -بأوامر والدة السلطان- مدعومة بفريق كبير يعاونها في الإدارة من خلال "كَتْخُدَا أُسْطَى (Kethüda Usta)" و"خَزْنَدَارْ أُسْطَى (Haznedar Usta)" (أي: كبير أمناء الخزينة)، وعامّة كانت والدة السلطان تقوم بالدور الأنثويّ الأهمّ في كل طقوس القصر والاحتفالات؛ وتشارك أيضًا في صلاة الجمعة، وتخطط لنقل الحَرَم من قصر إلى آخر تبعًا لفصول السنة، وتشرف على كل الأنشطة والجولات الخارجيّة للمقيمات في حَرَم القصر، وبما أنّ إدارة الشؤون الخارجية والأملاك لأمين الخزانة؛ كانت والدة السلطان تنعم عليه بمعطف من الفرو وخنجر مكافأة له وتقديرًا لمكانته العالية، وكان سكان حَرَم القصر جميعًا يظهرون احترامًا كبيرًا لوالدة السلطان؛ فلا يتجاسر أحد على الوقوف في وجهها.

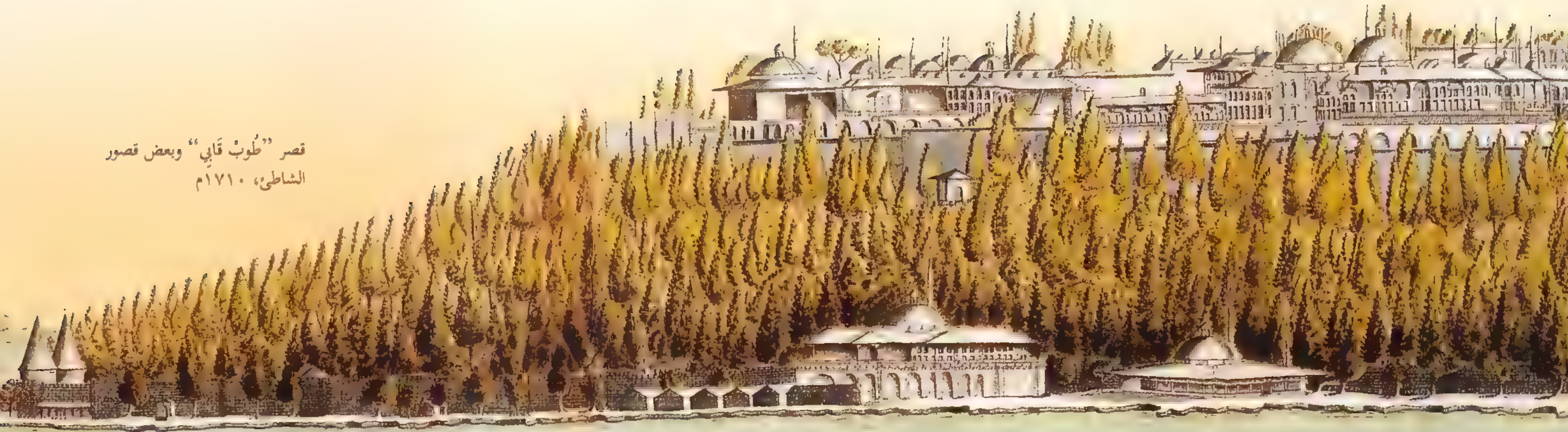


دور الأمّ

لم تقتصر مهمة أمّ السلطان على إدارة حَرَم القصر، بل كانت رأس السلالة العثمانيّة أيضًا، وممثلة لهم في الاحتفالات العامّة والطقوس، مثل: حفلات الزفاف في القصر، واحتفالات الختان، بوصفها أهمّ شخصية وأكبرها في فِعَاليّات القصر، مثل: ولادة أطفال السلطان، وزيارة الأماكن المقدسة مرة واحدة في السنة، والاحتفالات الدينيّة، وغير ذلك؛ فمثلًا من عادات العائلة السلطانيّة أن تزور البردة الشريفة في قصر "طُوبْ قَابِي" اليوم الخامس عشر من رمضان كلّ عام، وعندما تزاح الأبواب عن بردة النبيّ ﷺ تكون والدة السلطان أُوْلى السيدات هناك، وبعدها تتوالى الأخريات على زيارة الأمانة المقدسة، وأمام البردة الشريفة في أجواء مفعمة بروائح البخور، وعلى تلاوة قرآنية مباركة،



Pasini، جزء من الحَرَم، ١٨٧٧م



قصر "طُوبْ قَابِي" وبعض قصور الشاطئ، ١٧١٠م

تتقدم النساء جميعًا منحنيات الأولى فالأولى أمام البردة الشريفة، ويحيين السلطان أيضًا قبل الخروج، وكان السلطان يهدي والدته منديلًا مطرَّزًا بآية قرآنيَّة أو بيت شعريّ بعد زيارته الأمانة المقدسة[١٠٩].

وتُعدّ مشاركة نُورْبَانُو والدة السلطان في حفل ختان محمد ابن السلطان مراد مثالًا أيضًا لدور والدة السلطان رأس العائلة السلطانيَّة؛ إذ كانت الاحتفالات والطقوس في القصر عام ١٥٨٢م ثمانية وثلاثين يومًا، وفي أحد مباني القصر في ميدان "آتْ (At)" أنشئ مبنى يُشْرِف على كل الأرجاء في يسر وسهولة للترفيه بهدف حضور نساء العائلة السلطانيَّة هذه الاحتفالات من دون أن يشاهدهن أحد من الشعب، ويوم الختان قُدِّم لوالدة السلطان مبضع ختان حفيدها، فقدمت كثيرًا من الهدايا الثمينة وثلاثة آلاف قطعة من الذهب للجرَّاح الخاتن[١١٠].

ويمكننا أن نتبين بسهولة أيضًا هذه المكانة القوية لأمّ السلطان رأس السلالة الحاكمة من حاشيتها العظيمة الكثيرة أثناء عودتها إلى إسطنبول عام ١٦٦٨م بعد زيارة القصر في "أَدِرْنَه" من العواصم العثمانيَّة القديمة، حكى التفاصيل تاجر جواهر فرنسيّ شاهد هو نفسه مرور موكب والدة السلطان مستغرقًا ثلاث ساعات على النحو التالي:

"دخل المدينة أولًا مئتا فارس بصحبة آغا "أمين الأسلحة"، وأعقبتهم حاشية لنائب الصدر الأعظم، خلفهم أربع مئة فارس من فرسان القصر، وقد ارتدوا جميعًا رداءً قصيرًا من الحرير الخشن، ودرعًا من الزَّرَد الدقيق، حاملين جعابًا من القطيفة الحمراء مشغولة بالحرير الذهبيّ، وسهامهم وكنائنهم مصنوعة من العناصر نفسها، وقد صنعت أطقم الجياد من أفضل أنواع الأنسجة الصفراء والحمراء والبنفسجيَّة، وقد تزين أعلاها بسلاسل فضيَّة؛ وخلفهم مباشرة رئيس الفرسان، وقد تقلنس بقَلَنْسُوة ذات عمامة تعلو مترًا تقريبًا، وخلفه ستة من الخدم، يتبعهم مجموعة من الإنكشارية

مع قادتهم، والأجراس على ملابسهم، مرتدين قبعات تغطي الأذنين، وفي أيديهم الصولجانات الفضيَّة، يليهم نائب الصدر الأعظم قائدًا لثلاث مئة من موظفي التشريفات بملابسهم الجذابة ومئة من الحرس حاملي الرايات، ويلي رجال الوزير عمال الحدائق في القصور من خمس مئة إلى ست مئة، ويسير وراءهم ممثلو الشؤون الدينيّة، ومن بينهم مئتان من القضاة -في نظام لا يعرف الخطأ- بزيهم التقليديّ متنعلين أحذية سوداء مصنوعة من الجلد المغربيّ، ومعمَّمين بعمائم كبيرة، ونحو ستين من السادة ذوي العمائم الخضراء وموظفان يمثلان المفتي لابَسين زيًّا أبيض.

وفي نهاية الموكب آغا "أمين الأسلحة" مترئسًا حاشية "والده سلطان"، ممتطيًا جوادًا مطهَّمًا مزيّنًا بالذهب واللؤلؤ، وخلفه خمسون جوادًا بأطقم عظيمة، يقود كلًّا منها سائس مترجّل؛ وكانت عربات النساء مصحوبة بمجموعة من أغوات الخدم الزنوج مرتدين المزركشات، ويجر عربة طُورْخَانْ سلطان ستة جياد، محاطة بستة حراس برماحهم المعلقة في ذيول الخيل الحمراء دلالة على قوة السلطان، أما العربة الثانية فمن المتوقع أنها تُقلّ كُولْنُوشْ خَاصكِي سلطان، يرافقها عدة باشوات، وغُطّيت العربتان بأقفاص صغيرة وأمامها أغوات الخدم الزنوج، ورغم أن هذه العربات لا تسمح برؤية النساء بأيّ شكل ألبتة عندما ينظرن إلى الخارج، إلا أنه كان محظورًا على الحشد المشاهد للموكب النظر إليها، وخلف هاتين العربتين اثنتا عشرة عربة تحمل خادمات الحَرَم، يتبعها أربع عربات نقل عليها الثلج والموادّ الغذائيَّة وعدد من الهوادج"[111].

الأعمال الخيرية

كانت هناك أهمية كبيرة لقيام "والده سلطان" بالأعمال الخيريَّة ورعاية الأبنية الأثريَّة الشهيرة في موقعها، وقد لعبت والدات السلاطين دورًا مهمًّا جدًّا في بناء الأبنية المفيدة للأهالي، مثل: ملحقات الجوامع، والمستشفيات، والحمَّامات العامَّة، وأماكن توزيع الأطعمة للفقراء، والمدارس، والمكتبات، والينابيع، ولم تكتفِ بذلك، بل أسست صناديق التبرعات لمواجهة نفقات الصيانة لهذه الأبنية ورواتب العاملين بها، وبالطبع كان الحال يقتضي نفقات كبيرة جدًّا لإمكانية القيام بكل ذلك، وكانت هناك مصادر إيرادات كثيرة جدًّا يمكن أن تعتمد عليها "والده سلطان" في هذا الصدد، من أبرزها هبات الأراضي وإيرادات الضريبة لأراضي الخزينة الممنوحة للسلطانة الأم عندما يعتلي ابنها العرش، وإذا أنعمنا النظر في التبرعات المقدمة من أولئك النسوة، أمكننا أن ندرك إلى أيّ حد كانت هذه الإيرادات ضخمة؛ إذ كانت مجموعة واسعة جدًّا من الأراضي الصالحة للزراعة، والقرى من بين هذه التبرعات، ومنها حدائق الفاكهة، وحوائط الكروم، ومزارع الليمون، وحوائط الزيتون، والجزر، والمناجم، والحصون، والمصانع الكبيرة، والمباني، والنزل العامَّة، والمتاجر، وأماكن الاستثمار الأخرى.

إذا ألقينا نظرة أدناه على واحد فقط من الأربعة عشر وقفًا التي أوقفتها بَزْمِ عَالَمْ -المتوفاة عام ١٨٥٢م وهي من والدات السلاطين- يتبين لنا إلى أي مدى كانت الثروة لدى والدات السلاطين كبيرة، وهذه الأملاك المذكورة كانت تستخدم لتدرَّ عائدات للمستشفى والحمام والجامع الذي أنشأته:

- حديقة وتسعة متاجر في إسطنبول.
- خمسة وعشرون ألفًا ومئتان وأربعون شجرة من زيتون الحزام في "أَدْرَمِيتْ (Edremit)" و"كَمَرْ أَدْرَمِيتْ (Kemer Edremit)".
- ثلاثة وستون مصنعًا لزيت الزيتون في أَدْرَمِيتْ وكَمَرْ أَدْرَمِيتْ.
- أحراش "أَوْجِي (Avcı)" في سنجاق "قُوجَأَلِي (Kocaeli)".
- مرعى باسم "آلَاجِيقْ (Alacık)"، وبحيرة، ومتجر للبقالة، ومكان أطلق عليه اسم "بَالَابَانْ بُورْنُو (Balaban Burnu)" في "تَرْكُوسْ (Terkos)".
- مرج يسمى دار السلاح وبضعة مزارع.
- أربعة أنزال للمسافرين وسبعة متاجر في إسطنبول.
- سبعة وثلاثون سهمًا وأرض في آغَا خَانْ (Ağa Han) في إسطنبول.
- جزيرة باسم "خُورْشِيدْلَرْ (Hurşidler)" بالقرب من رُودُسْ (Rodos).
- مزرعة في "وَارْنَا (Varna)".
- طاحون ماء وبستان توت في "جَمْلِيكْ (Gemlik)".
- مرج ومزرعتان وثلاثة وأربعون حقلًا في إسطنبول.
- مزرعة كاتب أفندي في إسطنبول.
- نزل وأربعة متاجر وحائط كروم مساحته ستة أفدنة، ونصف حصة من الأرض في إسطنبول.
- مزرعة مساحتها سبعة وثلاثون فدَّانًا ونصف، وخمسة حوائط كروم، ونصف حصة من الأرض في إسطنبول.
- مخزن فحم في إسطنبول[١١٢].



كلنوش سلطان
(١٦٤٧م-١٧١٥م).

وعلاوة على عائدات الأراضي والضرائب من التبرعات لوالدة السلطان كان هناك أيضًا إيرادات أخرى وأمتعة شخصيَّة ثمينة، مثل: الجواهر المختلفة، والأمتعة المرصعة بالأحجار الكريمة، والأنسجة الفاخرة، فضلًا عمَّا يُدفع يوميًا لوالدة السلطان بمتوسط ثلاثة آلاف آقْجَه، فإنه يبلغ مليونًا وخمسة وتسعين ألف آقْجَه سنويًا، مع ما كانت تتلقاه من هدايا السلطان وغيره وممثلي الحكومات الأجنبيَّة أيام الأعياد الدينيَّة واحتفالات القصر والطقوس المهمَّة الأخرى[١١٣]؛ فعندما اتحدت رغبة "والده سلطان" في رعاية المؤسسات الخيرية مع ثروتها ظهرت أعمال خالدة رائعة جدًّا.

وكانت حَفْصَة سلطان -المتوفاة عام ١٥٣٤م زوجة ياووز سلطان سليم وأمّ السلطان سليمان القانونيّ- أنشأت مجمعًا بالقرب من "مَانِيسَا (Manisa)" مديريَّة ابنها الأمير، داخله جامع -جامع السلطانيَّة- ومدرسة، ومدرسة ابتدائيَّة، ومطعم للفقراء، إضافة إلى غرف الصوفية، ثم قام السلطان سليمان القانونيّ بإضافة مستشفى وحمّام باسم والدته إلى هذا المكان نيابة عن السلطان[١١٤]، وكانت حفصة سلطان أول "والده سلطان" تنشئ جامعًا بأمر رسميّ، وقبرها بجوار قبر يَاوُوزْ سلطان سليم.

نُورْبَانُو سلطان الزوجة الأساسيَّة لسليم الثاني ووالدة مراد الثالث، ومن المعتقد أنها من أصل إيطاليّ أو يهوديّ، أنشأت مجمعًا كاملًا عام ١٥٨٣م، ومكتبة لجامع المجمع، وهي أول مكتبة أسستها امرأة في إسطنبول، وكان المجمع يحتوي على جامع، ومدرسة، ومدرسة للحديث، ودار للمسنين، ومدرسة ابتدائيَّة، ومدرسة للأميين، ومستشفى، ومطعم للفقراء مع نُزُل للمسافرين أيضًا، وقد تبرعت نُورْبَانُو سلطان أيضًا بكثير من الكتب إلى الجامع، بينها مصاحف ورقيَّة ذات خطوط جميلة جدًّا، توفيت عام ١٥٨٣م، وقبرها داخل ضريح سليم الثاني بجامع "آيا صُوفْيَا (Ayasofya)"[١١٥].

أمرت مَهْ پَيْكَر سلطان (كُوسَمْ سلطان) زوجةَ أحمد الأول، ووالدة مراد الرابع وإبراهيم- بإنشاء مجمع "چِينِلِي جَامِعْ (Çinili Camii)" في "أُوسْكُودَارْ (Üsküdar)"، فيه مدرسة ابتدائية، وينبوع، ومدرسة لتدريس تاريخ الأنبياء، وحمام، وأمرت بإنشاء مسجد في "آنَاضُولُو قَاوَاغِي (Anadolu Kavağı)"، ومتجر كبير جدًّا موقوف للمجمع والجامع، هذا فضلًا عن الأعمال الخيريَّة؛ إذ رعت الفقراء، وجهزت الفتيات اليتيمات، وكانت تقوم بتغيير زيّها في شهر رجب المبارك من كل عام، فتذهب إلى السجون، وتدفع الديون المستحقة على السجناء، وتدفع الكفارات عن كل الجرائم الأخرى عدا القتل، وتتيح بذلك الإفراج عن أولئك الذين تورّطوا في هذه الجرائم، وبالإضافة إلى ذلك كانت توزع الماء والشراب على الحجاج في مكة، وتأمر بقراءة القرآن في حضور السلطان يوم تغادر قوافل الحج إسطنبول، وقد دفنت كُوسَمْ سلطان المتوفاة عام ١٦٥١م في ضريح أحمد الأول بجامع السلطان أحمد[١١٦].

طُورْخَانْ سلطان زوجة السلطان إبراهيم، ووالدة محمد الرابع، المولودة عام ١٦٢٧م في روسيا، أُسرت أثناء هجوم للتتار، وجيء بها إلى إسطنبول عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها، وقد أصبحت والدة السلطان عندما اعتلى ابنها العرش عام ١٦٤٨م، ومن أعمالها الخيريَّة الانتهاء من جامع بدأت صفية سلطان إنشاءه عام ١٥٩٨م، ومدرسة ابتدائيَّة، ومدرسة تدرِّس تاريخ الأنبياء، والسوق المغطّى، وينبوع، وضريح، وأنشأت قلعتين في مضيق "الدردنيل"، داخل حدودهما جوامع، ومدارس، ومنازل، ومخابئ، ومتاجر، وأوصت بثلاثة مخابز وأربعة متاجر، ومطاحن للبُنّ، وكثير من الأراضي في إسطنبول، وأربعين قرية وخمس مزارع في رُومَيلي للنفقات اللازمة للأعمال الخيريَّة، وأوصت أيضًا بخمسة آلاف ومئتي آقْجَه لشراء أراضٍ ومزرعة وأملاك أخرى في الأناضول للغرض نفسه، وأوصت بتحديد مرتَّبات للقائمين على ذلك، فضلًا عن أنها اشترطت شراء فحم وحطب بثلاثة آلاف آقْجَه لتدفئة الطلاب شتاءً، وثلاثة آلاف آقْجَه لرحلاتهم صيفًا، وعشرين ألف آقْجَه لشراء ثلج لحوض الفوَّارة كي تلطف الجوّ، وأنفقت اثني عشر ألف آقْجَه لشراء الأرز والبصل والحطب للفقراء في رمضان المبارك، وخصَّصت سبعة آلاف وخمس مئة آقْجَه لنقل زاد الحجاج وأمتعتهم، وقدرًا معينًا من المال لشراء القناديل والمصابيح وزيت الزيتون للجوامع، ولدفع رواتب موقِدي القناديل في الليالي المباركة؛ ودفنت طُورْخَانْ سلطان المتوفاة عام ١٦٩٢م في مقبرة شيدتها بجوار مسجدها[١١٧].

كُولْنُوشْ سلطان زوجة السلطان محمد الرابع، "والده سلطان" لمصطفى الثاني وأحمد الثالث، ولدت في كريت، من أصل يونانيّ، وأُسرت عند فتح كريت، ثم أرسلت إلى القصر العثمانيّ، وقد تحابّ محمد الرابع وكُولْنُوشْ؛ فكانت الزوجة المفضلة عنده، ترافقه في رحلات صيده الشهيرة[١١٨]، وقد أمرت بإنشاء جامع في "غَلَطَه (Galata)" إبَّان حكم ابنها محمد الثاني، وعندما اعتلى أحمد الثالث سدّة الحكم أمرت بإنشاء جامع في أُوسْكُودَارْ، وشيدت مستشفى، ومطعمًا للفقراء، ومستودعات، ومخبزًا، ومطاحن في مكة، والسفن والقوارب المستخدمة في قناة السويس، وأوقفت إحدى وعشرين قرية في مصر، وكثيرًا من الجسور، والعيون على



سبيل السلطان Mihrişah في (أيوب)، ١٨٠١م

طريق الحج وغيره، وتركت أيضًا كتبًا مختلفة هبة للجامع في أُوسْكُودَارْ بعد وفاتها، وقد توفيت كُولْنُوشْ سلطان في أَدِرْنَه عام ١٧١٥م، ثم نقل جثمانها إلى إسطنبول، ودفنت في الضريح بجوار جامعها في أُوسْكُودَارْ[١١٩].

مِهْرِشَاهْ سلطان زوجة مصطفى الثالث ووالدة سليم الثالث، جورجيَّة الأصل -كما قيل- أنشأت كثيرًا من العيون، وأمرت بترميمها، وأنشأت ضريحًا، ومدرسة ابتدائيَّة، وينبوعًا، في منطقة أيوب مع الجامع، وأوصت بالكتب لمكتبة الجامع أيضًا، وتركت أملاكًا كثيرة جدًّا لتوفير الدخل للأعمال الخيريَّة التي أنشأتها، وقد توفيت عام ١٨٠٥م ودفنت في ضريحها في أيوب [١٢٠].

نَقْشِيدِيلْ سلطان (Nakşidil) زوجة عبد الحميد الأول ووالدة محمود الثاني أنشأت عدة ينابيع وضريحًا من أجمل النماذج المعماريَّة وقتئذ، وإبَّان حكم ابنها مرضت، وتوفيت عام ١٨١٧م، ودفنت في ضريحها في فاتح [١٢١].

عائشة سِينَه بَرْوَرْ سلطان (Sineperver) زوجة السلطان عبد الحميد الأول ووالدة مصطفى الرابع -ظلّت "والده سلطان" سنة واحدة فقط حتى خلع ابنها من العرش- أنشأت مدرسة ابتدائيَّة، وينبوعًا، وأوقفت أربعة متاجر، وثلاثة مخابز من الحجر، فضلًا عن الحدائق، والحقول، والمنازل، ومخازن زراعيَّة، ومزرعة بمحتوياتها كلها، وماشية في إسطنبول، ونُزُلًا، ونزلًا آخر للمسافرين، وأربع مزارع في أيوب لتوفير الدخل لها[١٢٢]، وتوفيت عام ١٨٢٨م، وقبرها في أيوب.

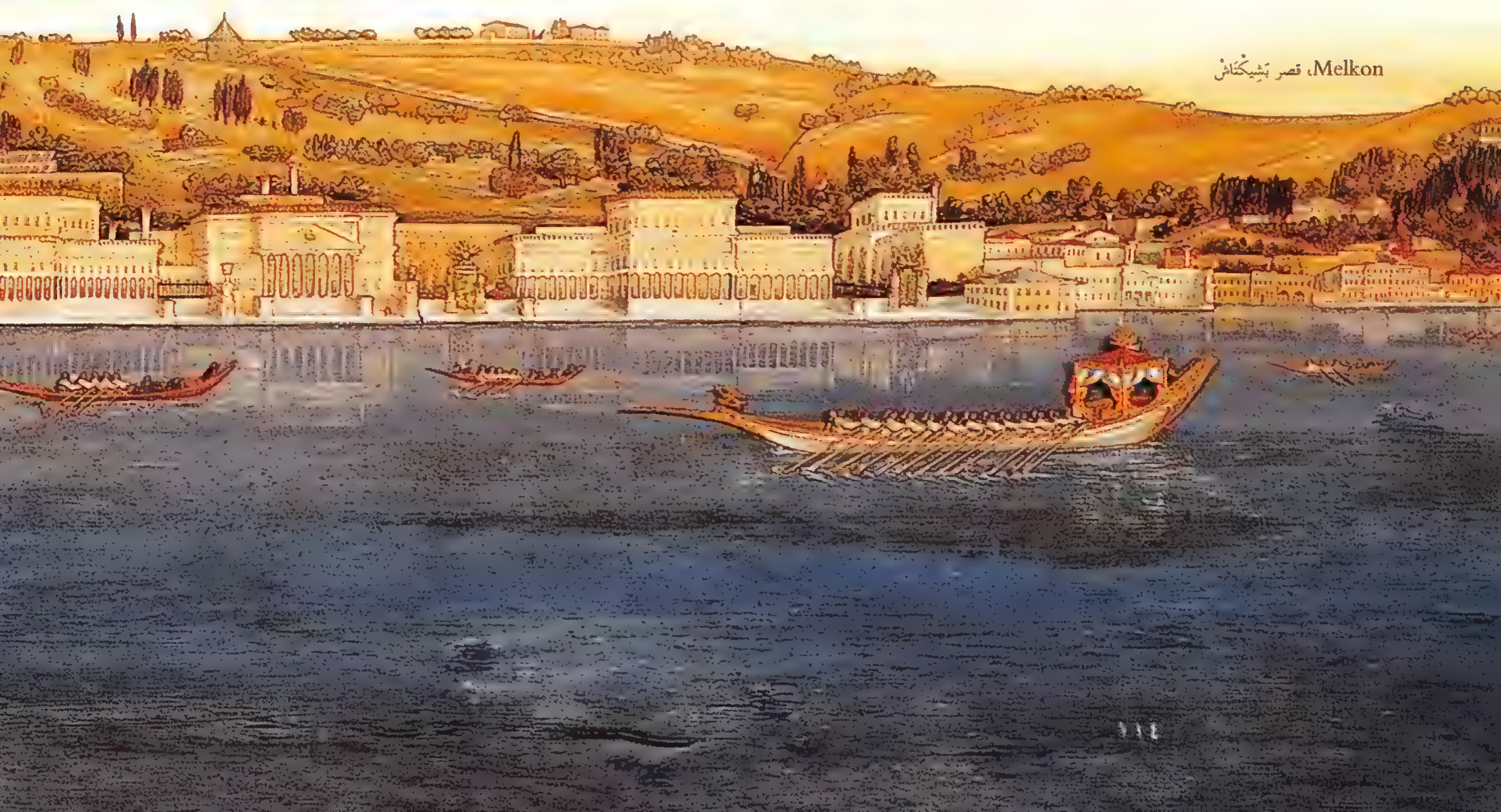


بَزْمِ عَالَمْ سلطان زوجة محمود الثاني، و"والده سلطان" لعبد المجيد أنشأت مؤسسات خيريَّة كثيرة، منها: مستشفى غُرَبَاء عام ١٨٤٣م وجامع فيه مكتبة، وجامع بجوار المستشفى عام ١٨٤٥م، والمدرسة المعروفة الآن باسم مدرسة إسطنبول الثانوية للبنات عام١٨٥٠م، وتبرعت لها بأربع مئة وواحد وثلاثين كتابًا، وجامع "دُولْمَا بَهْجَةْ" عام ١٨٥٣م، وينبوع الوالدة عام ١٨٣٩م، وينابيع أخرى كثيرة، وجسر "غَلَطَه" عام ١٨٤٥م[١٢٣]، وقدر كبير من النقود وأملاك كثيرة لتوفير الدَّخْل للأعمال الخيريَّة التي أنشأتها، وتوفيت عام ١٨٥٢م، وقبرها في ضريح السلطان محمود الثاني.

بَرْتَوْنِيَالْ سلطان (Pertevniyal) -زوجة محمود الثاني، و"والده سلطان" لعبد العزيز، والدة السلطان في الفترة من عام ١٨٦١م حتى عام ١٨٧٦م- من أعمالها الخيريَّة: تشييد جامع والدة السلطان، ومكتبة، ومدرسة ابتدائيَّة، ومكان للمُوَقِّت، وضريح، وجامع، وينابيع كثيرة في ''قُونْيَه (Konya)''، وقد تركت ثلاث مئة وتسعًا وعشرين مخطوطة وخمس مئة وسبعة وخمسين كتابًا مطبوعًا في المكتبة في ''آقْصَرَايْ (Aksaray)''، وتوفيت عام ١٨٨٢م، ودفنت في ضريحها بالقرب من آقْصَرَايْ[١٢٤].

أزواج السلطان وجواريه

كان للسلاطين العثمانيين أزواج رسميّات بالإضافة إلى الجواري حتى منتصف القرن الخامس عشر، ورغم حدوث استثناءات قليلة جديرة بالذكر منذ ذلك الحين، إلا أن السلاطين كانوا يتخذون الحظايا دائمًا، وهن نساء تفرّعن من شجرة عوائل أصيلة، وما كُنَّ أزواجًا رسميّات للسلطان، إلا أننا إذا أخذنا بعين الاعتبار ما تمتعن به من مكانة اجتماعيّة نجد أنهن كنّ بدائل لأزواجه، وأُطلق عليهن اسم ''قَادِينْ (Kadın)'' أو ''قادين أفندي (Kadın Efendi)''.



Melkon، قصر بَشِيكْتَاش

عندما يضم السلطان جارية لحَرَم القصر، تُخصص لها غرفة أو شقة، وخادمة شخصيّة، وتقوم مديرة شئون الجواري -موظفة كبيرة في القصر- بتعليمها آداب القصر، وتُجلب لها ملابس جديدة، وكان السلطان يحدد منزلتها ما لم يحدث فراغ بسبب وفاة أو طلاق بين جواري السلطان، ولتلك الحظية -السيدة الأولى أو كبيرة السيدات- نفقات أكثر وحاشية أكبر من حواشي غيرها من الجواري، ورغم أن عدد زوجات السلطان كان متغيرًا دائمًا، إلا أنه بصفة عامة كان يقتصر على الأربع المحددات شرعًا؛ فلا يطال الحظايا هذا التغيير، فالجواري لسن تابعات لهذا التقييد دائمًا؛ لأنهن لسن زوجات قانونًا.

وبدءًا من النصف الثاني للقرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر كانت هناك جوارٍ يُسمَّين "إِقْبَالْ (İkbal)" عِلاوة على زوجات السلطان، موقعهن أدنى من موقع الجواري اللاتي يسمين "قَادِينْ"، ولهن أرقام تسلسليّة ١، ٢، ٣، ٤، حسب ترتيب السلطان، ولهن خادمات شخصيّات أيضًا، وبمقدورهن أن يرتدين أزياء ذات حواشي فِرائيّة شتاءً إشارة إلى علوّ مكانتهن[١٢٥]، وإذا خلا مكان بين "قَادِينْلَرْ" ترتقي صاحبة المرتبة الأولى في "إِقْبَالْ" إلى درجة "قَادِينْ"، وكان عدد الجواري لدى السلطان العثماني رسميًّا ما بين ثماني عشرة في عهد أحمد الثالث وصِفر في عهد مصطفى الأول[١٢٦]، وكانت لبعض السلاطين جوارٍ يطلق عليهن اسم "أُودَالِيقْ (Odalık)" أي: حظية، ورغم ذلك لم يكن لهنّ أيّ منصب رسميّ[١٢٧].

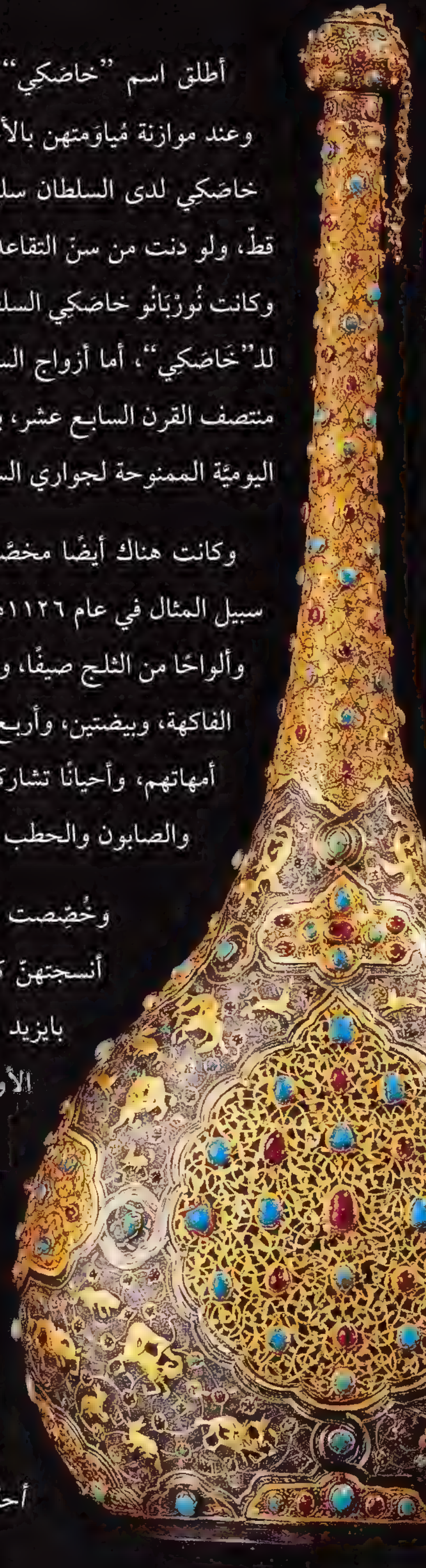


أطلق اسم "خاصَكِي" على الجواري الأثيرات لدى السلطان؛ فلهنّ منزلة كبيرة داخل حَرَم القصر، وعند موازنة مُياوَمتهن بالأخريات، ندرك إلى أيّ حد كم كان عطاؤهنّ كبيرًا، وعلى سبيل المثال، فإن خُرَّم خاصَكِي لدى السلطان سليمان القانونيّ كانت تحصل على ألفي آقْجَه مياومة لم تحصل عليها أية جارية قطّ، ولو دنت من سنّ التقاعد، كان المدفوع عادة للجواري أمهات الأمراء ما بين ثلاثين وأربعين آقْجَه وقتئذ، وكانت نُورْبَانُو خاصَكِي السلطان سليم الثاني تحصل على ألف آقْجَه يوميًّا، وكان هذا هو المقدار المحدد عادة لل"خاصَكِي"، أما أزواج السلطان الأخريات أمهات الأمراء، فيُدفع لكلّ منهنّ أربعون آقْجَه يوميًّا، وبحلول منتصف القرن السابع عشر، بدأت المكانة العظيمة للخاصَكِي تضعف، وضاقت الفجوة الشاسعة بين العطاءات اليوميّة الممنوحة لجواري السلطان إلى مستوى أكثر إنصافًا(١٢٨).

وكانت هناك أيضًا مخصَّصات للوازم الطعام اليوميّة تقدم لجواري السلطان إضافة إلى المياومة، وعلى سبيل المثال في عام ١١٢٦هـ كانت "القَادِينْلَرْ" يمنحن خمس أواقٍ لحمًا، وثلاث دجاجات، وأوقيتين سمنًا، وألواحًا من الثلج صيفًا، وطبقًا من القِشْدة، وأربعة أرغفة، ومئتي درهم من العسل، والنُّقاعة، وعشر أواقٍ من الفاكهة، وبيضتين، وأربع دجاجات صغيرة، وخضار الموسم(١٢٩)؛ وكان الأمراء والأميرات يأكلون معًا مع أمهاتهم، وأحيانًا تشاركهم مديرة شؤون الجواري، وكبيرة مساعِداتها، وبالإضافة إلى ذلك كان الشمع والصابون والحطب والفحم والسكر والبُنّ يُقَدَّم إلى جواري السلطان مرتين في السنة.

وخُصِّصت أنسجة الملابس السنويّة لجواري السلطان كغيرهنّ في حَرَم القصر، إلا أن أنسجتهنّ كانت أكثر جودة وعددًا موازنة بغيرهنّ من الجواري، وعلى سبيل المثال: قدّم بايزيد الثاني كل عام لأزواجه خمسة عشر ألف آقْجَه، وتسع قطع من الأنسجة الأوربيّة، وفرائَي سَمُّور(١٣٠)، وكنّ جميعًا في القصر يرتدين ملابس أنيقة جدًّا، مزينة بالجواهر، وفضلًا عن ذلك كنّ يتقلدن الألماس والزمرد والياقوت؛ وها هي السيدة مونتجو تصف ملابسها التركية مقدمة لنا فكرة جيدة حول طريقة ارتداء الملابس في حَرَم القصر:

"كان الثوب الأول في ملابسي عبارة عن تبّان طويل جدًّا، يصل إلى حذائي، ويغطي ساقيّ أفضل من الحاشية بكثير، مصنوع من نسيج رقيق جدًّا، ذي لون ورديّ أدكن، وأعلاه مغطى بنقوش من الزهور البارزة الفضيّة؛ وكانت أحذيتي مصنوعة من جلد الماعز ومطرزة بالذهب، وفوق التُّبان قميص حريريّ فاخر



قارورة ماء الورد، متحف قصر "طُوبْ قَابِي"



المرآة، متحف قصر "طُوبْ قَابِي"

أبيض، حوائفه ذات نقوش مطرزة بالذهب، وأكمامه واسعة ممتدة حتى المرفق، أما طوقه فكان مزررًا بزر من الألماس، وكان شكل الصدر ولونه أكثر ما يجذب الانتباه للقميص، أما فستاني نوع من الصُدرة مخيطة من نسيج دمشقيّ أبيض وذهبيّ، وعند ارتدائه تتمايل أطراف أكمامها الطويلة جدًّا إلى الوراء، محاطة حوائفها بشُرَّابات ذهبيّة طويلة، وتغلق أطرافه الأماميّة بأزرار الألماس أو اللؤلؤ في وسطها، وقد صنعت دُرَّاعتي أيضًا من نسيج التُّبَّان نفسه، وفوقه ثوب حِيك كي يناسب طوله قامتي تمامًا، وكانت أطراف الأكمام ضيقة، وعندما أرتديه تتمايل إلى الوراء.

ويوجد حزام بثخانة أربع أصابع فوق دُرَّاعتي، يغطي الأثرياء هذا الحزام من أوله إلى آخره بالألماس والجواهر، أما من دونهم فيطرزون نقوشًا بديعة فوق الحرير اللامع ويستخدمونه حزامًا، ولكن إبزيم الحزام خاصّة كان لا بد من تزيينه بالألماس، وهناك ثوب فضفاض من نسيج لامع ذي نقوش بارزة "كُرْدِي (Kürdi)" يُلبس حسب فصول السنة -كان ثوبي أخضر وذهبيّ- وقد وضع فرو السَّمُّور على أطرافه، وتمتد أكمامه حتى أسفل الكتف بقليل، أما غطاء الرأس فقبعة أو قلنسوة، والقلانس الشتويّة من القطيفة الفاخرة، أما الصيفيّة فمن نسيج رقيق فضيّ مصقول، وتوضع مائلة إلى اليمين أو اليسار قليلًا، وإلى الأسفل قليلًا، وفي طرفها أيضا شُرَّابة ذهبيّة، ويحيط بها من أعلى شريطة مرصّعة

بالألماس -كنت خبيرة في هذا- أو منديل مطرز برقّة محاط بالقلنسوة؛ أما في الجانب الآخر من الرأس، فالشعر مرجّل، وكانت السيدات يطلقن العنان لخيالهن؛ فبعضهنّ يضعن زهورًا هنا، وبعضهنّ يضعن خصلة من ريش مالك الحزين، وباختصار يفعلن ما يروق لهنّ، ولكن كان هناك طراز سائد هنا؛ إذ أُستخدمت الجواهر طاقات مثل الزهور تمامًا، أي: براعم من اللؤلؤ، وورود من الياقوت الملوَّن، وياسمين من الألماس، وزهور نرجس من أحجار الياقوت الأصفر... إلخ؛ وفيهنّ من اتّخذت شكلًا وطلاء رقيقين؛ فلا يُتصوَّر ما هو أكثر جمالًا من هذا، وقد عُقص الشعر إلى الخلف بطوله، مضفَّرًا باللؤلؤ أو بالشريطة. وكان عدد الضفائر كثيرا جدًّا"[١٣١].

وعلاوة على المياومة وتخصيص الوقود والطعام والملابس، قُدّمت أيضًا لجواري السلطان هدايا ثمينة جدًّا، ومنها إيرادات أراضٍ في الخزانة، غير أنها أقل بكثير ممَّا يُقدَّم لوالدة السلطان، وهناك أيضًا هدايا المناسبات، مثل: زفاف ابنة السلطان، وختان الأمراء، والحفلات الدينيّة في الليالي المقدسة، والعودة من الفتح، يقدمها السلطان نفسه، أو فرد من العائلة السلطانيّة، أو من مسؤولي العسكر رفيعي المستوى، أو من ممثلي الدول الأجنبيّة، وتنوعت الهدايا بين أموال وجواهر وحليّ وأنسجة.

ورغم أن أجنحة جواري السلطان أهون وأضيق من أجنحة والدة السلطان، إلا أنها كانت تؤثّث بأناقة وظَرَف، ووَفقًا لما ترويه ليلى سَازْ -وقد قضت سنوات كثيرة في قصر "جِيرَاغَانْ"-: كان في الطبقة الثانية من القصر جناحان لكل من "القَادِينْ" و"إِقْبَالْ"، وكان الجناح المطل على البوسفور يستخدم غرفًا للنوم، أما الطبقة الأولى أسفل غرف نوم الجواري، فقد خصِّصت لمديري شؤون الجواري، وكانتِ هناك سلالم تنزل إلى الخزائن أسفل غرف الجواري حتى تستطيع مديرة شؤون الجواري أن تخدم السيدات دون حاجة لاستخدام الدرج الرئيس للقصر، وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك حمّامات إضافيّة، وغرف لخلع الملابس وغير ذلك لخدمة أجنحة الجواري، وكان بعضها للاستعمال الشخصيّ، والآخر مشترك[١٣٢].



فستان Üçetek، متحف قصر دُولْمَا بَهْجَة



المجوهرات، متحف قصر
"طُوبْ قابي".



وكانت زوجات السلطان يقضين أوقاتهن في تعليم أطفالهن وتربيتهم والاهتمام بشؤونهم المالية، وفي أوقات الفراغ كنّ يقرأن القرآن والأعمال الأدبيّة، ويبدين اهتمامًا بالحِرف اليدويّة والموسيقا[١٣٣]، وينظمن العروض الموسيقيّة والرقص في القصر مرة أو مرتين أسبوعيًا، وكانت الجواري ذوات الملكة الموسيقيّة اللائي علمهنّ أمهر الموسيقيين ينظمن حفلات موسيقيّة دوريّة لعائلة السلطان والمقيمين في حَرَم القصر، وفي القرن التاسع عشر كانت فرقة الربابة النسائيّة في حَرَم القصر تعزف الموسيقا التركيّة والغربية أيضًا.

وتصف ليلى سَازْ رحلة من رِحلات فصلَي الربيع والصيف في حدائق القصر الواسعة قائلة:

"عندما يسمح السلطان بجولة في حدائق القصر كان المراقبون ينسحبون والجنود يرابطون على حوائف الجدران الخارجيّة على مسافات محددة، وإذا كان هناك أشخاص لا زالوا في المكان يسمعون رئيس القسم لدائرة الحَرَم صائحًا: "خَلْوَة، خلوة، خلوة!" أو "انسحبوا، الصمت"، وفي تلك اللحظة تُفتح أبواب الجسر ذات الرواشن وأبواب الممر الموصل بين القصر وحديقة حَرَمه، ويدخل الجميع منه إلى الحديقة.

وكان الأمراء الصغار والأميرات يعبرون الجسر أولًا، وأحيانًا يصحبهم السلطان نفسه، وبعد ذلك مديرة شؤون الجواري، تليها مباشرة الخادمات التابعات لها، ثم تتبعهن فتيات القصر كلهنّ، ولا تبقى واحدة إلا المناوبات، وبينما يغص المكان بأولئك الفتيات، إذا بهن يتفرقن في أرجاء الحديقة الضخمة كلها، يقفزن هنا وهناك، ويركضن مثل الفراشات من زهرة إلى أخرى، ويتسلقن الأشجار، يقفزن حتى ما يدرين كيف تمر أوقاتهن"[١٣٤].

ومن أحبّ الجولات الجولة في "كَاغِيتْخَانَه" أو في "طَاتْلِي صُو (Tatlısu)"، وكان السلطان يأذن لنساء القصر جميعًا بالخروج في تلك النُّزَه عدة مرات في فصل الربيع أو الصيف، وكانت العربات التي تحملهنّ تصطف قطارًا وفقًا للعرف السياسيّ، وكانت القافلة تذهب إلى القصور الصيفيّة في طَاتْلِي صُو، وعند الوصول يؤدين صلاة الظهر، ويقدِّم لهنّ الفواكهَ واللبن الخثير حراسُ القصر ومديرو شؤون الجواري، وكانت نساء القصر يجلسن أحيانًا بين خادماتهن، يشاهدن الشلالات[١٣٥].

وكثيرًا ما كانت زوجات السلطان يشاركْنَ في احتفالات القصر في الأيام المباركة والمناسبات الخاصّة مثل الولادة وحفلات عرس السلاطين، أما الاحتفال برمضان وقت تقديم الاحترام للسلطان- فيوصف على النحو التالي:

"إذا دخل السلطان، -وعلى يساره أمين الخزانة وخلفه القائمون بخدمته الشخصيَّة، والنساء بالزيّ الرسميّ وفقًا لمناصبهنّ- عزفت أنشودة السلام فرقة عازفات الربابة ذات الثمانين عازفة؛ وإذا وصل إلى جانب والدته، عادت الموسيقا إلى النشيد العثمانيّ، ودخلت الأميرات والفتيات تبعًا لأعمارهنّ، ويتقدمن بوقار واحترام كبيرين، وكانت أذيال نُقَبهنّ [١٣٦] تغطي الأرض الخشبية؛ وبعد اقترابهنّ من السلطان وانحنائهنّ أمامه حتى الأرض ينتقلن مباشرة إلى جانبه الأيمن، ويمسكن بأيديهن بشكل متقاطع فوق صدورهن رمزًا تقليديًّا للاحترام، ثمّ تدخل الجواري الأثيرات أي: "قَادِينْلَرْ" و"إِقْبَالْلَرْ" فيبلغن الجانب الأيسر من السلطان بالشكل نفسه، وتدخل وفق الترتيب كبيرات الجواري أو أمينات الخزينة اللائي كنّ قد ذهبن إلى جانب الأميرات، ويقبلن الأرض، ثم يتوجهن إلى أحد الأركان، ولا تصمت الموسيقا طوال الحفل ألبتة.

وفي تلك الأثناء تحضر فتاتان صغيرتان منديلًا حريريًّا مشغولًا بالذهب، به قطع نقدية صغيرة متلألئة ضربت حديثًا، ويأخذ أمين الخزنة حفنة منها وينثرها داخل الغرفة، فتأخذت كبيرات الجواري من الرتبة المتوسطة -اللائي كن يشاهدن الحفل من بعيد منذ بدايته- القطع المعدنية المتدحرجة على الأرض ليحبْسْنَها فحسب، أما الصغار فيتراكضن ليختطفْنَ القطع المعدنية كأنهن سرب حمام هجم على حبوب القمح في حدائق الجامع، وإذا خرجت من بين الفتيات الصغيرات فتاة شجاعة واقتربت من السلطان ابتسم لها السلطان مبتهجًا مسرورًا" [١٣٧].



جامع Pertevniyal Valide، ١٨٧١م


الخرّم سلطان
(Hürrem Sultan)
(١٥٠٦م-١٥٥٨م)

خُرَّم سلطان

هي إحدى أزواج السلاطين الأكثر شهرة خاصَكِي السلطان سليمان القانوني، وتعرف خُرَّمْ (Hürrem) -وهي ابنة كاهن بولنديّ- باسم روكسلانة (Roxelana) في المصادر الغربيّة.

عشِق القانونيّ خُرَّمْ جدًّا، واتخذها زوجة رسميّة له، وقد كان هذا غير مألوف في نظام جواري السلطان وقتئذ، وكان إخلاص السلطان لها كبيرًا حتى إنه تنازل عن حقِّه في زوجة أخرى من أجلها فقط، وقد أنجبت له خمسة أبناء، مخالفة عرف "أمير واحد من كل أمّ"، وكان الأمير مصطفى -ابن مَاهِي دَوْرَانْ خَاتُونْ أول جارية للسلطان سليمان القانونيّ- هو المنافس الوحيد لأبناء خُرَّمْ، وفي النهاية أُعدم الأمير مصطفى -حبيب الشعب- على يد والده بتهمة الخيانة، وقيل إن خُرَّمْ وابنتها مِهْرِيمَاهْ (Mihrimah) وزوج ابنتها رُسْتَمْ باشا وشوا به عند السلطان، ورغم أن خُرَّمْ قَلَّ احترامها بين الناس بمظِنّة أنها ضالعة في إعدام مصطفى إلا أنها أنشأت كثيرًا من المؤسسات الخيريّة.



"كانت باسمها مؤسسات خيريّة كثيرة في مدن مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس -أقدس مدن العالم الإسلاميّ- وإسطنبول وأَدِرْنَه المدينتين الرئيستين للدولة العثمانيّة بعد عام ١٤٥٣م، وكان أولها مجمع إسطنبول المشيد بين عامي ١٥٣٧م و١٥٣٩م، به جامع، ومدرسة، ومطعم، ومستشفى، ومدرسة ابتدائيّة، والمجمع في القدس فُرغ منه عام ١٥٥٠م، وقد جُهز تجهيزًا ممتازًا؛ فداخله: جامع، وخمس وخمسون غرفة لإقامة القادمين لزيارة المدينة المباركة، ومخبز ومطعم شُيِّدا من أجل الأعمال الخيرية الموجهة للفقراء، ومكان للمراحيض العامة، ونُزُل للمسافرين، وإصطبل لدوابّهم، أما في مجمع أَدِرْنَه، فجامع ومطعم ونُزُل للمسافرين" [١٣٨].

وبعد اعتلاء السلطان الجديد العرش تُنقل جواري السلطان السابق إلى القصر القديم مع أبنائهنّ، وهو مكان يتقاعد فيه السلاطين، وتُدرَّب فيه الجواري الجُدُد، وكان باستطاعة الجارية أم السلطان العودة إلى القصر الجديد في أيّ يوم، وتقضي غيرها بقية حياتها في القصر القديم، أما الحظايا (إِقْبَالْ) من دون أبناء فيُزوجن برجال النخبة من الطبقة الحاكمة.



من غرفة الملابس في الحَرَم (قصر دُولْمَا بَهْجَة)



غرفة الإستقبال في الحرم (قصر دولما بهجة)



الأميرات

أُطلق لقب "سلطان" أيضًا على الأميرات العثمانيّات، غير أنه كان يذكر بعد الاسم، وكان أولئك نساء ولدن في عالم مليء بالعظمة والأبهة؛ فكانت الأميرة تنعم في أبهة لا مثيل لها منذ أن تفتح عينيها على العالم، وقد احتُفل بميلاد الأمراء والأميرات في عائلة السلطان، فأُعدت غرفة واسعة في حَرَم القصر لاستقبال وليد السلطان، مؤثثة بما يعكس عظمة القصر العثمانيّ تمامًا، فيغطى سرير الأم والمهد بأفخم الأنسجة المزينة بالجواهر وبخيوط الذهب والفضة، وكانت الستائر مصنوعة من أفضل الأنسجة، مزينة بالخيوط الذهبيّة والفضيّة والترتر المتلألئ في نقوش رائعة، وكذلك أغطية الأرائك ووسائدها، وبالإضافة إلى ذلك، ففي الغرفة طست وأباريق فضيّة نحاسيّة مطليّة بالذهب لاستخدامها أثناء الولادة، وفي بعض الأحيان يزين المهد الذهبيّ بالجواهر، وعند ميلاد أبناء السلطان يُنفق قدر هائل من المال، وتُوزع هدايا قيّمة كثيرة، ويُضاء القصر وقصور كبار المسؤولين في الحكومة أيضًا بمصابيح الغاز والقناديل.

وفي بعض الأحيان كانت الاحتفالات العامّة تستمرّ سبعة أيام، وكان الأهالي يشاركون في عروض الألعاب الناريّة، والعروض البهلوانية والتدحرج، واللهو، ويُعلَن عن ميلاد الطفل بين موظفي الدولة والأهالي بإطلاق المدفعيّة؛ للأنثى خمس طلقات، وللذكر سبع، وترسل الأوامر السلطانيّة معلنة عن ميلاد مولود جديد إلى كل أرجاء الإمبراطوريّة [١٣٩].

ويُسيّر موكبان كبيران للمهد:

أولهما: موكب والدة السلطان، وقد أمرت بصناعة المهد وأغطيته وإرساله إلى القصر القديم، فيُنقل إلى قصر طُوبْ قَابِي تصحبه قافلة لموظفي القصر، وكان الأهالي في طريق موكب المهْد يدعون بالخير للسلطان وللمولود أيضًا، وبعد وصوله قصر طُوبْ قَابِي يؤخذ إلى غرفة معدَّة له.

والموكب الثاني: موكب الصدر الأعظم، كان ينظم اليوم السادس بعد الميلاد، وكان احتفالًا أكثر زينة من الأول، وكان



دُرُّشهوار سلطان (Dürrüşehvar Sultan)
(١٩١٤م-٢٠٠٦م)

الصدر العظم يأمر بصناعة المهد وأغطيته من المواد الغالية جدًا، ويُنقل إلى قصر طُوبْ قَابِي في موكب احتفاليّ كبير جدًّا تصحبه الموسيقا تعزفها الفرقة الموسيقيّة العسكريّة، وتُقدّم الذُّرَّاعات والفرو وغيرها من الملابس للموظفين المشاركين في الموكب تبعًا لدرجاتهم، ويُقدَّم المهد وأغطيته أولًا للسلطان لينال رضاه، ثمّ يُرسل إلى غرفة الولادة، وتجلس في الموكب سيدات النخبة (إِقْبَالْ) وأزواج المسؤولين في الدولة وفقًا لمناصبهم، أما والدة السلطان، فتجلس على كرسيّ وحولها الأميرات، وتضع القابلة الطفل في المهد، وتهزّه ثلاثًا، وتدعو له دعاء خاصًا، ثم تأخذه في حِضنها، ويضع الضيوف الجواهر والهدايا الثمينة في المهد الفارغ للقابلة، أما النساء فيقدمن الهدايا أيضًا، لكن إلى الوليد وأمِّه، ثم يبدأ احتفال الموسيقا والرقص، ويستمرّ ثلاثة أيام في حَرَم القصر[١٤٠].

وتخصّص مرضعة ومربية ومسؤولة عن الجواري وجناح منفصل للأميرة الوليدة، وتربيها والدتها ومربيتها ومدبرة أمورها، وكنّ يبدين اهتمامًا بأحوالها وسلوكها، وكانت الجواري الصغار يقدمن لها اللعب بوصفهن أصدقاء، وكانت الأميرة وأصدقاؤها الصغار يلعبن في حديقة القصر تحت إشراف مسؤول الحَرَم أو المربية؛ وعندما تصل إلى سنّ المدرسة، يُجلب المعلمون لتدريس الأميرة الصغيرة؛ وتحدَّثت عائشة سلطان ابنة السلطان عبد الحميد الثاني عن تخصيص مدرسينِ لها ولأختها شادية سلطان، أحدهما يقوم بتدريس القرآن الكريم واللغتين العربية والفارسية، والآخر يلقي دروس قراءة اللغة التركية وكتابتها، والقوانين والأنظمة العثمانيّة والرياضيات والتاريخ والجغرافيا، وقد ذكرت عائشة سلطان أن كلّ المقيمين في القصر قد استقبلوهما عند باب القصر، متمنين لهما الأماني الطيّبة في اليوم الأول، وقد ذهبت الأميرتان بعد درسهما الأول وقبّلتا يد والدهما، فقبّل هو جبهتيهما، مشجّعًا إياهما على الاجتهاد كثيرًا[١٤١]، وقد ذكرت السيدة ليلى سَازْ أن الأميرات جميعًا كانت لديهن مهارة في الموسقى[١٤٢].



دُرُّشهوار سلطان (Dürrüşehvar Sultan) (١٩١٤م-٢٠٠٦م)

حصلت الأميرات في سن مبكرة على مياومة أقل منها للقَادِينْ أَفَنْدِي إشارة إلى أنّ منزلتهن في حَرَم القصر أقل من منزلة الأزواج إلا أنهن في العرف السياسيّ يسبقن قَادِينْ أَفَنْدِي وإِقْبَالْ؛ فأثناء الاحتفالات بعيد الفطر في حَرَم القصر كانت الأميرات يخرجن في حضرة السلطان قبل قَادِينْ أَفَنْدِي، ويذهبن إلى يمين السلطان، وأزواجه إلى يساره[١٤٣]، وعندما يتزوجن تزداد المياومة المخصصة لهنّ، ويقدَّم لهن قصرٌ أو دارٌ للإقامة[١٤٤]، وكان كثير من السلع التموينيّة تقدم للمنازل، وكانت الأميرات أكثر حريّة من غيرهن من النساء الأخريات في القصر، وكان بإمكانهن دعوة أزواج الوزراء، وبمقدورهنّ التسوق أو الرِّحلات؛ وتصف ليلى سَازْ يوم التسوّق بقولها:



"في تلك الأيام، كان الشارع الرئيس في السوق المغطى مفتوحًا أمام العربات ذات الجياد، وسُمح للنساء من حَرَم القصر والأميرات بالخروج للتسوق، فكنّ يخرجن من وقت لآخر، ولكن الوقوف أمام المتاجر فضلًا عن دخولها لم يكن لائقًا ألبتة، فكنّ بدلًا من ذلك يمضين إلى جناح السلطان وعائلته في جامع "نور عثمانيّة (Nur-u Osmaniye)"، وفي الواقع فإن هذا الجناح له نظائر في المساجد الكبرى كلها في إسطنبول، وكان أصحاب المتاجر -الذين دعاهم مرافقو الأميرات- يحملون إليهن بضائعهم، فتأخذها مديرة شؤون الجواري وتقدمها لهنّ، فإذا رضين عن نسيج، يُقطع بالطول المطلوب، وإذا رغبن في أمتعة أخرى نحّينها جانبًا، وينْقُد رئيس قسم الحَرَم التاجرَ ثمنَه"[١٤٥].

وكانت أعراس الأميرات ذات أبهة كبيرة؛ إذ كان السلاطين العثمانيّون حتى منتصف القرن الخامس عشر يزوجون بناتهم وأخواتهم بالحكام المسلمين أو بأبنائهم أو بأبناء النخبة من الطبقة الحاكمة العثمانيّة، ثم أصبح اختيار العرائس لهنّ من النخبة الحاكمة، وأحيانًا من أبناء إخوة السلطان، وكانت الأميرات يتزوجن عامّة بالوزراء أو بالمسؤولين الحكوميين ذوي المناصب الرفيعة مثل قائد الجيش، وكان هذا الزواج بمنزلة روابط تزيد كثيرًا من نفوذ عرائسهنّ، الذين كان لِزامًا عليهم تطليق أزواجهنّ- إن كانت لديهم أزواج- قبل الزواج بإحدى الأميرات بنات السلطان، فضلًا عن سلبهم حق الطلاق في الزواج الجديد، ومنحه للأميرات إذا ما أذنَ لهنّ السلطان بذلك؛ فلا يكون زمام المبادرة بيد الزوج.



إناء، القرن الثامن عشر
متحف قصر "طُوبْ قَابي"



كان زواج الأميرات يتطلب نفقات كثيرة؛ إذ تُقدَّم الهدايا الثمينة جدًّا إلى عائلة السلطان، وأحيانًا يؤثِّث العروس قصر الأميرة، ومن ناحية أخرى كانت هناك فوائد كثيرة في الزواج بإحدى الأميرات؛ إذ كان الزوج يرتقي إلى وظيفة أعلى؛ فتزداد قوته وثروته بفضل تلك المصاهرة، وفي القائمة الآتية هدايا الخطبة التي قدّمها علي باشا أمين أسلحة السلطان إلى فاطمة سلطان ابنة أحمد الثالث، وبالنظر إلى الهدايا يمكننا أن نتبين كم أنفق صهر السلطان، وقيمة ما تستحقه الأميرة للزواج بها:

- المصحف الشريف المُجَلد بالأحجار الكريمة، وغلاف المصحف الشريف قماش مزين بالأحجار الكريمة.
- خاتم في علبة مطرزة بالأحجار.
- صينية ذهبية.
- تاج مصنوع من الأحجار الكريمة.
- تاج مزين بالأحجار الكريمة.
- حزام فضي مطرز بالأحجار.
- سوار مزين بالأحجار الكريمة.
- طُرَّة من ريش البلشون الأبيض مزينة بالجواهر.
- حجاب مزين بالأحجار.
- نعل حمام مزين بالأحجار.
- زوج حذاء مزين باللؤلؤ.
- فرو السمور.
- قرط ألماس.
- خمسة عشر صرة مليئة بالنقود المعدنية.
- ٢ زينة لملابس العروس من فضة على شكل شجرة.
- مائة وعشرون صينية مليئة بالحلوى.
- حديقتا زهور.
- خمس صرات متعددة الأغراض.
- قماش ذو نقوش بارزة.
- سبع صوانٍ فضية.

في يوم الخطبة دعا أعضاء الديوان أحمد الثالث إلى قصر "صُوفَه" لرؤية جهاز فاطمة سلطان، المقرر نقله إلى منزل الأميرة الجديد مع موكب احتفاليّ كبير، وكانت السّلات الضخمة والصناديق قد وُضعت على خمس وخمسين بغلة وعدّة عربات نقل، والأمتعة الثمينة جدًّا والأكثر قيمة نقلت في قافلة كبيرة من موظفي القصر وحاملي الفؤوس، أما الهدايا المقدمة من الخاطب يوم الخطبة فهي:

- حزام وطُرّة مرصعان للصدر الأعظم.
- مصحف وساعة مرصعة لشيخ الإسلام.
- سواران من الألماس لقائد الجيش.
- حزام مرصع لقائد القوات البحريّة.
- حزام مرصع للضبّاط.
- عشرون قطعة من الذهب لقاضي عسكر رُومَلِي.
- طقم ساعات مرصعة بالياقوت لقاضي عسكر الأناضول.
- حزام مرصع لأغا الإنكشارية.
- سواران مرصعان لكبير الكُتّاب.

وبالإضافة إلى ذلك فقد أرسل علي باشا هدايا أيضا للعروس ولأبيها السلطان وأزواجه ولمديرة شؤون الجواري، من بينها الجياد، والجواهر، والكتب القيمة، وسجادة الصلاة، والسُبُحات، والجلود والفراء، ونظير ذلك نصّبه السلطان وزيرًا ورقّاه إلى رتبة كَتْخُدَا الصدارة.

وفي يوم الزفاف كانت فاطمة سلطان قد ذهبت إلى منزلها الجديد بعربة فضيَّة مهيبة، أما موكب العروس فكان يشمل ألوان الطيف البشريَّة فضلًا عن الوزراء وأعضاء الطبقة العلميّة والمئات من الحرس السلطانيّ وموظفي الدولة حتى نساء القصر في إحدى وثلاثين عربة منفصلة، كلٌّ يسارع في نقل الجهاز، وارتدى الموظفون جميعًا الدُّرّاعات الرائعة والأزياء الرسميّة، على جيادهم المطهمة، وزينت أعناق الحيوانات التي تجر العربات بأنسجة مزركشة، وكان الحرس السلطاني يحمل أكاليل الزهور بجمال منقطع النظير؛ وبينما كان موكب العرس يتقدم بطيئًا في شوارع إسطنبول، تناثرت على المارة عشرة أكياس من العملات الذهبيّة، وكان المشاهدون لمرور الموكب يدعون للسلطان، ويتمنون الأماني الطيبة للعروسين، وعندما وصل الموكب إلى مكانه بدأ اللهو والفرح، والألعاب، والمسابقات، والموسيقا، والرقص، وعروض البهلوان، والألعاب الناريّة كلها.

أما ما يثير الاهتمام حقًا فهو أن هذه الاحتفالات كانت رمزيّة؛ لأن فاطمة سلطان عند خِطبتها كانت في الخامسة من عمرها، وقد انتظر علي باشا ثماني سنوات حتى تصل فاطمة سلطان سن البلوغ، ولكنه توفي في الحرب قبل الزواج [١٤٦].

أنشأت بعض الأميرات العثمانيّات الأبنية التّذكاريّة، وأشهرهنّ مِهْرِيمَاهْ سلطان ابنة السلطان سليمان القانونيّ، إذ أنشأت مجمعًا باسمها على ساحل أُوسْكُودَارْ، داخله مدرسة، ومدرسة ابتدائيّة، ومطعم للفقراء، وحمّام، ومَضْيَفة،

وفوّارة في الجزء السفليّ من صحن المسجد، وأنشأت أيضًا مجمعًا في "أَدِرْنَه قَابِي (Edirnekapı)" باسمها أيضًا، في داخله مدرسة دينيّة، ومدرسة ابتدائيّة، وحمّامان، وكان المهندس المعماري لهذا الجامع المعماريّ سنان.

كانت مِهْرِيمَاهْ سلطان قرّةَ عين أبيها، وعند وفاتها في عام ١٥٥٦م دفنت في ضريح والدها في جامع السليمانيّة[١٤٧]، وكانت إِسميحان سلطان حفيدة السلطان سليمان القانونيّ، وابنة السلطان سليم الثاني ونور بانو سلطان قد كلفتا المعمار سنان بإنشاء مدرسة دينيّة بين عامي ١٥٦٩م-١٥٧٠م وأضيفت لها مكتبة من أربع مئة وثلاثين مجلّدًا، وبالإضافة إلى ذلك فإن إِسْمِيخانْ سلطان أعادت بناء كنيسة لتكون جامعًا؛ أما زوجها صُقُولُّو (Sokullu) محمد باشا فقد أضاف للجامع تكيّة وفسقيّة، وقد توفيت عام ١٥٨٥م بعد يومين من ولادتها طفلًا، ودفنت في الضريح في جامع آيَا صُوفْيَا[١٤٨]، وكانت زينب سلطان ابنة السلطان سليم الثالث قد أنشأت مجمعًا لجامع صغير قُبَالة بوابة الجملة في حديقة "كُولْخَانَه (Gülhâne)" عام ١٧٦٩م، داخله مدرسة ابتدائيّة، وفوّارة، وضريح، وتوفيت عام ١٧٧٤م ودفنت في ضريحها[١٤٩].


Levni، صورة مصغرة لمرأة التركية

دَايَة خَاتُون/Dâye Hatun
(مرضعة الأمراء والأميرات)

كان من العادات العثمانية إرضاع الأمراء والأميرات على يد المرضعات. ومن ثمّ يُعدون إخوة لأبنائها، فكانت منزلة المراضع داخل حَرَم القصر كبيرة، وإذا توفيت "والده سلطان"، تحضر المرضع الطقوس بدلًا منها، وكان السلاطين يجلّونهنّ ويحترمونهنّ ويحسنون إليهن جدًّا، فكنّ ينفقن من الهبات المقدمة لهن على الخدمات العامّة، مثل: المساجد والجوامع، وتكون المرضعة عمومًا متزوجة من أحد رجال الدولة، مثل: حليمة خاتون مرضِعة محمد الثالث كانت متزوجة من الصدر الأعظم لَالَا (Lala) محمد باشا المدرس السابق للسلطان[١٥٠].

كَتْخُدَا خَاتُون/Kethüda Hatun (مديرة الحَرَم)

هي مديرة حَرَم القصر ذات الدرجة العليا، يعينها السلطان لخبرتها ومعلوماتها وتربيتها، وكانت تدير جميع الاحتفالات في حَرَم القصر، وتعلم النساء كيفيّة التعامل مع السلطان وعائلته، وليس أدلّ على سمو مكانتها أن الخاتم السلطانيّ كان يحمله ثلاثة: السلطان والصدر الأعظم ومديرة الحَرَم! فضلًا عن إهدائها فرو السمُّور بعد تعيينها، وكانت المرضعة ومديرة الحَرَم تُقيَّدان في السجلات الخاصّة عضوين من أسرة السلطان، وكان لمديرة الحَرَم الصلاحيات والإمكانيات اللازمة لتقديم الخِدْمات العامّة للمجتمع، وعلى سبيل المثال فإن جَانْفَدَا (Canfeda) خَاتُونْ مديرة الحَرَم في عهد السلطان مراد الثالث قد أنشأت جامعًا وفسقيّة في إسطنبول وجامعًا آخر وحمامًا في إحدى القرى المجاورة[١٥١].

الموظفون الإداريّون في القصر

كانت كبار الجواري في حَرَم القصر في مرتبة بعد نساء العائلة السلطانيّة، بوصفهنّ خادمات شخصيّات للسلطان، وفيما يلي قائمة بمهامّهنّ[١٥٢]:



صندوق مجوهرات، متحف قصر "دُولْمَا بَهْجَةْ"

خَزْنَدَارْ أُسْطَى/Haznedar Usta (كبيرة أمينات الخزانة): كانت بجانب السلطان في حَرَم القصر لخدمته، أما مرؤوساتها الأربع، فيتناوبن العمل على باب السلطان ليلًا ونهارًا مع مساعِداتهنّ، فكنّ يهتممن بملابس السلطان والجواهر والشؤون المالية للحَرَم، وكان يعمل إلى جانبهن نحو عشرين من مساعِدات كبار الجواري.

جَاشْنِكِيرْ أُسْطَى/Çeşnigir Usta (كبيرة الخدمة الموكلة بطعام السلطان): كانت مسؤولة عن إعداد طاولة الطعام بالاشتراك مع مساعِداتها من كبار الجواري، وكانت تتذوق الطعام قبل السلطان خوفًا عليه من الغِيْلة.

جَمَشِيرْجِي

أُسْطَى/Çamaşırcı Usta (كبيرة الخدم المسؤولة عن الغسيل): كانت مسؤولة عن غسيل ملابس السلطان في سَرَب القصر، وكانت ملابس السلطان تُغسل في حوض غسيل فضيّ في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وتُمدّ حبال في حديقة القصر مخصّصة للسلطان وحده لتجفيف الملابس، ثم تُكوى.

إبْرِيقْتَارْ أُسْطَى/İbriktâr Usta (كبيرة حاملات الإبريق): كانت مسؤولة عن إبريق السلطان وحوض غسيله ومناشفه بالاشتراك مع مرؤوساتها، ويصببن الماء من الإبريق عند وضوء السلطان أو عندما يغسل وجهه أو يديه فقط.

بَرْبَرْ أُسْطَى/Berber Usta (كبيرة الحلّاقات): كانت مسؤولة عن أدوات حلاقة السلطان بالاشتراك مع مرؤوساتها.

قَهْوَجي أُسْطَى/Kahveci Usta (المسؤولة الأولى عن إعداد قهوة السلطان): كانت تعد القهوة وتقدِّمها للسلطان بالاشتراك مع مرؤوساتها، وفي أيام الاحتفالات كانت تقدم القهوة للجواري والضيوف الوافدات لتقديم التحيّة للسلطان.



تفاصيل المرآة، متحف قصر "طوب قابي"

كِيلَرْجِي أُسْطَى/Kilerci Usta (المسؤولة الأولى عن مخزن المؤن): كانت تحفظ العصير المعدّ للسلطان من الفاكهة الطازجة أو المجففة في مخزن المؤن، بوصفها مسؤولة عنه بالاشتراك مع مرؤوساتها، وكنّ يقدّمن الطعام والشراب منه للسلطان، وفي الوقت نفسه كانت تقوم على المائدة أثناء تناول السلطان لطعامه.

كُوتُوجُو أُسْطَى /Kutucu Usta (كبيرة عاملات الحمّام): كانت مسؤولة عن الخدمة أثناء اغتسال "قَادِينْلَرْ" و"إِقْبَالْلَرْ" وارتدائهن ملابس الدِّثار بالاشتراك مع مرؤوساتها.

كُولْخَانَه أُسْطَى/Külhane Usta (كبيرة العاملات في غرفة المِرْجَل): كانت مسؤولة عن إشعال المواقد في الحمّامات واغتسال حظايا السلطان بالاشتراك مع مرؤوساتها.

كَاتِبَة أُسْطَى/Katibe Usta (كبيرة الكواتب): كانت مسؤولة عن مراعاة النظام في حَرَم القصر بالاشتراك مع مرؤوساتها، وكانت تشرف على الداخلين إلى حَرَم القصر والخارجين منه، وكل ما يحدث فيه تحت مراقبتها.

خَاسْتَلَرْ أُسْطَسِي/Hastalar Ustası (كبيرة المسعفات): كانت على رأس الموظفات الصحيات في حَرَم القصر.

أَبَه/Ebe (القابلة): كان كثير من القابلات يشرفن على حالات الولادة والإجهاض في حَرَم القصر.

دَادِي/Dadı (مربية الأطفال): كان يقدّم لكل من أبناء السلطان مربية وجارية كبيرة مسؤولة عن تربية الطفل لتساعد أمّه، وحظيت المربيات باحترام كبير في حَرَم القصر، وإذا حان الوقت زُوِّجن برجال الدولة الكبار.

كلّ أولئك الجواري الكبار كنّ خادمات شخصيّات ومساعدات، ومِثْلُهنَّ لخدمة والدة السلطان وأزواجه والأميرات، وحصلن على مياومة من ثلاث عشرة إلى مئتي آقْجَه تبعًا لدرجتهنّ(١٥٣).



بهو فيه سبيل، متحف قصر "طوب قابي"





الخادمات

منهنّ الفتيات الجدد عديمات الخبرة والجواري الاعتياديات، كنّ يقمن بالأعمال اليومية كلّها، مثل إعداد الطعام، وغسل الملابس، وإشعال المواقد، وغير ذلك"[١١٠] - بمياومة تبلغ عشر آقجات أو أقل من ذلك. ويقمن في غرف واسعة جدًا تُطلّ على القرن الذهبي وبحر "مرمرة (Marmara)". وكانت الغرف كبيرة بما يكفي حتى إنها أحيانًا تسع مئة شخص، والفتيات وشاغلاتهنّ يقمن في الغرف نفسها، ويرقدن على الأسرّة الخشبية والأوطئة المصوفة الخشنة، وتجنب أيّ مشكلات كانت تنام جارية ناضجة بين كل عشر فتيات، وتشعل القناديل طوال الليل، وبالإضافة إلى ذلك، فإن مساعدات الكاهية كنّ يتجولن بين الغرف على فترات منتظمة.

وفور جلب الفتيات إلى القصر يُلقنّ المبادئ الأساسية للإسلام والعبادات، ويلتزمن بتأدية الصلوات الخمس، ويتعلمن أيضا قراءة القرآن الكريم، ووفقًا لما قالته ليلى صاوز، فإن النساء في حرم القصر كنّ يؤدين عباداتهن خاشعات،

"وكانت سيدات القصر والأميرات يؤدّين الفروض الدينيّة كلّها بدقة بالغة؛ لأنهن تعلمن الدين من طفولتهن وأصبحن يتمتعن بالفضائل كلها لدى المتدين، لا سيما الحفاظ على الصلوات، وصيام رمضان"[١١١].

عُلّمت الجواري جميعًا التحدث باللغة التركية، غير أن ذوات الجمال الساحر قد علمن القراءة والكتابة أيضا باللغة التركية لعلهن يصبحن جواري للسلطان، أما ذوات الملكة الموسيقية، فعُلمن العزف على الرباب والغناء والرقص، وعلاوة على ذلك، فقد عُلمت الجواري الخياطة والنسج والشغل أيضًا، والأهم من هذا كله تعليمهن أخلاق القصر، وأما الفتيات المتوقع زواج السلطان بهن، فتعلمن حسن التبعّل للسلطان.

أما الجواري اللاتي لم تكن لديهن الرغبة في أن يشغلن مكانًا في ملاك إدارة الحرم، فكان بمقدورهن طلب تحريرهن بعد خدمة تسع سنوات، وبناء على ذلك يمنحن شهادة عتق، وكنّ يحملنها معهن دائمًا، ويُبحث لهن عن أزواج، ويمنحن منزلاً مؤثثًا، وراتبًا.

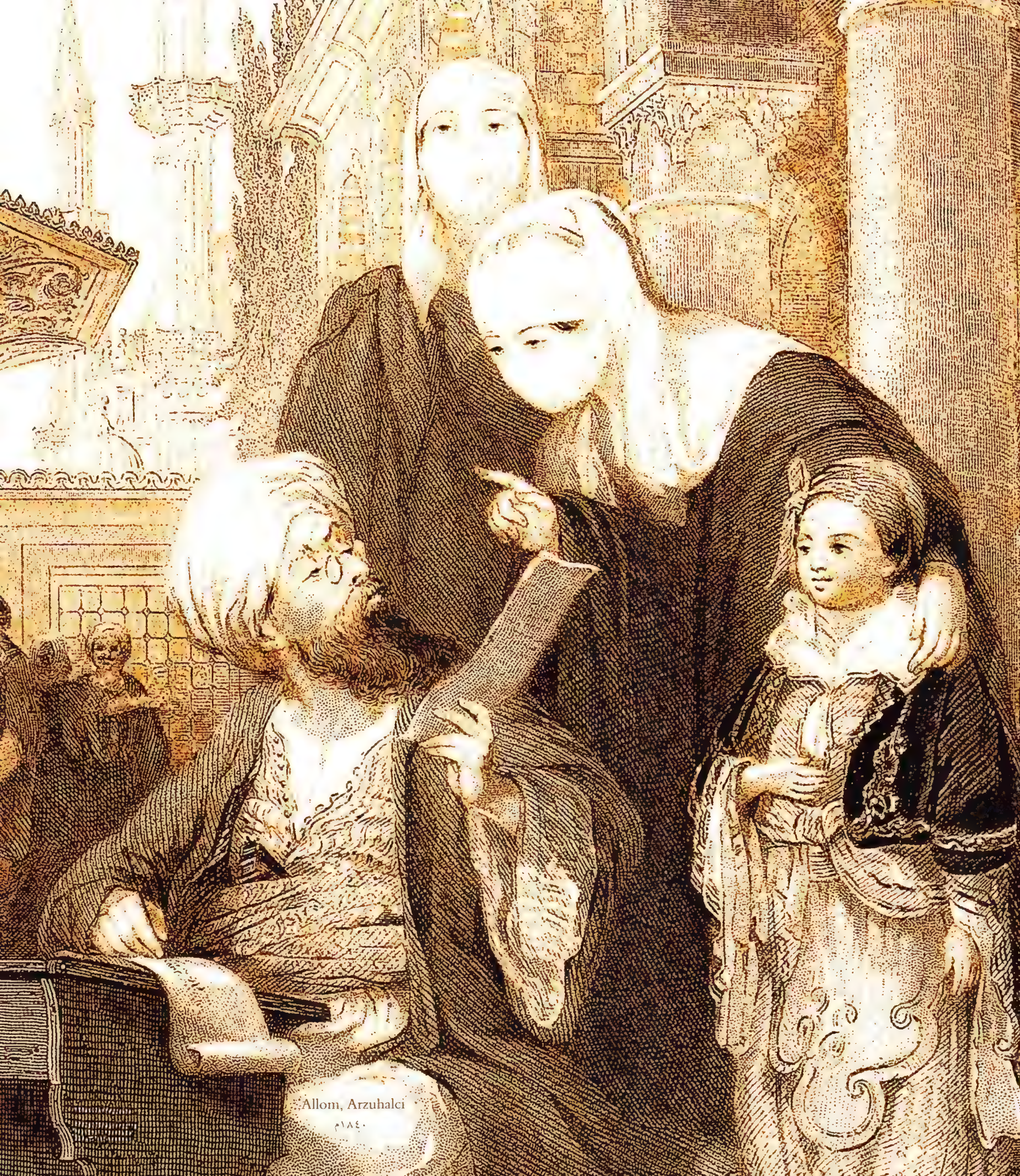
٥

المرأة العثمانية في سجلات المحكمة



"كانت المرأة التركيّة من حيث وضعها القانونيّ متمتعة بحقوقها الملكيّة والشخصيّة والقانونيّة متساويةً والمرأةَ الأوربِيّة وربما تتفوق عليها."[١٥٦]

لوسي م جارنيت (Lucy M. Garnett) ١٩٠٩م



Allom, Arzuhalci

١٨٤٠م

لا بد أن ننظر متفحصين إلى صورة المرأة في سجلات المحكمة العثمانيّة؛ لرسم صورة كاملة لها ووصفها بشكل صحيح؛ فكل ما ذكره الرحالون الأوربِيُّون عن النساء العثمانيّات لا يتعدى كونه وصفًا لهنّ في حَرَم القصر أو الدار، أي في بيئة كوَّنتها النساء أساسًا، بيد أن سجلات المحكمة تكشف لنا عمّا فعلته النساء العثمانيّات في المجال القانونيّ أو العامّ، وغالبية الدراسات حتى الآن حول هذا الموضوع تبين لنا أن هؤلاء النساء كنّ يعرفن حقوقهن القانونيّة، وأنهنّ حمينها من خلال المحاكم، وكان الزواج والطلاق وضمان حقوقهنّ الماديّة، والشكاوى حول العنف الجسديّ من الموضوعات الرئيسة التي تلجأ النساء فيها إلى المحكمة، وكنّ في كثير من الأحيان يُحِلن المشكلات المستعصية إلى المحكمة، وإذا افتقدن العدالة في المحاكم المحليّة، أرسلن عريضة لديوان السلطان في إسطنبول، مطالبات أحيانًا بالاهتمام بشَكاتهن، وكانت الشكاوى تُسجل في دفاتر الشكاوى، وفي ذلك يكتب أحد الباحثين ما يلي:

"نعلم أن المرأة والأقليّات كانوا يلجؤون باستمرار إلى المحاكم الشرعيّة المحلّية؛ إذ ربما صعب عليهم الوصول إلى الباب العالي والديوان االسلطانيّ، لبعد المسافات وصعوبة السفر جدًّا، ولكن على الرغم من كل هذه المسافة، والمخاطر المختلفة، فإن النساء قد نهضن ساعيات ولو من مصر لرفع عريضتهنّ، وهذا يبين لنا أيضًا إلى أي حد كانت



"عدالة السلطان" شائعة لدى جموع كثيرة، فضلًا عن إيمانهنّ بذلك وسعيهنّ من أقصى أركان الإمبراطوريّة حتى إنهنّ جازفن برحلة شاقة لتقديم شكاواهنّ" [١٥٧].

وكان من أسباب ثقتهنّ بالقانون أن "المحكمة حامية للنساء" [١٥٨]؛ فكنّ كغيرهنّ في كثير من المجتمعات يشعرن بالحاجة إلى سلطة المحكمة لحماية حقوقهنّ أو استردادها، وكثرة العرائض المرفوعة بمتوسط كبير يوثّق ذلك، والنقطة الأساسيّة المهمّة هنا هي حصول النساء غالبًا على العدالة؛ ووفقًا لما كتبه مؤرخ دَرَس سجلات القاضي في قبرص: "كانت هناك واجبات على القضاة، مثل: حماية الضعفاء والعاجزين عن الدفاع عن أنفسهم، وما كان النساء ليشعرن نسبيًا بالأمان لولا الجهد المخلص لقضاة "نيقوسيا" وأجزاء أخرى من الجزيرة لحماية النساء من الاستبداد والظلم" [١٥٩].

ووَفقا لمؤرخ آخر دَرَس أيضًا سجلات القاضي العثمانيّ في القرنين السابع عشر والثامن عشر، فإن العرائض المرفوعة من النساء على الرجال كسبت النساء منها ٧٧٪ [١٦٠]، وفي ضوء البحوث فلن نجانب الصواب إذا قلنا: إن المحاكم دعمت أيضًا البحث عن حقوق النساء العثمانيات دعمًا فعّالًا.




Ernst Rietschel، كُتّاب المطالب

الزواج

كان من المعتاد تزويج الفتاة من قبل وليّ أمرها، وعادة ما يكون والدَها، وفي حالة عدم وجوده يحلّ محلّه الجدّ أو العمّ أو الخال أو الأخ أو غيرهم من أقاربها الرجال، وإلا فالقاضي وكيلها، أو من دون وكيل إن كانت راشدة، إذ كانت موافقة العروس شرطًا لصحة العقد قانونيًا، بل يمكنها أيضًا تقديم شكوى لفسخ الزواج إذا كان دون رغبتها، وحينئذ تستطيع المحكمة أن تبطله، والنص التالي من سجلات القاضي يصف بدقة حالة مماثلة:

"قامت حَاجِي بُولَا بنت حسين الرشيدة من قرية "صَالُورْجُو دَرَه (Salurcu Dere)" بقضاء "أَمَاسْيَا (Amasya)" بالادعاء التالي: قام والدي حسين بتزويجي من سِبَاهِي محمد بك في الثامن والعشرين من جمادى الأولى عام ١٠٣٤هـ، وعندما علمت بذلك رفضتُ، وأردت إبطال هذا الزواج؛ لأني أرغب في الزواج بإبراهيم جَلَبِي بن كَيْوَانْ، فما رضيت بالزواج من محمد، وقد صدرت فتوى بإبطال تزويج الأب لابنته من دون رغبتها، وتم إبطال الزواج، وسمح للفتاة بالزواج بإبراهيم جَلَبِي (سجل أَمَاسْيَا ١٩-٢؛ سلخ جمادى الأولى ١٠٣٤هـ)" [١٦١].

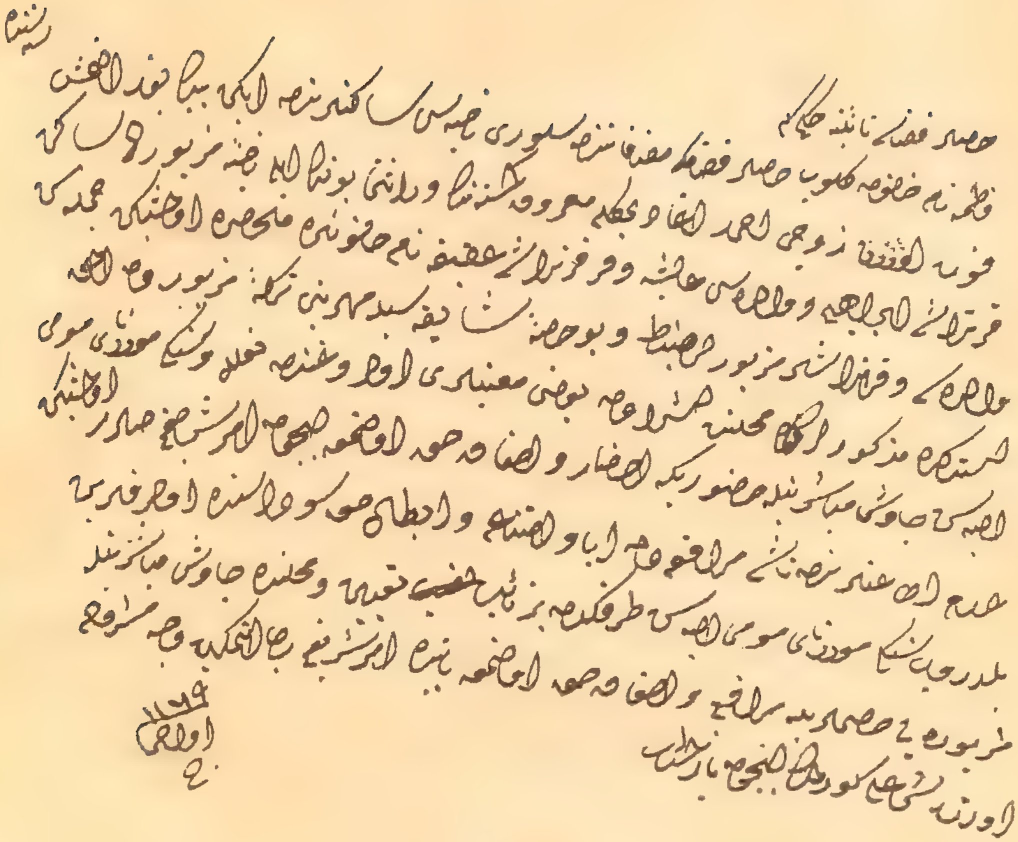
وإذا كانت الفتاة قاصرة عند عقد الزواج تظلّ مع عائلتها حتى الرشد، ثم تُزفّ تاركة عائلتها للعيش مع زوجها، وإذا بلغت سن الرشد وكرهت زواجًا وُثّق نيابة عنها، يمكنها أن تشكو أمرها للمحكمة لتبطله، ومن الأمثلة على ذلك:

"عائشة بنت مصطفى باشا: لقد بلغتُ سنّ الرشد، وأنا لا أقبل هذا الزواج الذي دَبَّره عمي محمود، وأريد إبطاله، وقد عينت أمير علي بن حامد وكيلًا لي في الأمور كلها وقد قبل علي الوكالة. (٤١-٢- ١٢ جمادى الأولى ١٠٢٧هـ)" [١٦٢].

عقد الزَّواج

كان لا بد أن يُسجَّل اسما العروسين والأوصياء أو الوكلاء والشهود عند الزواج كي يصبح رسميًا، ويحدد في العقد مقدار الصداق المقدم إلى العروس والشروط الواجبة في هذا الزواج، وكان تحديد الشروط مهمًا جدًّا خاصة للعروس؛ لأن الوفاء بها مسؤولية عروسها قانونًا، فتكتسب دعمًا يمكنها استخدامه إذا لزم الأمر مستقبلًا.





[الحكم الصادر حول حل النزاع بين ورثة شخص توفى في مدينة سيليفري على الميراث بحضور العريف ومعه القاضي الذي عينه في المدينة نفسها.

حيث رفعت سيدة تدعى فاطمة دعوى لطلب صداقها ضد حماها وحماتها لاستولائهما على حقها في الميراث عقب موت زوجها أحمد أغا.]

(دفاتر أحكام إسطنبول: الحياة الاجتماعية في إسطنبول ٢ (١٧٥٥م-١٧٦٥م)، كليات إسطنبول الرابعة، مركز أبحاث إسطنبول، الحكم رقم ١٩٣/٧١/٤.)

الصداق

من الشروط الواجب إدراجها في عقد الزواج مقدار الصداق المدفوع للعروس، وبصفة عامة ينقسم إلى قسمين: الصداق العاجل يجب دفعه قبل الزواج، وإلا فلن تذهب العروس إلى منزل زوجها، أما الصداق الآجل، فهو المقدار الواجب دفعه في حالتي الطلاق أو وفاة الزوج؛ فشكل رادعًا عن الطلاق؛ إذ في حالة الطلاق يكون الزوج مسؤولًا عن دفع هذا المال، وكانت التفاصيل الخاصة بقيمة الصداق وكيفيّة دفعه تحدد بوضوح في العقد لمنع أيّ نزاع قد ينشأ في المستقبل.

كان الصداق عادة نقودًا ذهبيّة أو فضيّة، وكان الأثرياء يقدمون أيضًا بعض العقارات والجواهر، وهو ملك للعروس فقط على نقيض الدِّرَاخُومَا (مال يُدفَع للزوج عند اليهود والنصارى)، أو المهر الذي يقدم لوالد العروس. فلا يمكن للزوج استعماله ألبتة دون إذن صريح منها، وأسفله ذِكْر لأحد المهور في إحدى المحاكم الشرعية في مدينة الإسكندرية بمصر عام ١٥٥١م:

"دُفع أربعون قطعة فضّية للعروس فَرْحَانَه، وقد أقرت أنها أخذت نصف هذا المبلغ وتركت النصف الآخر صداقًا آجلًا (جامع الحكيم ٩٥٧هـ/١٥٥١م؛ ١: ١٨٣-٨٢٤)"[١٦٣].

وإذا رفض الزوج دفع الصداق لزوجته حسب الاتفاق يُسجن، فقد سُجن زوج ستين يومًا لرفضه إعطاء زوجته الصداق العاجل في بُورْصَه وهو سلع منزليّة تبلغ قيمتها ألفًا وخمسة عشر قرشًا.[١٦٤]



النقود المعدنية العثمانية (القرن التاسع عشر) والنقود الورقية (مطلع القرن العشرين)



Brindesi، مركب سفر أمام قلعة رُومَلي
١٨٥٥م-١٨٦٠م

ومن الالتزامات الأخرى في العقد: تحديد مكان الزوجيّة، وإقامة الزوج فيه، وقبول الزوج إذا كان للزوجة طفل من زواج سابق، وتحديد تكلفةٍ لِنفقة الطفل أو الأطفال، ويَعِد الزوج بألا يتزوج بأخرى أو يتخذ جارية، وتحديد المال لملابس الزوجة... إلخ، فإن أخلّ الزوج بالشروط الضرورية يكن الطلاق حقًّا لأي من الطرفين؛ فتستطيع المرأة الحصول على الصداق الآجل وتتنازل عن المال المحدد في العقد، وكان هذا مهمًّا جدًّا لها؛ لأنها لو تقدمت إلى المحكمة للحصول على الطلاق لوجب عليها أن تتنازل عن الصداق الآجل مقابل حريتها، وأسفله نموذج لعقد زواج:

"تزوج أبو الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد من العذراء هجرية بنت خالد بن محمد المغربيّ، على صداق ثلاثين دينارًا سلطانيًّا ذهبيًّا ودفع ثمانية دنانير منه لوالدة العروس (وَرد)، أما الاثنان والعشرون الباقية فقد جُعِلَتْ مؤخَّرًا، وتعهد أبو الحسن بدفع ست قطع فضيّة في الشهر نفقات لملابس العروس، ووافق أيضًا على الشروط التالية: إذا اتخذ زوجة ثانية بأي شكل من الأشكال، أو إذا وجب أن يسافر أكثر من عام، أو إذا هاجر إلى دولة بعيدة، تستطيع أن تأخذ زوجته ربع الصداق الباقي فقط، أمّا إذا قرر الطلاق منها فسوف يُضطر لدفع هذا المال دون نقاش. (البَارْمَشِيَّة ٩٩٤هـ/١٥٨٩م، ٧٠٧: ١١٣-٧١١)"[١٦٥].





النفقة

الأزواج ملزمون بموجب القانون بتحمل النفقات للطعام والشراب والملبس والمأوى وبالمساعدة في الأعمال المنزليّة والصحيّة وغير ذلك لزوجاتهم وأطفالهم، ومقدار النفقة يتغير تبعًا للمركز الاجتماعيّ والاقتصاديّ للزوج؛ الرجل مسؤول أن يعول زوجته طَوال زواجهما، وبعد ثلاثة أشهر من طلاقهما إذا حدث طلاق، حتى إنه إن تغيَّب، تحمل أيضًا تبعات النفقة سواء عُلِمَ مكانه أم لم يُعلم، وفي الحالة الثانية تمنح الزوجة قرضًا بأمر من المحكمة يُلزم الزوج بسداده.

إذا رفض الزوج الإنفاق على زوجته، تستطيع المرأة تقديم شكوى إلى المحكمة، ويصدر القاضي أمرًا للزوج ليدفع الأموال اللازمة، وخير مثال على ذلك حالة السيدة شريفة أمينة من مدينة بُورْصَه (Bursa):

"قدَّمت عريضة إلى المحكمة؛ لأنّ زوجها لم يُعِلْها، فمنحتها المحكمة مساعدة ماليّة تقدر بمئتي آقْجَه شهريًّا"[١٦٦]، *وقد ورد في سجل قاضٍ آخر في قَيْصَرِي ادعاء للسيدة "جَنّتْ" ابنة الشيخ محمد أفندي ما يلي: "أنا زوجة عبد الفتاح بن عبد القادر في حي "كُولْلُوكْ (Güllük)" وقد اختفى منذ فترة طويلة، وأطلب المساعدة لتوفير نفقات معيشتي، وقد طُلب من "جَنّتْ" أن تقسم بأن زوجها لم يترك لها مالًا، ثم خُصّص لها خمس عشرة آقْجَه يوميًّا، وسُمح لها أن تقدّم عريضة لطلب قرض من المحكمة (٢٥ ٤٨-٢؛ ٤ ربيع الثاني ١٠٣٤هـ)"*[١٦٧].

وقد توصل أحد المؤرخين الباحثين في سجلات القاضي المسجلة بين عامي ١٨٨٠م-١٩٠٦م في "كيرْشَهِرْ (Kırşehir)" إلى النتيجة الآتية:

"عند فحص السجلات تبين أن القاضي كان يطبق القوانين حرفيًّا، وخصَّص مساعدة ماليّة يوميّة لصاحبة الدعوى وفقًا لأحوال العصر تحت اسم "قيمة النفقة والكسوة"، وتبين أن الزوج كان مسؤولًا عن دفع هذا المال"[١٦٨].





غلاف المصحف الشريف،
متحف قصر "طُوبْ قَابِي"



Preziosi، النساء في نزهة ١٨٦١م

الطلاق، والزواج مرّة أخرى

كان الطلاق الأكثر شيوعًا أن يرفض الزوج زوجته، وكان بوسعه أن يعيد زوجته السابقة مرّة أخرى بعد الطلاق الأول والثاني، ولكن لا عودة بعد الطلاق الثالث، حتى تنكح زوجًا غيره ثم تطلق، وحينئذ يحق لها الحصول على الصداق الآجل المذكور في عقد الزواج، وعلى نفقة من زوجها السابق فترة العدة، وعلى الديون المستحقة على الزوج.

ومن أنواع الطلاق الخلع، بناء على رغبة المرأة فقط، أو رغبة متبادلة أيضًا، وإذا وافق الزوج على الطلاق، فإن المرأة تتنازل عادة عن حقها في الصداق الآجل، حتى إن بعض الحالات دفعت فيها الزوجة لزوجها مقدارًا من المال أكبر مما ينبغي له، وفي حالات، مثل: الإخلال بعقد الزواج، والعنة، والهجر، وعدم إعالة الزوجة، وعدم القيام بالواجبات الدينيّة، والقهر، والمرض العضال، فإن المحكمة تطلق الزوجة من دون أن تتنازل عن حقوقها الماديّة، ولو رفض الزوج تطليقها[١٦٩]، وأدناه أمثلة من سجلات بعض القضاة تضمنت دعاوى طلاق بالخلع:

"قامت أمينة بنت محمد بتعيين ولي أفندي وكيلًا لها للحصول على الطلاق من زوجها عبد الرحمن بن حَاجِي مصطفى بالمخالعة، وتنازلت عن الصداق والنفقة، وأخذت مُلاءة سرير ولحافًا، (٢٣ ٢-٣؛ ١٣ شعبان ١٠٣٢هـ)".

"يشهد صالي بن علي ومصطفى بن علي أنّ علي ابن أُمَّت قد قال: إنه سوف يطلق زوجته السيدة قمر الله إذا ما تنازلت عن حقّها المالي (٢٢ ٢٦-١٠؛ ١٢ من ذي الحجة ١٠٣٠هـ)".

"أكدت ربيعة بنت علي في حضور زوجها عبد الرحمن بن هِمَّت في حي كُولُلوكْ علي ما يلي: لقد أعطاني نصف المنزل في الحيّ صداقًا، ولكنني أعدته إليه؛ لأننا لم نتوافق معًا، وأتنازل عن الصداق كله والنفقة وحقوقي الزوجية، وقد خلعني، وأخذت بضعة أثواب وقرشين، وسوف تبقى ابنتي الصغيرة جميلة معي حتى بلوغها سن التاسعة (٢٤ ٣-٥؛ ٢٨ من جمادى الثاني، ١٠٣٢هـ)".



"أقر هداية الله بن سلطان خُوجَه في حضور زوجته آيَنَه بنت عبد الله التي عينته وكيلًا للتصديق على ما يلي: إننا لم نعش معًا بالفعل، وعندما تتنازل عن الصداق ونفقة العدة وحقوقها الزوجيّة الأخرى، سوف أطلقها بالخلع، وقد أعطيتها بعض الأشياء قيمة الخلع (٢٧ ٢٨-٥؛ الثاني من رمضان ١٠٣٥هـ)"[١٧٠].



ونتيجة للدراسات عن سجلات القاضي العثمانيّ، فقد ظهرت مئات الآلاف من وثائق الزواج والطلاق والزواج مرة أخرى، وتبين من هذه الوثائق أن الطلاق لم يكن نادرًا، وأن المطلقات يتزوجن مرة أخرى بعد انتهاء عدتهنّ عادة، ومن الواضح أن المجتمع كان متسامحًا؛ لا ينظر بازدراء إلى المطلقة أو الأرملة، حتى إن البوائن بينونة صغرى كنّ يُعَدْن أحيانًا إلى أزواجهن مرة أخرى، وفي مثل هذه الحالات يشترط دفع الصداق مرة أخرى، وربما وُضعت شروط جديدة في عقد الزواج مرة أخرى للحيلولة دون تكرار المشكلة، وأسفله وثيقة دعوى مثالًا على ذلك:

"بعد موافقة لطيفة بنت علي بن موسى على الزواج مرة أخرى من يحيى بن عبيد بن علي، دفع أربعة دنانير ذهبيّة لها صداقًا جديدًا، ووافق زوجها على دفع خمس عملات فضيّة لها شهريًّا لنفقات الملابس، مقابل أن تتنازل عن حقها البالغ قدره أربعة عشر دينارًا ذهبيًّا وهو دينها على زوجها من الزواج الأول، وقد وضعت لطيفة الشرط التالي للزواج من زوجها مرة أخرى: إذا أراد الزوج في أيّ وقت الزواج مرة أخرى بمطلّقة أخرى له، تكون لطيفة بائنة منه بينونة كبرى، فلا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره (سجلات مصر القديمة، ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م، ٩٥ :٢٢٣-١٠١٠)" [١٧١].

تعدّد الزوجات

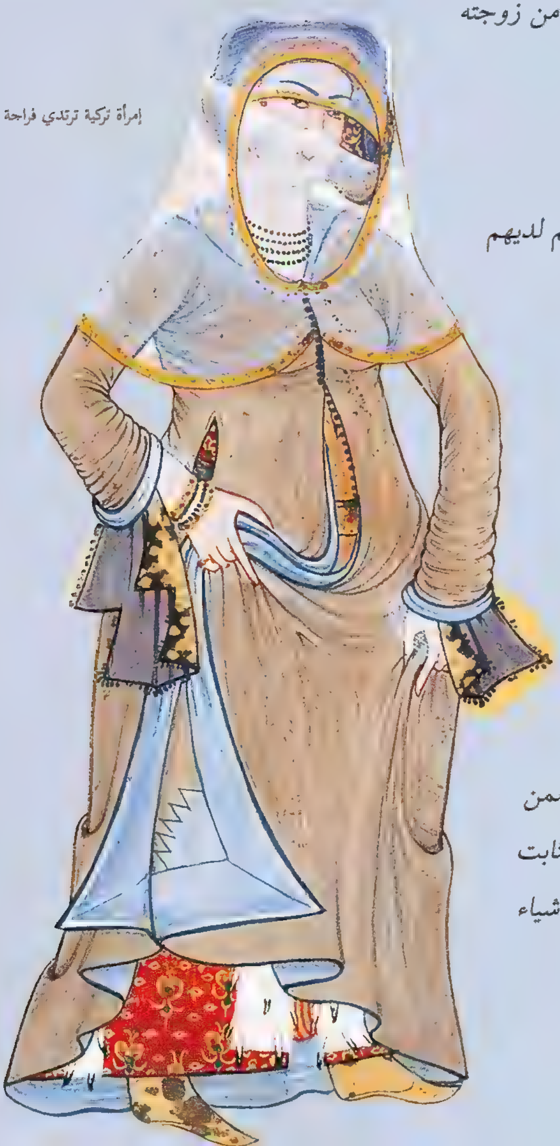
كما ذكرنا سابقًا، فإنّ النساء العثمانيّات أخذن العهود على أزواجهن في عقد الزواج الأول أو غير الأول بأنهم إذا اتخذوا زوجة أخرى يصبحن طوالق منهم، وقد شكل ذلك مانعًا لتعدّد الزوجات، ولكن على الرغم من ذلك، فإنّ اتخاذ أكثر من زوجة كان من أكبر أسباب الطلاق[١٧٢]، وربما كان عدم انتشار التعدد في المجتمع العثمانيّ راجعًا لهذا السبب، ورغم أنّ تعدد الزوجات ممكن قانونًا إلا أنه لم يكن مرحبًا به في المجتمع، والدراسات العلميّة وما كتبه كثير من الرحالين توثق ذلك أيضًا، وكانت تعليقات الرحالين الأوربيّين حول تعدد الزوجات كما يلي:

م. دي م. دي اوهسون:

"كان هناك عدد قليل جدًّا من المسلمين متزوجًا باثنتين، خاصة أنّ مصادفة شخص ثريّ متزوج بأربع زوجات كانت أمرًا نادرًا، لعدة أسباب، مثل: صعوبة إعالة أكثر من زوجة، وفقدان الهدوء داخل منزل لا تستطيع الزوجات فيه أن تتوافق، ورفض الآباء والأمهات تزويج بناتهم برجال متزوجين كان يشكل عقبة أمام التعدد وإن سمح به القانون، وغالبًا كان الرجال فقط هم من يتعهدون بعدم الزواج بامرأة أخرى" [١٧٣]

لوسي جارنيت:

"رغم أنّ الإسلام قد سمح للرجل بالزواج بأربع نسوة وأن يتخذ من الإماء ما يشاء إلا أن كثيرًا من الإماء لم تكن لهن علاقة قطّ بسيدهنّ في العائلات العثمانيّة على عكس ما يعتقده الغربيون، وفي الواقع فإن الزوجة الواحدة مبدأ بين الأتراك العاملين اليوم؛ فزواج أحد النخبة بأكثر من زوجة نادر الحدوث، وهذا هو الحال تقريبًا بين المسلمين؛ فلا يقدم الأتراك على تحمل كثير من النفقات وتعريض طمأنينة بيوتهم للخطر إلا إذا كانت زوجاتهم الأُول عُقُمًا؛ فيضطرون إلى الزواج بامرأة أخرى، وفي الواقع فإن الزواج باثنتين كان يُعدّ حدًّا أقصى، وبالرغم من زيارتي كثيرًا من الأماكن في الإمبراطوريّة العثمانيّة سنوات كثيرة، فقد صادفت مرة واحدة فقط في الحَرَم العثمانيّ زوجتين فقط، وقد قمت بزيارة قصيرة من إزْمِيرْ لمَانِيسَه (Manisa) إحدى مدن الأناضول المليئة بالجمال التاريخيّ، وكان حَرَم الدار المقصود لأحد شيوخ المولويّة، وكان لقب شيخ وراثيًا إذا أمكن ذلك، ولم يكن لديه أطفال قطّ من زوجته الأولى منذ اثني عشر عامًا، أما الزوجة الثانية فكانت عروسًا منذ بضعة أسابيع"[١٧٤].


إمرأة تركية ترتدي فراجة

آنا بومان دود (Anna Bowman Dodd):

"الرحالة الغافل يخجل من نفسه، إذا علم أن جميع الأتراك الذين تعرف عليهم لديهم زوجة واحدة، رغم أن الرجل التركيّ يخجل قليلًا؛ لخيبة أمل الأوربيّ"[١٧٥].

ز. دوكيت فريمن:

"ثمة افتراض آخر خاطئ تمامًا أن جميع الرجال في تركيا متعددو الزوجات، في حين أن هذه حال استثنائيّة، تتناقص تدريجيًا مع مرور الأيام، ورغم السماح به شرعًا إلا أن المرء مهما عاش في المجتمع العثماني، فلن يصادف بسهولة شخصًا متعدد الزوجات، فنفقات الزواج لشخص ليس ثريًا بما فيه الكفاية تُعَدّ رادعًا قويًا؛ إذ يجب على الزوج وَفقًا للقانون توفير شقة منفصلة، وخدم منفصلين، وكل الأمتعة اللازمة للمنزل لكلّ زوجة، أي: باختصار توفير مكان منظم لكل زوجة، وتعدد الزوجات في الواقع ليس في إمكان الغالبيّة العظمى، أما الأثرياء جدًّا ممن لديهم مقدرة على تأسيس منزلين منفصلين، فالمسألة تتفاوت تبعًا للظروف، ومن الثابت أيضًا أن الرجل التركيّ -كغيره- يرغب في أن يكون منزله هادئًا، والهدوء هو أحد الأشياء المولع بها كثيرًا... ونتيجة لذلك يستمرون دون تعدد"[١٧٦].

ليدي مونتجو:

"المرأة التركيّة ملكة جواريها، ولا يجوز للزوج أن ينظر إليهن ما عدا امرأة أو اثنتين من العجائز تختارهما له الزوجة، حقًّا إنّ الرجل يمكن أن يتزوج بأربع، لكن ما من رجل من النخبة يستخدم هذا الحقّ؛ فلا سيدة نبيلة تتحمل مثل هذا الألم، ومن النخبة الذين تعرفت إليهم هنا مسؤول سجلات المالية، كان يحتفظ بجوارٍ لنفسه -بالطبع يبقيهنّ في الجزء الخاص به من بيته؛ لأن جواري الزوجة تحت إمرتها هي فقط-، وكان يوصف بأنه أحد الفجرة، ورغم بقاء زوجته في منزله إلا أنها لا تنظر في وجهه ألبتة"[١٧٧].

والدراسات العلمية الخاصة بسجلات القاضي أيضًا تؤكد أفكار الرحالين الأوربيّين أنّ تعدد الزوجات في الإمبراطوريّة العثمانيّة كان أمرًا نادرًا، إلا إذا كانت الزوجة الأولى عقيمًا فقط، ويتبين أن هذه هي الحالة الوحيدة السائغة بين الناس لتعدد الزوجات، ولكن الأسرة الملكيّة لم تعارض تطبيق سياسة تعدد الزوجات من أجل استمرارها.

وها هي دراسة عن سجلات القاضي في بُورْصَه في القرن السابع عشر، ووفقًا لها، فإن ١٪ فقط من العثمانيّين له أكثر من زوجة:

"عندما ننظر في سجلات القاضي في بُورْصَه في القرن السابع عشر نرى صورة لامرأة تختلف كثيرًا عن الصورة النمطيّة للمرأة، وعندما درسنا القانون الخاص بعدد الزوجات، وجدناه مثيرًا جدًّا للاهتمام، فعندما نظرنا في قوائم التركة المفصلة للأشخاص المتوفين في القرن السابع عشر في مدينة بُورْصَه، واستقصينا ذلك، قدمت لنا القوائم معلومات مفصلة عن أسر المتوفين، مثل: الزوج والأطفال، وبدراستنا لأكثر من ألفي تركة، حدّدنا عشرين شخصًا فقط منهم كانوا متزوجين باثنتين أو أكثر، ووفقًا لذلك فمن الواضح أن تعدد الزوجات في بُورْصَه صحيح على الأقل من الناحية النظريّة فقط"[١٧٨].

والدراسات الأخرى عن بُورْصَه تشير إلى أن النتائج السابقة أيضًا ليست الوحيدة، فوفقًا للأدلة من سجلات القاضي في القرن السادس عشر، فإن نسبة تعدد الزوجات وقتئذ بلغت نحو ٢٪ بينما أشارت دراسة أخرى متعلقة بمنتصف القرن السابع عشر إلى أن هذه النسبة بلغت ٤٪، ودراسة ثالثة عن سجلات القاضي بين عامي ١٨٣٩م-١٨٧٦م تؤكد صحة الاستنتاج القائل بنسبة ٢٪، ويكون ذلك في أضيق الحدود[١٧٩].

ويقول روبرت سي جينينغز (Robert C. Jennings) بعد دراسة سجلات القاضي في "قِبْرِصْ (Kıbrıs)" بين عامي ١٥٧١م-١٦٤٠م:

"هناك أدلة قليلة جدًّا على تعدد الزوجات، وفي حدود ضيقة جدًّا"[١٨٠]، ويذكر المؤلف أيضًا في دراسة أخرى عن سجلات القاضي في قَيْصَرِي دراسةً أجراها مؤرخ آخر حول قوائم التركة بين عامي ١٥٤٥م-١٦٥٩م في أَدِرْنَه، ووفقًا للنتائج فإن ٩٢٪ من الرجال المتزوجين لهم زوجة واحدة فقط، و٧٪ متزوجون باثنتين، وأقل من ١٪ متزوج بثلاث زوجات، ولا متزوج بأربع[١٨١].

وتشير دراسة أخرى حول سجلات القاضي في إسطنبول بين عامي ١٨٨٥م-١٩٠٦م أنّ تعدد الزوجات بلغ ٢٪ أيضًا[١٨٢]، وفي دراسة منفصلة عن سجلات القاضي في القرن السابع عشر كانت نسبة المتزوجين بزوجة واحدة ٩٢٪، وهذا يدعم أيضًا النتائج الأخرى، ووفقًا للبيانات فإن مئة وخمسة عشر طفلًا قد ولدوا نتيجة لخمس وتسعين حالة تعدد أي بمتوسط طفل واثنين من عشرة لكل أسرة، وهذه الأرقام تشير إلى أن الرجال المتزوجين مرة أخرى قد لجؤوا إلىٰ ذلك لإنجاب الأطفال، ونتيجة للدراسات في مدن إسطنبول، وأَدِرْنَه، بُورْصَه، وأَنْقَرَة ودمشق وغيرها من مدن الإمبراطوريّة، فقد لوحظ أنّ هناك انحرافًا في نسبة تعدد الزوجات ٧٪ فقط[١٨٣].

ويعد لجوء النساء العثمانيّات إلى المحكمة أحد الأسباب التي تحد من نسبة تعدد الزوجات، وكان يتبين لنا موقف بعض النساء بشأن هذه المسألة من الفقرة التي أضفنها في عقد الزواج الناصّة على أن الزوج إذا تزوج بزوجة أخرى تعدّ الزوجة الأولى طالقًا مع احتفاظها بحقوقها الماليّة، وبحقّها في رفع دعوى للطلاق، وكانت هناك أيضا اعتبارات أخرى تقيد تعدد الزوجات، مثل: كثرة التكاليف اللازمة لتأثيث منزل مستقل لأكثر من زوجة واحدة، وفقدان الهدوء في المنزل، وعدم تزويج العائلات بناتهن برجال متزوجين كما ذكر الرحالة الأوربيّون.

تعدّد الزوجات سمحت به الشريعة الإسلاميّة، فلماذا يتجنب كثير من الرجال العثمانيّين التعدد إلى هذا الحدّ؟ لا يستطيع المرء أن يفهم ذلك دون أن يفكر في وجود رادع يمنعهم من ذلك، وقد وضع القانون في النهاية حدودًا لذلك، وأكد ما ينبغي أن يفعله الرجال والنساء في الإمبراطوريّة العثمانيّة، لكن عليهم الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية ليعلموا ما يجب عليهم فعله؛ فالقرآن يسمح بالزواج بأربع زوجات، لكنه يوصي باتخاذ زوجة واحدة فقط[١٨٤] إن خاف الزوج من الجَور، جاعلًا العدل شرطًا لتعدّد الزوجات، ولصعوبة تحقيق ذلك وإن بذل الفرد قصارى جهده؛ فإنّ هذا يعد تشجيعًا للاقتصار على زوجة واحدة لتجنب الظلم.



من المؤكد أنّ الزواج الأوّل في حياة النبيّ ﷺ كان الزواج الأُحاديّ؛ فقد تزوج بزوجته الأولى خديجة ﵂ واستمر على ذلك خمسة وعشرين عامًا حتى وفاتها في الخامسة والستين من عمرها، وكان عام وفاتها عامًا حزينًا مؤلمًا عرف في التاريخ الإسلاميّ باسم "عام الحزن"، ثمّ تزوج النبيّ مرتين بناءً على تشجيع الصحابة، وأول امرأة تزوجها هي السيدة سودة بنت زمعة ﵂ كانت أرملة في الخمسين من عمرها تقريبًا، وأمضت سائر عمرها في بيت النبيّ الكريم، أمّا الزوجة الثانية فكانت عائشة ﵂ حديثة السنّ جدًّا حينئذ، وانتظر ثلاث سنوات حتى البناء، والنقطة المهمّة هنا تعرّف الزوجتين بعضهما إلى بعض وقبولهما تعدد الزوجات من البداية، وهذا حقّقه الرسول الكريم ﷺ مع زوجاته فيما بعد[١٨٥].

لكن النبيّ محمد ﷺ لم يسمح لصهره عليّ باتخاذ زوجة ثانية ضرّة لفاطمة ابنته في حياتها؛ لعلمِه بما يسوؤها في هذا الشأن؛ جاء في كتب الحديث النبويّ: "أنّ عليًّا خطب بنت أبي جهل فسمعت بذلك فاطمة، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا عليّ ناكح بنت أبي جهل، فقام رسول الله ﷺ، فسمعته حين تشهد يقول: **أما بعد، أنكحت أبا العاص بن الربيع، فحدثني وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني، وإني أكره أن يسوأها، والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجل واحد**. فترك عليّ الخطبة"[١٨٦].

أكّد مدى ما يسببه التعدد من ألم وضرر للمرأة غير الراضية عنه؛ وأعلن بوضوح أن زواج عليّ (كرم الله وجهه) من امرأة أخرى إنما يكون ممكنًا بعد طلاق فاطمة، وقد قال بعض العلماء: إن رفض فاطمة لهذا الزواج لا يرجع إلى نزول امرأة أخرى عليها، لكنه راجع لكون العروس ابنة أبي جهل، لكن امتناع علي (كرم الله وجهه) عن الزواج بأخرى حتى وفاة فاطمة يشير إلى أنها لم ترد امرأة أخرى؛ أيًّا ما كان السبب فإن النبيّ ﷺ قد منع عليًّا من الزواج بأخرى؛ لتجنب الأضرار التي ستلمّ بابنته، وظلت هذه الحادثة نصب عيون النساء والرجال العثمانيّين لم تغب عنها قطّ، وبالفعل اشترطت الغالبيّة العظمى من النساء تعهدًا في عقد الزواج يقضي بطلاقهنّ إذا ما تزوج أزواجهن بزوجة أخرى مع احتفاظهن بحقهن في الصداق.

العَلَم، متحف قصر "طُوبْ قَابِي"





ضرب المرأة

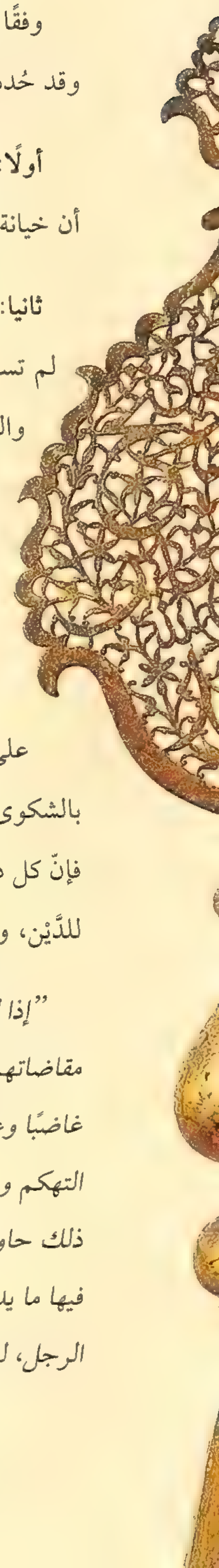
وفقًا للقوانين الإسلامية التقليديّة الفعّالة لدى العثمانيّين يُسمح بضرب المرأة ضربًا خفيفًا، وقد حُددت بوضوح أسباب ذلك وإلى أيّ مدى يمكن أن يحدث:

أولًا: ينبغي أن يكون هناك سبب قويّ جدًّا لضرب المرأة ضربًا غير مبرح، وقد ذكر في القرآن أن خيانة المرأة والسلوك السيئ من أسباب ذلك[١٨٧].

ثانيا: لا يُسمح للرجل بضرب زوجته غاضبًا، بل يجب أن يحذرها شفهيًا في البداية، فإن لم تستجب، يهجرها في المضجع، فإن أبت إلا جماحًا، ضربها ضربًا غير مبرّح، دون الوجه والرأس، غير ضارّ بها بكسور أو جروح أو كدمات، وكانت سنة الرسول الكريم ﷺ القوليّة والفعليّة أحد المصادر الأساسيّة للشريعة الإسلاميّة وإحدى الركائز المرجعيّة للمحاكم، وقد ذكرت عائشة ﵂ زوجة الرسول الكريم أنّه ﷺ "ما ضرب شيئًا قطُّ بيده، ولا امرأة، ولا خادمًا"[١٨٨].

كانت النساء العثمانيّات وكذلك مجتمعهنّ على بينة من حقوق المرأة، فإذا لم يكن على النساء من حق في ضرب أزواجهن -وتلك هي حالة العنف الجسديّ ضدهنّ- قمن بالشكوى إلى القاضي، فكان يأمر بحبس الأزواج، حتى إنه يمكن أن يأمر بضربهم، ورغم ذلك، فإنّ كل دعوى تختلف وَفقًا للأحوال الخاصّة بها، وقد تعجب تاجر ألمانيّ حُبس بسبب عدم دفعه للدَّين، وهو يصف هذا الموقف الذي كان شاهدًا عليه:

"إذا لم يدفع الرجال حقوق زوجاتهم، أي: لم يهتموا بهنّ أو أحبّوا امرأة أخرى، يحقّ للزوجات مقاضاتهم، وقد جاء إلى السجن -إبّان حبسي- بعض المقدَّمين للمحكمة لهذه الأسباب، وكان غاضبًا وعدوانيًّا نافد الصبر، فهدّأناه وأجلسناه على كرسيّ وقدمنا له الماء، وأخذناه بيننا وحالته تثير التهكم والسخرية؛ فتألمنا لحاله، وبدأ يهدأ تدريجيًا، فلمّا صبر تحسنت حالته سريعًا، وفي غضون ذلك حاول أصدقاؤه أن يصلحوا ما بينه وبين زوجته؛ وبعد ثلاثة أيام أو أكثر صار في حالة ليس فيها ما يدعو إلى السخرية؛ صار حرًّا طليقًا لا بأس عليه، ولو مررنا -نحن الألمان- بما مرّ به ذلك الرجل، لعكفنا على ضرب زوجاتنا طوال اليوم"[١٨٩].



تفاصيل النسيج، متحف قصر "طُوبْ قَابِي"



Preziosi، امرأة تركية وطفلتها ١٨٦١م

إن تجاوز الزوج مع زوجته لما حدّدته الشريعة الإسلاميّة وضربها ضربا مبرّحًا أو ضربها في الأماكن الممنوعة كان سببًا كافيًا لشكوى المرأة أيضًا، فإذا قدّمت المرأة الأدلة اللازمة، فإن المحكمة تقف إلى جانبها، وللمحكمة أن تُنذِر الزوج، أو تأمر بضربه، فإن عاودَ ضرْبها بشكل يتنافى مع الشريعة الإسلاميّة، كان ذلك سببًا للطلاق مع احتفاظ الزوجة بحقوقها الماديّة، وفيما يلي أمثلة من سجلات القضاة عن هذا الموضوع:

"بعد أن شهد الإمام النعمان بن عبد الوهاب، وعثمان بن محمد وهمّة بن علي بأنّ عبد الجليل أغا قد ضرب زوجته؛ أقسم الأخير أنه لن يضربها مرة أخرى على نحو مخالف لأحكام الشريعة (٢٣ ١٦-٤؛ عشرون من رمضان، ١٠٣٢هـ)".

"يشهد سيدي أحمد بن محمد وحَاجِي رجب باشا بن محمد أنّ حسنًا قد ضرب زوجته السيدة ظَاهِرَة اليوم ضربًا مخالفًا لما نصت عليه الشريعة، وهذا هو الظلم والطغيان، وقد منح حسن المال لزوجته، وإذا ضربها مرة أخرى بالشكل المخالف، وقع الطلاق. (١٩ ٣٠-١١، الثامن والعشرون من شهر ربيع الآخر، ١٠٢٦هـ)".

"ادعى يعقوب بن يعقوب من حي "آلَاجَه صُولُوكْ (Alaca Suluk)" ما يلي في حضور زوجته صفية بنت حمزة: لم تكن زوجتي صفية معي أربعة أشهر؛ فهي تعيش في مكان آخر، وبوصفي زوجًا، فمن حقي أن تكون زوجتي معي، ولتُسأل هي عن ذلك، تقول صفية: لقد حذّر أحمد أفندي قاضي "أَرْمَنَكْ (Ermenek)" يعقوب بأني سأكون بائنة منه بينونة كبرى إذا ضربني، ووافق يعقوب على ذلك، ولكنه ضربني مرّة أخرى بشكل مخالف لأحكام الشريعة الإسلاميّة، فصرت طالقًا، ولكنه ينكر ذلك، غير أن الشهود علاء الدين بن أحمد أفندي -القاضي السابق- ومحمود بن علاء الدين قد صدّقا على كلام صفية، وأنهما قد سمعا من القاضي أحمد أفندي هذا الشرط الذي اشترطه على يعقوب (قَرَامَانْ (Karaman) ١ ٨-٣، رقم ٢٨)"[١٩٠]

حضانة الأطفال

عادة يبقى الأطفال الصغار مع أمهاتهم بعد الطلاق، الذكور حتى سنّ السابعة، ثم يمكنهم أن يعودوا لبيوت آبائهم، أما البنات فإلى أن يتزوجن، وتحدد المحكمة مقدار النفقة اللازمة للطفل، ويكون الآباء مسؤولين عن دفع النفقة، وفيما يلي مثال على ذلك:

''بعد طلاق آمنة بنت إبراهيم أعطاها القاضي الحنفي حق حضانة ابنها أبي زيد، وحدّد نفقة رعايته بنحو نصف فضة يدفعها الأب لابنه، ولما رفض الأب أن يدفعها، سمح القاضي لآمنة بأن تقترض المال اللازم، على أن يكون مطلّقها مسؤولًا عن ردّ النقود، وتظل حضانة ابنها أبي زيد من حقّها عامين، سواء تزوجت أم لم تتزوج، بقيت في هذه المدينة أو لم تبق، وبعد انقضائهما يجب أن تراجع المحكمة، وعادة تمتد حضانة الطفل في هذه الحالة. (طوبون، السجلات ١٠٠٨ه/١٦٠٠م، ١٨٨-٢٠١)''[١٩١].

وعند وفاة الأب تعين المحكمة وصيًّا شرعيًّا لأبناء المتوفَّى، ورغم أنها تعين وصيًّا من الأقارب إلا أن الوصاية تُمنح غالبًا للأمّ -إن كانت حيّة- حتى مرحلة البلوغ؛ فتكون مسؤولة عن أنواع المعاملات الماليّة كلها الخاصّة بالطفل بصفتها وصيّة عليه، ومن هذه المسؤوليات: رعاية أملاك الطفل الصغير، شراء الممتلكات باسمه، الاستثمارات المالية، تحصيل الإيجارات أو الإيرادات الأخرى، دفع الديون... والدعوى الآتية مثال لهذه الحالة:

''عُيِّنت مؤمنة بنت زين الدين عبد الرحمن أرملة التاجر شهاب الدين وصيّة شرعيّة على ابنتها الصغرى صالحة، ومن الآن فصاعدًا سوف تتولى رعاية شؤون ابنتها، وستراعي مصلحتها، وستقوم بعمليات البيع والشراء جميعها نيابة عنها، ويلقى على عاتقها قانونًا تحصيل المال وإنفاقه، وذلك حتى تصل الطفلة المذكورة إلى سنّ البلوغ وتستطيع أداء واجباتها الدينيّة وإدارة أموالها قانونًا''(القسمة العربية، السجلات ١٠٣٥ه/١٦٢٦م، ٢٧:٥٧-٣٩٤)''[١٩٢].



تجويف في الجدران، Çifte Kasırlar،
متحف قصر "طُوبْ قَابي"

الميراث

تقضي الشريعة الإسلامية بأن للمرأة نصف نصيب الرجل من الميراث، إذا كانا على درجة القرابة نفسها من المتوفَّى، ورغم أن تلك القسمة تبدو ظالمة للوهلة الأولى، إلا أننا إذا أنعمنا النظر، تبين لنا كم هو عادل هذا التشريع! فالرجل مسؤول مسؤولية كاملة عن زوجته وأمّه عند الضرورة والأخوات الطوالق أو الأرامل أو الأوانس حتى العمّات والخالات، ثمّ كيف تنفق النساء ميراثهن وهنّ طاعمات كاسيات مكفولات؟

وتشير الدراسات إلى حماية حقوق المرأة في الميراث بعناية، وعند الخلاف في حصص الميراث كانت المرأة تستطيع الذهاب إلى المحكمة لحسم الأمر، بل يمكنها أن تكتب عريضة إلى الديوان السلطانيّ، وفيما يأتي نموذج لتسجيل دعوى:



Zonaro، حنان الأم.
متحف قصر "دُولْمَا بَهْجَة"

"قرار لقضاة "بَيْلَرْبَيِي (Beylerbeyi)" و"طِرَابْزُونْ (Trabzon)" و"قِيرَسُونْ (Giresun)"، المدعوّ سليمان الساكن في قِيرَسُونْ، المتزوج، قضت المحكمة بنفقة ماليّة لزوجته؛ إذ يعيش منفصلًا عنها، ولكنها توفيت دون ما قُرِّر لها، وابنتها تعيش في طِرَابْزُونْ، وقد تقدمت بطلب في إسطنبول للحصول على المساعدة الماليّة وصداق والدتها، فأُرسل إليها ما طلبته؛ لأنه ميراثها شرعًا، لكن أباها سليمان انتحل الأعذار وامتنع عن تقديم المال، ورغم أن القاضي أرسل إليه أحدهم لدفع الأموال إلا أنه أصرّ على عدم تسديد المبلغ، ولم يبالِ بأوامر الشريعة، وهذه الحالة قُيدت رسميًّا ووُثّقت؛ ولهذا السبب أمرت بإحضار المدعوّ سليمان إلى المحكمة في طِرَابْزُونْ، وإلزامه بدفع ما امتنع عن دفعه بذرائع كاذبة إلى زوجها الذي عينته وكيلًا لها قبل وفاتها، (التاريخ التقريبي: ١٠٥٦هـ)"[١٩٣].

يُعدّ الميراث مصدرًا مهمًّا للأمن المالي؛ لذا فقد كانت النساء العثمانيّات يتصرفن بشكل حذر جدًّا لحماية هذه الحقوق القانونيّة، وخلص هايم جربر (Heim Gerber) في دراسة عن سجل القاضي في بُورْصَه إلى ما يلي:

"كلّ هذه الدعاوى تشير بوضوح إلى أنّ الرجال لم يكونوا غافلين عن إمكانية أن تُحرم النساء من حقوهنّ في الميراث، ولكن في الوقت نفسه نرى عن طريق هذه الدعاوى أيضًا أنّ النساء كنّ قادرات على تنفيذ القوانين الإسلاميّة للميراث ليس من الناحية النظريّة بل على النقيض من ذلك بشكل عمليّ جدًّا"[١٩٤].

حقوق الملكية

كان للنساء العثمانيّات حقّ الحصول على الممتلكات بما يرينه مناسبًا لهنّ دون تدخل من أقاربهنّ الذكور ولو كانوا أزواجهنّ وكذلك حقّ إدارة هذه الأملاك أو بيعها، وما تُغلّه عليهنّ الممتلكات من إيرادات تكون خالصة لهنّ، ولا يجوز لأي شخص ألبتة أن يبيع أو يؤجّر أو يستخدم الأملاك الخاصّة بالمرأة دون الحصول على موافقة منها؛ إذا حدث شيء من هذا القبيل، يمكن للمرأة أن تتقدم بعريضة تشتكي هذا الانتهاك للمحكمة، وفي الواقع لقد سلك كثير جدًّا من النساء هذا المسلك.

"حسين بن حسين وكيل أمينة بنت حَاجِي موسى مستعد: عندما كانت موكلتي في سنّ صغيرة، باع الوصيّ منازلها في حيّ حمّام السلطان لحَاجِي حسن، وهي الآن راشدة وتريد استعادة منازلها، فأمرت المحكمة بإعادة المنازل لها. (٢٣ ٤٨-٨، ٩، ١٦ محرم ١٠٣٣هـ)."[١٩٥]

وكان الأبوان كلاهما أو أحدهما يرفعان بعض القضايا نيابة عن ابنتهما بسبب الممتلكات التي استولى عليها زوجها:

"قدمت امرأة تسمى بَانَفْسَه (Banafse) عريضة في ربيع الأول عام ١٠٨٥ه - أبريل/نيسان ١٦٧٥م، اشتكت من أن صهرها يَنيجَرِي (Yeniçeri) خليل استولى عنوة على المنزل والمزرعة ميراث ابنتها فاطمة من زوجها المتوفى" (الميجر (Majer) ١٩٨٤، فل. ٢٥أ، رقم ٤)"[١٩٦].

وكما كانت النساء قادرات على الحصول على أيّ من الممتلكات عن طريق الميراث أو الشراء كان بمقدورهن أيضًا أخذها من أزواجهن صداقًا أو هدية، وقد تصرفت النساء العثمانيات بإيجابيّة كبيرة جدًّا في أمور تأجير العقارات وشرائها وبيعها؛ فكان ذلك مصدرًا مهمًّا للأمن الماليّ عندهنّ، وقد تبين من الدراسات عن قوائم العقارات في بُورْصَه في القرن السابع عشر أن ثلث النساء محلّ الاستطلاع امتلكن منازل.[١٩٧]

ووفقًا لسجلات القاضي في قيصري "فإنّ نساء قيصري حُزْنَ مِساحة كبيرة جدًّا من الأراضي والعقارات في المدينة"، فمثلًا كانت امرأة واحدة تورِّث على الأقل ملكية لـ٤٠٪ اثنتين وست مئة وألف قطعة أرض[١٩٨].

وفي دراسة عن سجلات القاضي في حلب في القرن الثامن عشر تبيّن أن ٦٣٪ من النساء يشغلن مكانًا في عمليات البيع التي شملتها الدراسة[١٩٩]، وقد أكّدت إحصاءات المؤسسات الدينيّة أيضًا المهارات التي أظهرتها النساء العثمانيّات في جمع الأملاك، وفي الواقع فإن ٣٦٪ من الأوقاف قد أسّستها النساء وفقًا للسجلات في إسطنبول عام ١٥٤٦م[٢٠٠]، بالإضافة إلى تملك السيدات العثمانيّات في كلّ المجالات من حدائق الفواكه حتى البساتين والمحلات التجاريّة؛ إذ امتلكن أيضًا الآلات الزراعيّة والثروة الحيوانيّة والسلع المنزليّة، والملابس، والمنسوجات، وغير ذلك، والرقيق؛ وكما كسبن أموالًا كثيرة في الاستثمارات، قدمن أيضًا قروضًا كثيرة بشكل رسميّ[٢٠١]، كلّ ذلك يشير إلى الأنشطة الجادّة للمرأة في المجتمع العثمانيّ من الناحية الماليّة.

ويمكننا أن نقول بصفة عامة: إنّ النساء العثمانيّات كثيرًا ما أقمن دعاوى في المحاكم، وإن المحاكم كانت تحمي حقوقهنّ؛ وعند الموازنة بحقوق المرأة الأوربيّة، يتبين أن المرأة العثمانيّة سبقتها بعدّة قرون؛ ففي إنجلترا لم يعدّ الطلاق قانونيًا حتى عام ١٨٥٧م، وحتى عام ١٩٣٦م لم يكن هناك شئ اسمه الخلع، وأعطيت المرأة المتزوجة الحقّ في الملكية في عام ١٨٨٢م، قبل ذلك الوقت كانت ممتلكات المرأة تؤول لزوجها، بل كانت تفقد الحقّ في تمثيل نفسها من الناحية القانونيّة؛ وعند انفصال المرأة الأوربيّة أو طلاقها كان من الممكن أن تُبعَد عن أطفالها، والسيدة اليزابيث كرافن (Lady Elizabeth Craven) التي جاءت إلى الإمبراطوريّة العثمانيّة في عام ١٧٨٦م، وكتبت لاحقًا كتابًا عن هذه الرحلة مثالًا جيدًا على ذلك، والسيدة كرافن التي انفصلت عن زوجها رسميًا أجبرت على إبعادها عن أطفالها السبعة[٢٠٢]، وقد بينت رحّالة أوربيّة أخرى حقوق النساء العثمانيّات في عام ١٩٠٣م قائلة: "هذه الحقوق كثيرة جدًّا، وعند النظر إليها يتبين لنا أنّ الأوربيّات هنّ اللاتي ما زلن في الأسر لا العثمانيّات"[٢٠٣].

٦

المرأة العثمانية في عالمها الخاص

عند النظر في سجلات القاضي نرى أن النساء العثمانيّات كثيرًا ما لجأن إلى المحاكم، حتى إنهنّ أحيانًا قد ذهبن إلى الديوان السلطانيّ في إسطنبول، وطالبن بحقوقهن بحزمٍ وعزم؛ فعندما اقتضى الأمر تركن عالمهنّ الخاصّ، وانفتحن على عالم الرجال، وكافحن للنجاح في إعادة حقوقهنّ المسلوبة، غير أن عودتهنّ لعالم الحريم الخاصّ بيّن لنا أنهن راضيات عن حياتهن تمامًا، حتى إن بعض الرحّالات الأوربيّات ذكرْنَ أن النساء العثمانيّات تألَّمْن لاضطرارهنّ إلى الانخراط في عالم الرجال، وأشارت الدراسات العلميّة أيضًا إلى أن النساء العثمانيّات هنّ مَن اخترن العيش في عالمهنّ الخاصّ.



زمرد طائر العنقاء. تذهيب Ayşe Koç, ٢٠٠٧م



غرفة يَميشْ، قصر "طُوبْ قَابِي".

"تشير الأدلّة المتوفرة لدينا إلى أنّ النساء المحترفات لم يكتفين بدورهنّ في المنزل، فأكسبَهنّ ذلك شخصيّة قويّة، فمثلًا العمائم التي اختارتها النساء في "أَسْكِشَهِرْ (Eskişehir)" لشواهد قبورهنّ ترمز إلى أدوارهن داخل البيت غالبًا، وإلى ما كنّ ينسجنه على أنوال السجاد وحولهن أطفالهنّ، وبالشكل نفسه أيضًا تُبيّن الوصايا المسجلة في بُورْصَه أن النساء قد توحدْنَ مع منازلهنّ، وتقدم لنا السجلات القضائيّة في "قَيْصَري (Kayseri)" في القرن السابع عشر معلومات موضحة أكثر بخصوص هذه المسألة، وفي الواقع فإن ما كانت تُنتجه نساء قَيْصَري في بيوتهنّ ويبِعْنه ثلاثة أضعاف ما يشترينه من مستلزمات النسيج؛ فظهر أن أولئك المحترفات وغيرهنّ كنّ يمِلن بوضوح إلى تفضيل عالمهنّ الخاصّ داخل المنازل على العالم الخارجيّ"[٢٠٤].

تُرى ما هو الشيء الدافع لهن إلى التوحد إلى هذا الحدّ في عالمهنّ الخاصّ بمجتمع يبدو أنه ذو نظام أبوِيّ قويّ؟ ولماذا قبلن -برغبتهن- العيش في عالم منفصل عن عالم الرجال تمامًا؟ وما نظرتهن إلى الحياة؟ وماذا كانت أهدافهن؟ بالتأكيد كان هناك أكثر من سبب يجعل النساء يتجهن إلى المنزل، مثل: تلبية الاحتياجات الماليّة وقيامهنّ بحقوق أزواجهن ومعاونة الأسرة، وعلاوة على هذا كلّه كان هناك في الغيب وازع أكثر قوة يجذبهنّ إلى ذلك العالم الخاصّ بهنّ فقط، وهو مبادئ التصوف؛ فوفقًا لما قاله جمال قَفَادَارْ (Kafadar) من أساتذة جامعة هارفارد (Harvard):

"تشير الدراسات إلى أن سكان الحضر في الإمبراطوريّة في الحقبة التقليديّة وما بعدها كلهم ينتسبون إلى الطرق الصوفيّة ما عدا بعض العلماء"[٢٠٥].

وإذا كانت حقيقة الحال هكذا، فيمكننا أن نفترض أن الغالبيّة العظمى من النساء العثمانيّات قد انتسبن إلى الطرق الصوفيّة وأن مسلك التصوف أثّر بشكل كبير على رؤيتهنّ للعالم.

ووفقًا لتعاليم الصوفيّة، فإن النساء والرجال شركاء في القيم رغم اختلافهم النوعيّ، يوضح ذلك الإمام ابن عربيّ المتصوف الإسلاميّ الشهير (١١٦٥م-١٢٤٠م) فيقول:

*"إنّ النساء كالرجال في مراتب التصوف حتى في درجة القطب، ولو لم يصلنا شيء قطّ سوى كلمات الرسول الكريم ﷺ: "**النساء شقائق الرجال**"[٢٠٦]، لكفانا؛ لأن تلك الكلمات تعني أن النساء بمقدورهنّ أن يصلن إلى ما يصل إليه الرجال -إذا أراد الله- بما في ذلك المقامات والدرجات والصفات"*[٢٠٧].

ومعاملة السلاطين لأمهاتهم مثال جيد للاحترام الذي كان يظهره الرجال العثمانيّون تُجاه أمهاتهم؛ وكانت والدة السلطان هي وحدَها من يُظهر السلطان الاحترام لها أمام الشعب

في الإمبراطوريّة الكبرى، وهكذا كانت الأمهات يُحترمْن جدًّا أيضًا في المجتمع كلّه، ويُضفَى عليهنّ التشريف، وكان هذا الاحترام يتسع ليشمل مَن في كنف الرجل جميعًا، حتى إن بعض الرجال كانوا يشترون الإماء العجائز والمريضات، فيتكفلون رعايتهنّ لوجه الله.

وعندما نأخذ في الاعتبار كلَّ هذه الأمور لن يكون من الصعب علينا أن نفهم لماذا فضّلت النساء العثمانيات التوحّد مع عالمهن الخاص؟ ولماذا أردن أن يندمجن فيه؟

لم تكنِ النساءُ العثمانيّات ينظرن لحَرَم الدار بوصفه عالمَ كبتٍ محدودا، بل كُنّ ينظرن إليه على أنه مكانة تحمي المرأة وتشرِّفها في التسلسل الهرميّ للعائلة؛ وعند هذه النقطة ينبغي أن نوضح أيضًا أنه لم يكن هناك فصل قاطع بين الذكور والإناث في حَرَم الدار العثمانيّة، فالتمييز بين الناس كان بناء على الفارق العمريّ؛ فتأتي في المقدمة والدة الزوج ثم الزوج نفسه، ثم الزوجة ثم الأولاد وفقًا لترتيب ميلادهم، فالابن الأكبر -فتاة كان أم فتى- كلمته نافذة على الأصغر، وكانت تُلقَى على عاتقه مسؤولياته، وكان من المتوقَّع احترام الابن الصغير وطاعته أخاه الأكبر أو أخته الكبرى.

وإحدى السمات المهمَّة عند الصوفيّة أيضًا التوازن في العالَم الصغير، أي في العالم الداخليّ للإنسان، نعم، فهذا العالم ما هو إلا ظلال للعالم الكبير، وَوَفقًا للصوفية فإنّ كل مخلوق يُعدُّ مركزًا لتجلّي الصفات الإلهيّة بانعكاس أثرها عليه.

والإنسان العاجز لا يستطيع أن يعرف الله حقّ المعرفة في أيّ وقت ألبتة، وإنّما يمكنه التعرف إليه من خلال



Lewis، حَرَم، ١٨٣٨م



لوحة خط "ما شاء الله"

أسمائه وصفاته، وَوَفْقًا لما تقوله ساشيكو موراتا (Sachiko Murata)، فإن أسماء الله عمومًا قسمان: أسماء الجلال وأسماء الجمال[٢٠٨]، وكلّ هذه الأسماء متجلية في الإنسان، فأسماء الجلال مثل القويّ والعزيز والعدل تتجلى في الرجل أكثر، أمّا أسماء الجمال كالودود والغفور واللطيف والرحيم فإنّها تتجلى في الأنثى أكثر، ونتيجة لذلك فإن أثر أسماء الجلال يبدو أكثر في الذكور، وأثر أسماء الجمال يبدو أكثر لدى الإناث؛ ووفقًا لمذهب الصوفيّة[٢٠٩].

شاهد قبر امرأة تركية



فطَبْع النساء يعكس صفات الجمال ويصعب عليهن إبراز صفات الجلال، في حين أن الرجال أكثر ما ينعكس في طبعهم صفات الجلال، وإبراز صفات الجمال يصعب عليهم شيئًا ما؛ فمن اكتسب التوازن بين صفات الجلال وصفات الجمال فهو الإنسان الكامل.

إلى أيّ حدٍّ حقّقت النساء العثمانيات هذا التوازن في عالمهنّ الداخليّ الخاصّ؟ بالطبع ليس لدينا وثيقة تقدِّم لنا جوابًا مباشرًا قطعيًا عن ذلك، ولكن يمكننا أن نصل إلى نتيجة استنادًا إلى القرائن المتاحة لدينا، ونحن نعلم من وصف الرحّالات الأوربيّات -اللائي تعرَّفْن على المرأة العثمانيّة- أنَّ هؤلاء النساء كنّ عنصرًا أنثويًا جدًّا في سلوكهنّ ومظهرهنّ الخارجيّ إضافةً إلى كونهنّ يضطلعْن بأدوارهنّ المنزليّة أمهاتٍ وأزواجًا، وعِلاوةً على ذلك فإنَّ هؤلاء النساءَ كنّ يشعرن باطمئنان في عالم المرأة في المجتمع عامّة وفي الحياة داخل حَرَم الدار خاصّة؛ ومن ناحية أخرى فقد كان بمقدورهنّ أن يبدين شجاعةً وعزمًا كبيرَين إذا ما انتُهك أيّ حقّ لهنّ، وفضلًا عن المخاطرة بالسفر وقتئذ، فقد كان تحرُّك النساء في المناطق النائية عن الإمبراطوريّة للبحث عن حقوقهنّ وسعيهنّ في ذلك ولو إلى إسطنبول والديوان السلطانيّ أمرًا مدهشًا، وكانت مساءلة النساء -من مختلف الطبقات والأعمار- لأزواجهن حتى أقرب الأقارب من أعمامهنّ وآبائهن وأخوالهن بين يدي القانون أمرًا مدهشًا أيضًا، وفي هذا المعنى فإننا يمكن أن نصل بسهولة إلى نتيجة فحواها أن النساء العثمانيّات كان لديهنّ توازن منقطع النظير بين صفات الجمال وصفات الجلال، فمع ما فيهن من غلبة صفات الجمال كنّ يعترضن ضد الظلم إذا اقتضى الأمر، ومن المفترض أيضًا أن يكون أعظم إرث تركته المرأة العثمانيّة للإنسانيّة هو هذا التوازن الرائع.


Ayşe Koç





الحَرَم، قصر "طُوبْ قَابِي".

شكر وتقدير

أشكر من أعماق قلبي ابنتي سليمة التي كانت بجانبي دائمًا في رحلتي لاكتشاف عالم المرأة العثمانيّة، وابني شاهين الذي لم يبخل عليّ قطّ بدعمه في مرحلة طباعة الكتاب لا سيّما تصميم الرّسم التقريبيّ، وابني مصطفى الذي قدم لي الدعم المعنويّ وشجعني في هذا المشروع من البداية إلى النهاية؛ وبالإضافة إلى ذلك أقدِّم خالص تقديري من كلّ قلبي لجميع العاملين في دار نشر قَايْنَاقْ (Kaynak)، كما أقدم الشكر الجزيل على وجه الخصوص لِفِكْرَتْ يَاشَارْ (Fikret Yaşar) أيضًا لدعمه لهذا المشروع، وحَاقَانْ يَشِيلْ أُوَا (Hakan Yeşilova) الذي قدّم لي الدعم بإخلاص في كل خطوة خطوْتها أثناء إعداد الكتاب، فهو دائمًا منبع للأفكار الجديدة، وأَنْقِينْ چِيفْتْچِي (Engin Çiftçi) وفريق التصميم كلّه، خاصّة إحسان دَمِيرْخَانْ (İhsan Demirhan) الذي تعكس رسوماته روح هذا الكتاب بشكل جيد جدًّا، وكذا إبراهيم آقْدَاغْ (İbrahim Akdağ) وبكر يِلْدِزْ (Bekir Yıldız).

بيانات الصور والرسوم

الصفحة ٢: تفاصيل النسيج من داخل غرفة العرض - متحف قصر "طُوبْ قَابِي".

الصفحة ٦-٧، ٤٢-٤٣، ٤٨-٤٩، ٥٤-٥٥، ٥٦-٥٧: معلومات عن نقش الزهور التي تعود إلى القرامي (Karamemi) وهي موجودة في ديوان القانوني، مكتبة جامعة إسطنبول، T٥٤٦٧.

الصفحة ٨-٩: Fausto Zonaro، Göksu Sefası، (ما بعد ١٩١٠م). بالألوان الزيتية. من مجموعة (Suna Kıraç - İnan Kıraç)

الصفحة ١٠: المنضدة الصغيرة في الثمانينات من القرن التاسع عشر.

الصفحة ١١: الفنجان المغطّى، ١٩٠٢م. متحف قصر "دُولْمَا بَهْجَةْ"، II Objets de Vertu Exhibition, ٩٤٣/٣٧.

الصفحة ١١: Abdullah Frères، المرأة التركية، في الثمانينات من القرن التاسع عشر. مجموعة السلطان عبد الحميد الثاني (مكتبة الكونجرس).

الصفحة ١٣: السيدة. Jean-Etienne Liotard's (١٧٠٢–٨٩) *Monsieur Levett ve Mademoiselle Helene Glavany* من عمل ملابس الترك. بالألوان الزيتية. ©Louvre, Paris, France/ Giraudon/ The Bridgeman Art Library.

الصفحة ١٣: إبريق وطست مغطى بالذهب.

الصفحة ١٤: Jean-Baptiste Hilair، حريم السلطان يتنزهون في التعريشة، ١٧٩٨م (؟). بالألوان المائية. Musée de Louvre, Paris. Inv. R.F. ٢٦٩٥٨.

الصفحة ١٧: قصر "طُوبْ قَابِي".

الصفحة ١٨: مرآة، القرن السادس عشر، متحف قصر "طُوبْ قَابِي" ١٧٩٧/٢.

الصفحة ١٩: عثمان حمدي، من حَرَم السلطان (تفاصيل)، ١٨٨٠م.

الصفحة ٢٠: Marquis de Ferriol، المرأة التي تطرز. طبعة Recueil de Cent Estampes Représentant Différentes Nations du Levant, Paris ١٧١٤م. أرشيف Galeri Alfa.

الصفحة ٢٢-٢٣: الغطاء الذي يغطي الفنجان عند تقديم القهوة، متحف قصر "دُولْمَا بَهْجَةْ"، ١٥٦/٣٩.

الصفحة ٢٤: السبيل المغطّى بالنحاس (من قسم الحَرَم)، متحف قصر "طُوبْ قَابِي".

الصفحة ٢٤-٢٥: قَبْقَاب من الخشب والفضة، قسم الفضة ٢٠٩٨/١٦.

الصفحة ٢٥: الحمام السلطاني في الحَرَم، قصر "طُوبْ قَابِي"، تصوير Mustafa Yılmaz.

الصفحة ٢٦-٢٧: خط "هو الباقي"، قصر "طُوبْ قَابِي" قسم خزينة الأمانات ٢٠١٢م.

الصفحة ٢٧: المِسْبَحة (الغرفة الخاصة)، متحف قصر "طُوبْ قَابِي". ٢٦٤/٢١.

الصفحة ٢٨-٢٩: Camille Rogier، الأكل في الحَرَم، La Turquie. Moeurs et Usages des Orientaux au XIX siecle، لندن ١٨٤٨م. طباعة حجرية على اللون البني الداكن. أرشيف Galeri Alfa.

الصفحة ٣٠: Jean Brindesi، السيدات في سبيل كُوجُوكْصُو ١٨٥٠م Souvenirs de Constantinople. Paris ١٨٥٥–٦٠. طباعة حجرية ملونة، محفوظات Galeri Alfa.

الصفحة ٣١: فنجان قهوة فضي، في القرن التاسع عشر، متحف قصر "طُوبْ قَابِي" ١٩١٤/٢.

الصفحة ٣٥: Camille Rogier، بائع الأقمشة في السوق المغطّى، La Turquie. Moeurs et Usages des Orientaux au XIX siecle. London, ١٨٤٨م. طباعة حجرية على اللون البني الداكن.

الصفحة ٣٧: مكان من داخل البيت العثماني. تصوير Hasan Hayri Demirel.

الصفحة ٣٨-٣٩: John Frederick Lewis, Kabul, ١٨٧٣م، الألوان الزيتية. ©Yale Center for British Art, Paul Mellon Collection, USA/The Bridgeman Art Library.

الصفحة ٤٠: الحَرَم، قصر "طُوبْ قَابِي".

الصفحة ٤٤: خط، ١٨٤٩م "الله جل جلاله. محمد عليه الصلاة والسلام"، متحف الآثار الإسلامية التركية، ٢٧٨٠.

الصفحة ٤٤-٤٥: Yazdani، الكعبة الشريفة، مكة المكرمة، ٢٠٠٦م. المصدر محفوظات "مجموعة قَايْنَاق للنشر".

الصفحة ٤٦: **(فوق)** Hercule Catenacci، حجرة الديوان في قصر Amcazade Hüseyin Paşa, Tour du Monde ١٨٦٣م. طباعة خشبية أصلية. محفوظات Ayşe Yetişkin Kubilay.

(أسفل يمين) المبخرة، ١٨٨٥م، متحف قصر "طُوبْ قَابِي" ٣٣٧٤/٢.

الصفحة ٤٧: قصر عثماني على البسفور، المصوِّر Greg Barton.

الصفحة ٤٨: الزخرفة الموجودة على جانب الحروف الهجائية. متحف قصر "طُوبْ قَابِي"، EH٤٣٦, ١٧b.

(الجانب الأيمن) ستارة، الغرفة الرخامية، متحف قصر "دُولْمَا بَهْجَةْ".

الصفحة ٤٩: Çifte Kasırlar، متحف قصر "طُوبْ قَابِي". المصور Mustafa Yılmaz.

الصفحة ٤٩: تجويف في الجدران، قصر بغداد، متحف قصر "طُوبْ قَابِي"

الصفحة ٥٠-٥١: Amadeo Preziosi، بائع التوابل، Stamboul. Souvenir d'Orient, Paris ١٨٦١م ، طباعة حجرية ملونة.

الصفحة ٥٣: Amadeo Preziosi، بائع الحلوى، Stamboul. Souvenir d'Orient, Paris ١٨٦١. طباعة حجرية ملونة.

الصفحة ٥٦: (فوق) Abdullah Frères، مدرسة الإعدادية للبنات "Sultan Ahmed İnas Rüşdiyesi". ١٨٨٠م–١٨٩٣م، مجموعة السلطان عبد الحميد الثاني (مكتبة الكونجرس).

الصفحة ٥٦: Abdullah Frères، الطالبات، مدرسة دار التحصيل الخاصة. ١٨٨٠م–١٨٩٣م، مجموعة السلطان عبد الحميد الثاني (مكتبة الكونجرس).

الصفحة ٥٧: John Frederick Lewis، المدرسة، London ١٨٥٠م. الطباعة على المواد الصلبة، محفوظات Galeri Alfa.

الصفحة ٦٠: Camille Rogier، تقديم القهوة، La Turquie. Moeurs et Usages des Orientaux au XIX siecle, London ١٨٤٨م. طباعة حجرية ملونة على البنى الداكن. أرشيف Galeri Alfa.

الصفحة ٦٣: Amadeo Preziosi، قارب، Souvenir d'Orient, Paris, ١٨٦١م. طباعة حجرية ملونة، محفوظات Galeri Alfa.

(المتاواري) درع المراسم العسكرية، القرن السادس عشر، متحف قصر "طُوبْ قَابِي". ١١\٢٥٧١.

الصفحة ٦٦-٦٧: A. I. Melling، حفل زفاف تركيّ، (هذا العمل احتلّ مكانًا لأول مرة في ألبوم "Melling'in Voyage Pittoresque de Constantinople et des Rives du Bosphore (Paris ١٨١٩م)". نُشر طباعةً حجريةً في عمل Goubaud علم ١٨٤٠م (Brüksel). طباعة حجرية أصلية، محفوظات Ayşe Yetişkin Kubilay.

الصفحة ٦٨: منديل الشراب، متحف قصر "طُوبْ قَابِي" ١٤٨/٤٠.

الصفحة ٦٩: Cornelius Le Bruyn، أغطية رؤوس النساء، Voyage au Levant, Paris, ١٧٠٠م، طباعة على النحاس. أرشيف Galeri Alfa.

الصفحة ٧٣: مقعد الولادة، القرن الثامن عشر والتاسع عشر، متحف قصر "طُوبْ قَابِي" ١٧٥/١٢.

الصفحة ٧٤-٧٥: مهد، متحف قصر "طُوبْ قَابِي"، H٢/٦٨٠.

الصفحة ٧٦: زخارف الجدران، غرفة يَمِيش، متحف قصر "طُوبْ قَابِي"، تصوير Mustafa Yılmaz.

الصفحة ٧٦-٧٧: A. I. Melling، قصر خديجة سلطان، المكان من الداخل، القرن التاسع عشر، Defterdarburnu، متحف قصر طوب قابي، Y.B. ٣٤٤١، المجلد الثالث.

الصفحة ٨٠-٨١: Tristam (Tristram) James Ellis، جولة في مضيق القرن الذهبي، ١٨٨٨م. مجموعة "Suna ve İnan Kıraç Vakfı ".

الصفحة ٨٢: Jean-Etienne Liotard، المرأة التركية وأَمتها، القرن الثامن عشر. Pastel. ©Musee d'Art et d'Histoire, Geneva, Switzerlve/ Giraudon/ The Bridgeman Art Library.

الصفحة ٨٣: سلطانية فضيّ، القرن التاسع عشر، متحف قصر "طُوبْ قَابِي" ١١٥٢/١٦.

الصفحة ٨٦: طِست والإبريق، القرن الثامن عشر، متحف قصر "طُوبْ قَابِي"، ٣٧٣١/٢٥ و ٣٧٣٠/٢٥.

الصفحة ٨٧: Camille Rogier، أثناء غسل الأيدى في الحَرَم، La Turquie. Moeurs et Usages des Orientaux au XIX siecle, London ١٨٤٨م. طباعة حجرية على اللةن البنى الغامق.

الصفحة ٨٩: باب مِن قصر "طُوبْ قَابِي".

الصفحة ٩٠: عثمان حمدي، العازفات، ١٨٨٠م، بالألوان الزيتية. مجموعة Suna ve İnan Kıraç Vakfı.

الصفحة ٩٤: Pascal Sébah، **صورة ابنة السلطان عبدالحميد الثاني عائشة مع أمها السيدة مشفقة.**

الصفحة ٩٥: سلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢م-١٩١٨م).

الصفحة ٩٦: John Frederick Lewis، في حديقة الأمير، ١٨٦٥م، لوحة قماشية. © Harris Museum ve Art Gallery, Preston, Lancashire, UK/ The Bridgeman Art Library.

الصفحة ٩٧: زهرة، Ali Üsküdârî, İ.Ü.K., T٥٦٥٠ ٤١a.

الصفحة ٩٧: الحَرَم، قصر "طُوبْ قَابِي".

الصفحة ٩٩: الفنجان المطرز بالمجوهرات، القرن السادس عشر، متحف قصر "طُوبْ قَابِي"، ٢٨١٦/١٥.

الصفحة ١٠٠: التذهيب، متحف قصر "طُوبْ قَابِي"، EH ٤١٦.

الصفحة ١٠١: Jean-Baptiste Hilair، نزهة سيدات الحَرَم ١٧٩٧م. الألوان المائية. Musée de Louvre, Paris. Inv. R.F ٢٦٦٥٩.

الصفحة ١٠٢: Çifte Kasırlar، قصر "طُوبْ قَابِي". تصوير Mustafa Yılmaz.

الصفحة ١٠٣: تجويف في الجدران، حجرة خاصة للسلطان أحمد، متحف قصر "طُوبْ قَابِي"، المصور Mustafa Yılmaz.

الصفحة ١٠٦: Alberto Pasini، جزء من الحَرَم، ١٨٧٧م.

الصفحة ١٠٦-١٠٧: Cornelius Loos، قصر "طُوبْ قَابِي" وبعض قصور الشاطئ، ١٧١٠م. The Museum of Fine Arts, Stockholm, THC٩١١٦.

الصفحة ١١٠: كلنوش سلطان (١٦٤٧م-١٧١٥م).

الصفحة ١١٢-١١٣: سبيل السلطان Mihrişah في (أيوب)، ١٨٠١م، إسطنبول. تصوير Talha Uğurluel.

الصفحة ١١٢-١١٣: الزهور، القرآن الكريم والرسائل. ١٧٥٧-٨. متحف قصر "طُوبْ قَابِي" EH ١٤١, ٤٤٤a.

الصفحة ١١٤-١١٥: Mıgırdıç Melkon، قصر بَشِيكْتَاش، متحف إسطنبول البحري. الألوان الزيتية المجسمة.

الصفحة ١١٦: قارورة ماء الورد، متحف قصر "طُوبْ قَابِي" H٢/٢٨٧٥.

الصفحة ١١٧: المرآة، متحف قصر "طُوبْ قَابِي" H١٧٩٥.

الصفحة ١١٨: فستان Üçetek، متحف قصر دُولْمَا بَهْجَةْ ١٩٧٣/٦٤.

الصفحة ١١٩: قصر عثمان الثالث، متحف قصر "طُوبْ قَابِي". تصوير Mustafa Yılmaz.

الصفحة ١٢٠: المجوهرات. متحف قصر "طُوبْ قَابِي". H٢/١٦٥٣.

الصفحة ١٢١: جامع Pertevniyal Valide، ١٨٧١م. Aksaray, İstanbul. تصوير Talha Uğurluel.

الصفحة ١٢٢: خُرّم سلطان (Hürrem Sultan)، (١٥٠٦م-١٥٥٨م).

الصفحة ١٢٣: زهرة Şakayık. Murakka، متحف قصر "طُوبْ قَابِي" H٢١٥٥, ٣٩b.

الصفحة ١٢٤: غرفة الإستقبال في الحَرَم (قصر دُولْمَا بَهْجَةْ).

الصفحة ١٢٥: من غرفة الملابس في الحَرَم (قصر دُولْمَا بَهْجَةْ).

الصفحة ١٢٦-١٢٧: دُرُّشهوار سلطان (Dürrüşehvar Sultan) (١٩١٤-٢٠٠٦م).

الصفحة ١٢٨: قصر محمد الرابع متحف قصر "طُوبْ قَابِي"، تصوير Mustafa Yılmaz.

الصفحة ١٢٩: إناء. القرن الثامن عشر متحف قصر "طُوبْ قَابِي"، ٢٥/٣٤٨٣.

الصفحة ١٣٢: Levni، صورة مصغرة للمرأة التركية، متحف قصر "طُوبْ قَابِي". Murakka, H٢١٦٤.

الصفحة ١٣٣: صندوق مجوهرات، متحف قصر "دُولْمَا بَهْجَةْ".

الصفحة ١٣٤: تفاصيل المرآة، متحف قصر "طُوبْ قَابِي". H٢/١٧٨٦.

الصفحة ١٣٥: بَهْو فيه سبيل، متحف قصر "طُوبْ قَابِي"، تصوير Mustafa Yılmaz.

الصفحة ١٣٦-١٣٧: Gözdeler Taşlığı، متحف قصر "طُوبْ قَابِي". تصوير Mustafa Yılmaz.

الصفحة ١٣٧: Levni، صورة مصغرة للمرأة التركية، متحف قصر "طُوبْ قَابِي". Murakka, H٢١٦٤.

الصفحة ١٣٩: Thomas Allom، كاتب المطالب ١٨٤٠م.

الصفحة ١٤٠-١٤١: برج العدالة، قصر "طُوبْ قَابِي" تصوير Halit Ömer Camcı.

الصفحة ١٤٢: Ernst Rietschel، كتاب المطالب ١٨٨٥-٦٠. ألوان مائية أصلية. محفوظات Galeri Alfa.

الصفحة ١٤٣: العَلَّاقَةْ، متحف قصر "طُوبْ قَابِي"، H ٢/٧٦٢٢.

الصفحة ١٤٥: النقود المعدنية العثمانية (القرن التاسع عشر) والنقود الورقية (مطلع القرن العشرين)

الصفحة ١٤٦-١٤٧: Jean Brindesi، مركب سفر أمام قلعة رُومَلِي. Souvenirs de Constantinople. Paris ١٨٥٥م-١٨٦٠م، طباعة حجرية ملونة. محفوظات Galeri Alfa.

الصفحة ١٤٨-١٤٩: غلاف المصحف الشريف، متحف قصر "طُوبْ قَابِي"، H٢/٢١٠٧.

الصفحة ١٥٠: Amadeo Preziosi، **النساء في نزهة،** Stamboul Souvenir d'Orient, Paris ١٨٦١م، طباعة حجرية ملونة. محفوظات Galeri Alfa.

الصفحة ١٥٣: إمرأة تركية ترتدي فراجة. متحف قصر طوب قابى. H٢١٦٤ ,b.y ١٤.

الصفحة ١٥٦-١٥٧: العَلَم، متحف قصر "طُوبْ قَابِي". تصوير Mustafa Yılmaz.

الصفحة ١٥٦-١٥٧: تفاصيل النسيج، متحف قصر "طُوبْ قَابِي". تصوير Mustafa Yılmaz.

الصفحة ١٥٨: Amadeo Preziosi، امرأة تركية وطفلتها، Stamboul Souvenir d'Orient, Paris ١٨٦١م. طباعة حجرية ملونة.

الصفحة ١٦٠: تجويف في الجدران، Çifte Kasırlar، متحف قصر "طُوبْ قَابِي"

الصفحة ١٦١: Fausto Zonaro، حنان الأم. متحف قصر "دُولْمَا بَهْجَةْ".

الصفحة ١٦٤-١٦٥: زمرد طائر العنقاء. تذهيب Ayşe Koç, ٢٠٠٧م.

الصفحة ١٦٦: غرفة يَمِيشْ، قصر "طُوبْ قَابِي".

الصفحة ١٦٧: جزء من قفطان. متحف قصر "طُوبْ قَابِي". ٩٣٣/١٣.

الصفحة ١٦٨: John F. Lewis، حَرَم، Lewis' Illustrations of Constantinople, London ١٨٣٨م. طباعة حجرية على اللون البني الداكن. محفوظات Galeri Alfa.

الصفحة ١٦٩: لوحة خط "ما شاء الله" وآية الحفظ من الحسد (سورة القلم: ٦٨/٥١-٥٢) تذهيب Ayşe Koç. بخط (Erol Dönmez Abdülhadi).

الصفحة ١٧٠: شاهد قبر امرأة تركية. Eyüp, İstanbul تصوير Talha Uğurluel.

الصفحة ١٧١: تذهيب Ayşe Koç, ٢٠٠٧م.

الصفحة ١٧٢-١٧٣: الحَرَم، قصر "طُوبْ قَابِي".

هوامش

(١) Z. Duckett Ferriman, Turkey and the Turks, (New York: James Pott & Co., 1911), 84-85.

(٢) Lady Mary Wortley Montague, Letters from the Levant Duringthe Embassy to Constantinople 1716-18, reprint edition, (New York: Arno Press & The New York Times, 1971), 154.

(٣) المصدر السابق، 188

(٤) المصدر السابق IX

(٥) Miss Julia Pardoe, The City of the Sultan and Domestic Manners of the Turks in 1836, 3 volumes, (London: Henry Colburn, 1938), 130.

(٦) المصدر السابق، 82-84

(٧) المصدر السابق، 85

(٨) المصدر السابق، 102/ 3

(٩) Lady W. M. Ramsey, Everyday Life in Turkey, (London: Hodder and Stoughton, 1897), 1.

(١٠) Ferriman, 339-40.

(١١) Pardoe, Vol. II, 86.

(١٢) Ramsey, 39.

(١٣) Montague, 126.

(١٤) المصدر السابق، 160-161

(١٥) M. De M. D'Ohsson, 18. Yüzyıl Türkiye'sinde Örf ve Adetler, (İstanbul: Kervan Kitapçılık), 99-102.

(١٦) Pardoe, Vol. III, 85-6

(١٧) Ferriman, 73.

(١٨) D'Ohsson, 204.

(١٩) Lucy M. Garnett, Home Life In Turkey, (New York: The MacMillan Company, 1909), 6-7.

(٢٠) Ferriman, 298-99.

(٢١) Garnett, 13.

(٢٢) D'Ohsson, 228-29.

(٢٣) Pardoe, Vol. I, 101.

(٢٤) Mary Adelaid Walker, Eastern Life and Scenery, with Excursions in Asia Minor, Mytilene, Crete and Roumania. (London: Chapman and Hall, 1886), 315-316.

(٢٥) Pardoe, 52-53.

(٢٦) المصدر السابق , Vol. III, 40.

(٢٧) المصدر السابق 87-88

(٢٨) D'Ohsson, 186-187.

(٢٩) Pardoe, Vol. III, 46.

(٣٠) المصدر السابق، 58

(٣١) D'Ohsson, 195.

(٣٢) المصدر السابق، 209

(٣٣) المصدر السابق، 208

(٣٤) La Baronne Durand de Fontmagne, Kırım Harbi Sonrasında İstanbul, (Paris: 1902), 243-44.

(٣٥) Montagu, 128.

(٣٦) Pardoe, Vol. I, 96-97.

(٣٧) Ferriman, 317-18.

(٣٨) Garnett, 1.

(٣٩) Pardoe, Vol. III, 94-95.

(٤٠) Edmondo de Amicus, Constantinople, (Paris: 1883), 210.

(٤١) Fontmagne, 243.

(٤٢) A. L. Castellan, Lettres Sur la Grece, L'Hemmespont et Constantinople, Vol. III, (1811), 226.

(٤٣) Lady Craven, Voyage de Millady Craven and Constantinople Per la Crimee en 1786, (Paris: 1789), 253.

(٤٤) D'Ohsson, 221.

(٤٥) Elizabeth Cooper, The Harim and Purdah (New York: The Century Co., 1916), 33-34.

(٤٦) Judy Mabro, VEILED HALF TRUTHS: Western Travellers' Perceptions of Middle Eastern Women, (London: 1991), 9.

(٤٧) Montagu, 189.

(٤٨) المصدر السابق، 202

(٤٩) Catherine Elwood, Narrative of a Journey Overland, Vol. I, pp. 153-4 quoted from Billie Melman, Women's Orients: English Women and the Middle East, 1718-1918 / Sexuality, Religion and Work, (London: Macmillan Academic and Professional Ltd., 1992), 139.

(٥٠) Leslie Peirce, The Imperial Harem / Women and Sovereignty in the Ottoman Empire, (New York - Oxford: Oxford University Press, 1993), 4.

(٥١) المصدر السابق، 5

(٥٢) Ferriman, 80.

(٥٣) Montagu, 152-54.

(٥٤) Lucy Garnett, Turkey of the Ottomans, (New York, ١٩١٤), ٢٠٣-٥.

(٥٥) المصدر السابق، 264-265

(٥٦) Emine Fuat Tugay, Three Centuries, Family Chronicles of Turkey and Egypt, (London–New York–Toronto: 1963), 255.

(٥٧) Tugay, 251 المصدر السابق،

(٥٨) Ferriman, 89.

(٥٩) Garnett, 267.

(٦٠) Cemal Kutay, Pembe Mendil, (İstanbul: Yeni AsyaYayınevi), 65-67.

(٦١) De Fontmagne, 243-44.

(٦٢) Castellan, 226.

(٦٣) Ramsey, 109-10

(٦٤) مسند أحمد، رقم 15538

(٦٥) Pardoe, Vol. I, 93

(٦٦) Kutay, 37

(٦٧) مقولة خاصة بالكاتبة Munevver Ayaşli إسطنبول 1988

(٦٨) Ömer Seyfettin, Bahar ve Kelebekler, (İstanbul: Inkilap ve AKA Basımevi, 1981), 10-13.

(٦٩) Fanny Davis, The Ottoman Lady/A Social History From 1718 To 1918, (Westport: Greenwood Press, Inc., 1986), 66.

(٧٠) المصدر السابق، 69.

(٧١) Garnett, Home Life in Turkey, 243.

(٧٢) المصدر السابق، 244-45.

(٧٣) Melek Hanım, Thirty Years In The Harem, (London: Chapman and Hall, 1872), 249-50.

(٧٤) Pardoe, Vol. II, 96-105.

(٧٥) Garnett, 232-33.

(٧٦) Tugay, 252-53.

(٧٧) Garnett., 146-47.

(٧٨) Pardoe, Vol. I, 125-26.

(٧٩) المصدر السابق، Vol. III, 83-84.

(٨٠) Tugay, 226-27.

(٨١) Pardoe, Vol. I, 98-99.

(٨٢) Melman, 147.

(٨٣) المصدر السابق، 146.

(٨٤) Pardoe, Vol. I, 99.

(٨٥) Davis, 113-14.

(٨٦) Ferriman, 116-17.

(٨٧) Tugay, 220.

(٨٨) Leyla Saz, The Imperial Harem Of The Sultans/Memoirs Of Leyla (Saz) Hanımefendi, (İstanbul: Peva Publications, 1994), 66-67.

(٨٩) المصدر السابق، 67

(٩٠) Akgündüz, 276.

(٩١) Tugay, 305.

(٩٢) Pardoe, 286-87.

(٩٣) Çağatay Uluçay, Harem, 2nd ed., (Ankara: Türk Tarih Kurumu Basımevi, 1985), 25-26.

(٩٤) Peirce, 30.

(٩٥) المصدر السابق، 109

(٩٦) Ahmed Akgündüz, Osmanlı'da Harem, (İstanbul: Osmanlı Araştırmaları Vakfı, 1995), 277.

(٩٧) Peirce, 113.

(٩٨) المصدر السابق، 140.

(٩٩) Uluçay, 19.

(١٠٠) Peirce, 235.

(١٠١) Akgündüz, 276.

(١٠٢) صنف من الموظفين في خدمة القصر السلطاني. (المترجم)

(١٠٣) Davis, 10.

(١٠٤) Uluçay, 64-65.

(١٠٥) Peirce, 252.

(١٠٦) المصدر السابق، 189

(١٠٧) المصدر السابق،126

(١٠٨) Uluçay, 16.

(١٠٩) المصدر السابق، 162.

(١١٠) المصدر السابق، 162.

(١١١) المصدر السابق، 195

(١١٢) Foundation for Establishing and Developing Historical Research and Documentation Centers, Deeds of Trust of the Sultans Womenfolk, (İstanbul: 1990), 535.

(١١٣) Peirce, 215-16.

(١١٤) المصدر السابق، 199.

(١١٥) Nimet Bayraktar, "Tarihte Hayırseven Türk Kadınları: Nurbanu Sultan–Kütüphanesi," Kadın Gazetesi, No.541 (15 يناير / كانون الثانى, 1959.

(١١٦) Bayraktar, "Tarihte Hayırseven Türk Kadınları: Mahpeker Sultan (Kösemvalide) ve Çinili Cami," Kadın Gazetesi, No. 553 (11 ابريل / نيسان, 1959.

(١١٧) Tarihî Araştırma ve Dokümantasyon Merkezlerinin Kurulması ve Geliştirilmesi Vakfı, 62.

(١١٨) Çağatay Uluçay, Padişahların Kadınları ve Kızları, (Ankara: Türk Tarih Kurumu Basımevi, 1985) 68.

(١١٩) Tarihî Araştırma ve Dokümantasyon Merkezlerinin Kurulması ve Geliştirilmesi Vakfı, 92.

(١٢٠) Uluçay, Padişahların Kadınları ve Kızları, 99.

(١٢١) Bayraktar, "Tarihte Hayırseven Türk Kadınları: Nakşidil Valide Sultan," Kadın Gazetesi, No. 560 (30 مايو / أيار, 1959.

(١٢٢) Tarihî Araştırma ve Dokümantasyon Merkezlerinin Kurulması ve Geliştirilmesi Vakfı, 392.

(١٢٣) Bkz. Bezm-i âlem Valide Sultan Vakıf Gureba Hospital kataloğu,

(İstanbul: 1987.

(١٢٤) Bayraktar. "Tarihte Hayırseven Türk Kadınları: Pertevniyal Sultan ve Kütüphanesi," Kadın Gazetesi, No. 549 (1959 ,14 مارس / اذار.

(١٢٥) Akgündüz, 314.

(١٢٦) Akgündüz, 329.

(١٢٧) Uluçay, Harem, 59.

(١٢٨) Peirce, 129.

(١٢٩) Uluçay, Harem, 54.

(١٣٠) المصدر السابق، 53

(١٣١) Montagu,124-25.

(١٣٢) Saz, 29.

(١٣٣) المصدر السابق، 102

(١٣٤) المصدر السابق، 37-36

(١٣٥) المصدر السابق، 13-11

(١٣٦) النقبة قَمِيص قصير تلبسه الْجَوَارِي وَالْجمع نُقَب. جمهرة اللغة لابن دريد، باب الباء والقاف، 1/374.

(١٣٧) المصدر السابق، 138

(١٣٨) Peirce, 200.

(١٣٩) Uluçay, Harem, 70-77.

(١٤٠) المصدر السابق، 81-78.

(١٤١) Ayşe Osmanoğlu, Babam Sultan Abdülhamid (Hatıralarım), (Ankara: Selçuk Yayınları, 1986), 117-18

(١٤٢) Saz, 102.

(١٤٣) المصدر السابق، 138.

(١٤٤) Peirce, 130.

(١٤٥) Saz, 115.

(١٤٦) Uluçay, Harem, 100-108.

(١٤٧) Bayraktar. "Tarihte Hayırsever Türk Kadınları: Mihrimah Sultan ve Camiler," Kadın Gazetesi, No. 551, (1959 ,28 مارس / آذار.

(١٤٨) Bayraktar, "Tarihte Hayırsever Türk Kadınları: İsmihan Sultan Ve Kütüphanesi," Kadın Gazetesi, No. 542, (1959 ,24 يناير / كانون الثانى.

(١٤٩) Bayraktar. "Tarihte Hayırsever Türk Kadınları: Zeyneb Sultan ve Camii," Kadın Gazetesi, No. 559, (1959 ,23 مايو / أيار.

(١٥٠) Uluçay, Harem, 139.

(١٥١) Peirce, 132.

(١٥٢) Uluçay, Harem, 132-40.

(١٥٣) Peirce, 133.

(١٥٤) المصدر السابق، 134

(١٥٥) Saz, 128.

(١٥٦) Garnett, 282-83.

(١٥٧) Fariba Zarinebaf-Shahr, "Women, Law and Imperial Justice in Ottoman İstanbul in the Late Seventeenth Century," in Women, the Family, and Divorce Laws in Islamic History, edited by Madeline C. Zilfi, (Leiden-New York-Köln: Brill, 1997), 255-56.

(١٥٨) Yvonne Seng, The Üsküdar Estates (Tereke) as Records of Everyday Life in an Ottoman Town, 1521-1524 (Ph.D. dissertation, University of Chicago, 1991), 230.

(١٥٩) Ronald C. Jennings, Christians and Muslims in Ottoman Cyprus and the Mediterranean World, 1571-1640, (New York and London: New York University Press, 1993), 75.

(١٦٠) Heim Gerber, State, Society, and Law in Islam/Ottoman Law in Comparative Study, (Albany: State University of New York Press, 1994), 56.

(١٦١) Jennings, "Women in Early 17th Century Ottoman Judicial Records – The Sharia Court of Anatolian Kayseri," Journal of the Economic and Social History of the Orient 18, (January 1975), 78.

(١٦٢) المصدر السابق، 77

(١٦٣) Abdal-Rehim Abdal-Rahman Abdal-Rehim, "The Family and Gender Laws in Egypt During the Ottoman Period," in Women, the Family and Divorce Laws in Islamic History, ed. Amira Al Azhary

Sonbul, (Syracuse, New York: Syracuse University Press, 1996), 99.

(١٦٤) Abdurrahman Kurt, "Tanzimat Döneminde Kadının Sosyo-Ekonomik Konumu, Bursa Örneği (1839-1876), yayınlanmamış makale, 11.

(١٦٥) Abdal-Rehim, 99.

(١٦٦) Kurt, 11.

(١٦٧) Jennings, "Women in Early 17th Century Ottoman Judicial Records / The Sharia Court of Anatolian Kayseri," 62.

(١٦٨) Rifat Özdemir, "Kırşehir'de Ailenin Sosyo-Ekonomik Yapısı," The Journal of Ottoman Studies, Vol. IX, (İstanbul: Enderun Kitapevi, 1989), 120.

(١٦٩) تناولت المذاهب "الخلع" وفقًا للأحكام المختلفة انظر:

Galal H. el-Nahal, Judicial Administration of Ottoman Egypt in the 17th Century, (Minneapolis: Bibliotheca Islamica,1979), 46-47.

(170) Jennings, "Women In Early 17th Century Ottoman Judicial Records / The Sharia Court of Anatolian Kayseri," 83.

(١٧١) Abdal-Rahim, 107.

(١٧٢) a.e.g., 107.

(١٧٣) D'Ohsson, 206.

(١٧٤) Garnett, 220-21.

(١٧٥) مقتبسة من: Anna Bowman Dodd, Melman, s.142.

(١٧٦) Ferriman, 83-84.

(١٧٧) Montegu, 128-29.

(١٧٨) Gerber, "Social and Economic Position of Women in an Ottoman City, Bursa, 1600-1700," International Journal of Middle East Studies, 12, (Cambridge: Cambridge University Press, 1980), 232.

(١٧٩) Kurt, 13-14.

(١٨٠) Jennings, Christians and Muslims in Ottoman Cyprus and the Mediterranean World, 1571-1640, 29.

(١٨١) Jennings, "Women In Early 17th Century Ottoman Judicial Records / The Sharia Court of Anatolian Kayseri," 98.

(١٨٢) Cem Behar, "Polygyny in İstanbul 1889-1926," Middle Eastern Studies, vol. 27/3, July 1991, 477-78.

(١٨٣) Said Öztürk, "Osmanlı Ailesi Üzerine Düşünceler," Ilim ve Sanat Magazine, vols. 44-45, (İstanbul: Vefa Yayıncılık, 1997), 63.

(١٨٤) راجع سورة النساء ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ آية: 3.

سورة النساء ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ آية: 129

(١٨٥) صحيح البخارى، باب التوحيد

(١٨٦) مسلم: فضائل الصحابة ﵃، 15.

(١٨٧) راجع: سورة النساء ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ آية: 34

(١٨٨) مسلم: الفضائل، 20.

(١٨٩) H. U. Krafft, Türklerin Elinde Bir Alman Tacir-Ein Schwabischer Kaufman in Türkischer Gefangenschaftö trans. by Turgut Akpınar, (İstanbul: Iletişim, 1996), 54-55

(١٩٠) Jennings, Women in Early 17th Century Ottoman Judicial Records / The Sharia Court of Anatolian Kayseri, 92.

(١٩١) Abdal-Rahim, 108-09.

(١٩٢) المصدر السابق، 109.

(١٩٣) Mühimme Defteri 90, ed. Mertol Tulum (İstanbul: Türk Dünyası Araştırmaları Vakfı, 1993), 35-36.

(١٩٤) Gerber, Position of Women in Ottoman Bursa, 1600-1700, 233.

(١٩٥) Jennings, Women in Early 17th Century Ottoman Judicial

Records/The Sharia Court of Anatolia Kayseri, 67.

(١٩٦) Fariba Zarinebaf-Shahr, "Women, Law and Imperial Justice in Ottoman İstanbul in the Late Seventeenth Century," in Women, the Family, and Divorce Laws in Islamic History, ed. Amira Al Azhary Sonbol. (Syracuse: Syracuse University Press, 1996), 90

(١٩٧) Gerber, Position of Women in Ottoman Bursa, 1600-1700, 233.

(١٩٨) Jennings, Women in Early 17th Century Ottoman Judicial Records, 99.

(١٩٩) Abraham Marcus, "Men, Women and Property: Dealers in Real Estate in 18th Century Aleppo," Journal of the Economic and Social History of the Orient, (May 26, 1983), 144.

(٢٠٠) Jennings, Women in Early 17th Century Ottoman Judicial Records, quoted from Ö. L. Barkan and Ekrem H. Ayverdi, İstanbul Vakıfları Tahrir Defteri 935 (1546) Tarihli, İstanbul, 1970.

(٢٠١) Seng, 239.

(٢٠٢) Melman, 88.

(٢٠٣) المصدر السابق، 144

(٢٠٤) Ian C. Dengler, "Turkish Women in the Ottoman Empire: The Classical Age," Women in the Muslim World, ed. Lois Beck and Nikki Keddie, (Cambridge, Massachusetts –London, England: Harvard University Press, 1978), 235.

(٢٠٥) Cemal Kafadar, "The New Visibility of Sufism in Turkish Studies and Cultural Life," The Dervish Lodge / Architecture, Art, and Sufism in Ottoman Turkey, ed. Raymond Lifchez, (Berkeley, Los Angeles, Oxford: University of California Press), 308.

(٢٠٦) أخرجه الإمام أحمد في باقي مسند الأنصار من حديث أم سليم بنت ملحان برقم 5869، والترمذي في كتاب الطهارة، باب ما جاء فيمن يستيقظ فيرى بللًا ولا يذكر احتلامًا برقم 105، وأبو داود في كتاب الطهارة، باب في الرجل يجد البلل في منامه برقم 204

(٢٠٧) Sachiko Murata, The Tao of Islam, (Albany: State University of New York Press, 1992), 183.

(٢٠٨) Murata, 9, 69.

(٢٠٩) William Chittick, The Sufi Path of Knowledge: Ibn al-Arabi's Metaphysics of Imagination, (Albany, New York: Suny Press, 1989), 286.

مصادر

Abdal-Rehim, Abdal-Rehim Abdal-Rahman. "The Family and Gender Laws in Egypt During the Ottoman Period." Women, the Family and Divorce Laws in Islamic History, pp. 96-111. ed. Amira Al Azhary Sonbol. Syracuse, New York: Syracuse University Press, 1996.

Akgündüz, Ahmet. Osmanlı Kanunnâmeleri ve Hukukî Tahlilleri. Vol. 7. Istanbul: Osmanlı Araştırmaları Vakfı Yayınları, 1994.

——— Osmanlı'da Harem. Istanbul: Osmanlı Araştırmaları Vakfı Yayınları, 1995.

Amicus, Edmondo de. Constantinople. Paris: 1883.

Aydın, M. Akif. Islam-Osmanlı Aile Hukuku. Istanbul: Marmara Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Yayınları No: 11, 1985.

Bates, Ülkü. "Women As Patrons of Architecture in Turkey." In Women in the Muslim World, pp. 245-260. ed. Lois Beck and Nikki Keddie. Cambridge, Massachusetts-London, England: Harvard University Press, 1978.

Bayraktar, Nimet. "Tarihte Hayırsever Türk Kadınları: Nurbanu Sultan – Kütüphanesi." Kadın Gazetesi, no. 541. (Jan. 15, 1959).

——— "Tarihte Hayırsever Türk Kadınları: İsmihan Sultan ve Kütüphanesi." Kadın Gazetesi, no. 542. (Jan. 24, 1959).

——— "Tarihte Hayırsever Türk Kadınları: Pertevniyal Sultan ve Kütüphanesi." Kadın Gazetesi, no. 549. (March 14, 1959).

——— "Tarihte Hayırsever Türk Kadınları: Mihrimah Sultan ve Camiler." Kadın Gazetesi, no. 551. (March 28, 1959).

——— "Tarihte Hayırsever Türk Kadınları: Mahpeker Sultan (Kösem Valide) ve Çinli Cami." Kadın Gazetesi, no. 533. (April 11, 1959).

——— "Tarihte Hayırsever Türk Kadınları: Zeyneb Sultan ve Cami." Kadın Gazetesi, no. 559. (May 23, 1959).

Bezm-i Alem Valide Sultan Vakıf Gureba Hospital catalogue. Istanbul, 1987.

Blunt, Lady Fanny. My Reminiscences. London: John Murray, 1918/

Bukhari. Al-Sahih. "Kitab un-nikah."

Castellan, A. L. Lettres Sur La Grecê, L'Hellespont et Constantinapole. Vol. II. 1811.

Chittick, William. The Sufi Path of Knowledge: Ibn al-Arabi's Metaphysics of Imagination. Albany, New York: Suny Press. 1989.

Cooper, Elizabeth. The Harem and The Purdah. New Delhi: Bimla Publishing House, 1915.

Craven, Lady Elizabeth. A Journey Through the Crimea to Constantinople in a Series of Letters Written in the Year 1786. London: 1789.

Davis, Fanny. The Ottoman Lady / A Social History from 1719 to 1918. New York-Westport, Connecticut- London: Greenwood Press, 1986.

Dengler, Ian C. "Turkish Women in the Ottoman Empire: The Classical Age." In Women in the Muslim World, pp. 229-244. ed. Lois Beck and Nikki Keddie. Cambridge, Massachusetts – London, England: Harvard University Press, 1978.

Djevad, Ah. Yabancilara Göre Eski Türkler. Istanbul: Yağmur Yayınevi, 1974.

D'Ohsson, M. De M. 18. Yüzyıl Türkiye'sinde Örf ve Adetler. tr. Zerhan Yüksel. Istanbul: Kervan Kitapçılık A.Ş.

Duben, Alan and Behar, Cem. Istanbul Households / Marriage, Family and Fertility 1880-1940. Cambridge: Cambridge University Press, 1991.

Esposito, John L. "Women's Rights In Islam." Journal of Islamic Studies. Vol. 14. pp. 99-114. (1975).

Ferriman, Z. Duckett. Turkey and The Turks. New York: The MacMillan Co., 1909.

Fontmagne, La Baronne Durand de. Kırım Harbi Sonrasında Istanbul. Istanbul: Kervan Kitapçılık Basın Sanayii ve Ticaret A. Ş., 1977.

Foundation for Establishing and Developing Historical Research and Documentation Centers. Deeds of Trust of the Sultans Womenfolk. Istanbul: 1990.

Garnett, Lucy M. J. Home Life in Turkey. New York: The MacMillan Co., 1909.

——— Turkey of the Ottomans. London: 1911.

Gerber, Haim. "Social and Economic Position of Women in an Ottoman City, Bursa, 1600-1700." International Journal of Middle East Studies, 12. pp. 231-44. Cambridge: Cambridge University Press, 1980.

——— State, Society and Law in Islam-Ottoman Law in Comparative Perspective. New York: State University of New York Press, 1994.

Inalcık, Halil. The Ottoman Empire, The Classical Age 1300-1600. London: Butler and Tanner Ltd., Frome and London, 1995.

Jennings, Ronald C. "Women in Early 17th Century Ottoman Judicial Records-Sharia Court of Anatolian Kayseri." Journal of the Economic and Social History of the Orient 18. pp. 53-114. (January 1975).

——— Christians and Muslims in Ottoman Cyprus and the Mediterranean World, 1571-1640. New York and London: New York University Press, 1993.

Kafadar, Cemal. "The New Visibility of Sufism in Turkish Studies and Cultural Life" The Dervish Lodge / Architecture, Art, and Sufism in Ottoman Turkey. ed. Raymond Lifchez. Berkeley, Los Angeles, Oxford: University of California Press.

Krafft, H. U. Türklerin Elinde Bir Alman Tacir- Ein Schwabischer Kaufmann in Türkischer Gefangenschaft. tr. Turgut Akpınar. Istanbul: İletişim, 1996.

Kurt, Abdurrahman. Tanzimat Döneminde Kadının Sosyo-Ekonomik Konumu, Bursa Örneği (1839-1836). Unpublished paper.

Kutay, Cemal. Pembe Mendil. Istanbul: Yeni Asya Yayınevi.

Mabro, Judy. Veiled Half-Truths-Western Travelers' Perceptions of Middle Eastern Women. London, New York: I. B. Tauris & Co Ltd. Publishers, 1991.

Marcus, Abraham. "Men, Women and Property: Dealers in Real Estate in Eighteenth Century Aleppo." Journal of the Economic and Social History of the Orient XXVI. 137-63. (May, 1983).

Melek Hanum. Thirty Years in the Harem: or the Autobiography of Melek Hanum, Wife of H. H. Kıbrızlı Mehemmet Pasha. London: Chapman and Hall, 1872.

Melman, Billie. Women's Orients: English Women and the Middle East, 1718-1918 / Sexuality, Religion and Work. London: MacMillan Academic and Professional Ltd., 1992.

Meriwether, Margaret. "The Rights of Children and the Responsibilities of Women-Women as Wasis in Ottoman Aleppo, 1770-1840." Women, the Family, and Divorce Laws in Islamic History. pp. 219-235. ed. Amira Al Azhary Sonbol. Syracuse, New York: Syracuse University Press, 1996.

Miller, Barnette. Beyond The Sublime Porte / The Grand Seraglio of Stambul. New Haven: Yale University Press, 1931.

Monroe, W. S. Turkey and The Turks / An Account of the Lands, the Peoples and the Institutions of the Ottoman Empire. New impression. London: Darf Publishers Limited, 1908 and 1985.

Montague, Lady Mary Wortley. Letters from the Levant During the Embassy to Constantinople 1716-18. Reprint. New York: Arno Press & The New York Times, 1971.

Murata, Sachiko. The Tao of Islam / A Sourcebook on Gender Relationships in Islamic Thought. Albany: State University of New York Press, 1992.

Murphy, Lynn. Muslim Family Life in the Middle East as Depicted by Victorian Women Residents. M. A. Thesis. McGill University, 1986.

Nahal, Galal el-. The Judicial Administration of Ottoman Egypt in the Seventeenth Century. Minneapolis: Bibliotheca Islamica, 1979.

Nasr, Seyyed Hossein. An Introduction to Islamic Cosmological Doctrines. Albany: State University of New York Press, 1993.

Ortaylı, İlber. Osmanlı Toplumunda Aile. Istanbul: Pan Yayıncılık, 2000.

Osmanoğlu, Ayşe. Babam Sultan Abdülhamit / Hatıralarım. 3rd ed. Ankara: Selçuk Yayınları, 1986.

Özdemir, Rifat. "Kırşehir'de Ailenin Sosyo-Ekonomik Yapısı: 1880-1906." The Journal of Ottoman Studies IX. pp. 101-57. (1989).

Öztürk, Said. "Osmanlı Ailesi Üzerine Düşünceler." Ilim ve Sanat. Vols. 44-45. Istanbul: Vefa Yayıncılık, 1997.

Pardoe, Julia. City of the Sultan and Domestic Manners of the Turks in 1836. 3 vols. 2nd ed. London: Henry Colburn, 1838.

Peirce, Leslie P. The Imperial Harem / Women and Sovereignty in the Ottoman Empire. New York – Oxford: Oxford University Press, 1993.

Penzer, N. M. The Harem / An Account of the Institution As It Existed in the Palace of The Turkish Sultans With a History of the Grand Seraglio From its Foundation to the Present Time. London – Bombay – Sydney: George G. Harrap & Co. Ltd., 1936.

Ramsey, W. M. Every-Day Life in Turkey. London: Hodder and Stoughton, 1897.

Rumi, Jallaluddin. Discourses of Rumi. trans. A. J. Arberry. New York: Samuel Weiser, 1972.

Said, Edward. Orientalism. New York: Pantheon Books, 1978.

Sancar, Aslı. Osmanlı Toplumunda Kadın ve Aile. Istanbul: Hanımlar Eğitim ve Kültür Vakfı Yayınları, 1999.

——— "A Portrait of the Ottoman Woman." Çerçeve. pp. 115-119. January, 2000.

Saz, Leyla. The Imperial Harem Of The Sultans / Memoirs of Leyla (Saz) Hanımefendi. Istanbul: Peva Publications, 1994.

Seng, Yvonne J. "The Üsküdar Estates (Tereke) as Records of Everyday Life in an Ottoman Town, 1521-1524." Ph. D. dissertation. University of Chicago, 1991.

Seyfettin, Ömer. Bahar ve Kelebek. Istanbul: Inkılap ve AKA Basımevi, 1981.

Thevenot, Jean de. 1655-1656'da Istanbul ve Türkiye. trans. Reşat Ekrem Koçu. Istanbul: Çığır Kitabevi, 1939.

Toledano, Ehud R. Osmanlı Köle Ticareti 1840-1890. trans. Y. Hakan Erdem. Istanbul: Tarih Vakfı Yurt Yayınları, 1994.

Tugay, Emine Fuat. Three Centuries / Family Chronicles of Turkey and Egypt. London: Oxford University Press, 1963.

Tuğlacı, Pars. Women of Istanbul in Ottoman Times. Vol. I. Istanbul: Altay Han Matbaası, 1984.

——— The Ottoman Palace Women. Vol. III. Istanbul: Altay Han Matbaası, 1985.

Tulum, Mertol, ed. Mühimme Defteri 90. Istanbul: Türk Dünyasi AraştırmalarıVakfı, 1993.

Uluçay, Çağatay. Harem. 2nd ed. Ankara: Türk Tarih Kurumu Basımevi, 1985.

——— Padişahların Kadınları ve Kızları. Ankara: Türk Tarih Kurumu Basımevi, 1980.

Uzunçarşılı, İsmail Hakkı. Osmanlı Devletinin Saray Teşkilâtı. 2nd ed. Ankara: Türk Tarih Kurumu Basımevi, 1984.

Walker, Mary Adelaid. Eastern Life and Scenery, with Excursions in Asia Minor, Mytilene, Crete and Roumania. London: Chapman and Hall, 1886.

Yusuf Ali, Abdullah. The Holy Qur'an / Text, Translation and Commentary. Washington DC: The American International Printing Company, 1946.

Zarinebaf-Shahr, Fariba. "Women, Law and Imperial Justice in the Eighteenth Century." Women , the Family and Divorce Laws in Islamic History. ed. Amira Al Azhary Sonbol. Syracuse, New York: Syracuse University Press, 1996.

——— "Ottoman Women and the Tradition of Seeking Justice in the Eighteenth Century." Women in the Ottoman Empire / Middle Eastern Women in the Early Modern Era. pp. 253-263. ed. Madeline C. Zilfi. Leiden-New York-Köln: Brill, 1997.

Zilfi, Madeline C., ed. Women in the Ottoman Empire / Middle Eastern Women in the Early Modern Era. Leiden-New York- Köln: Brill, 1977.

